مجموع فيه:

- وصية الذهبي لمحمد بن رافع السلامي
- جزء في التمسك بالسنن للذهبي
- نصيحة ابن دقيق العيد لأحد نوابه في القضاء
- ملحق بكلمات في العلم وآداب الطلب والاتباع وذم الابتداع للحافظ الذهبي

اعتنى بها

جمال عزون

مكتبة العمرين العلمية

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة العمرين العلمية

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة - شارع الزهراء - الغوير
هاتف: ٥٦١٠٤٨٤ - فاكس: ٥٦١٠٤٩٤ - ص.ب: ٢٥١٥٩

قالُوا عن الحافظ الذّهبيّ :

- « الشّيخُ الإمامُ العلاّمةُ الحافظُ شمسُ الدّين أبو عبد الله الذّهبيّ، حافظٌ لا يُجارى، ولافِظٌ لا يُبارى، أتقنَ الحديثَ ورجالَه، ونَظَرَ عللَه وأحوالَه، وعرّف تراجمَ النّاس، وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس، ذِهْنٌ يتوقّدُ ذكاؤُه، ويصحُّ إلى الذّهَبِ نسبتُه وانتماؤُه » .

[صلاح الدّين الصّفديّ : الوافي بالوفيات ٢/١٦٣]

- « الشّيخُ الحافظُ الكبيرُ مؤرِّخُ الإسلام وشيخُ المحدِّثين » .

[ابن كثيرٍ : البداية والنّهاية ١٤/٢٢٥]

- « أمّا أستاذُنا أبو عبد الله فَبَصَرٌ لا نظيرَ له، وكنزٌ هو الملجأُ إذا نزلت المُعضلة، إمامُ الوجودِ حِفْظًا، وذَهَبُ العَصْرِ معنىً ولَفْظًا، وشيخُ الجرح والتّعديل، ورجلُ الرِّجال في كلِّ سبيل، كأنّما جُمعتْ الأمّةُ في صعيدٍ واحدٍ فنظرَها، ثمّ أخذ يُخبرُ عنها إخبارَ مَن حضرَها » .

[السّبكي : طبقات الشّافعيّة الكبرى ٩/١٠١]


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة :

إنّ الحمد لله نحمدُه ونستعينُه ونستغ
أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُ
له، وأشهدُ أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريكَ
ورسولُه .

أمّا بعد :

فقد وصّانا الله عزّ وجلّ في كتابه الك
﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِ
وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ
الدِّينَ﴾(٢). وكذلك رسولُه صلّى الله عليه وسلّم وصّى أصحابَه وأمّته من بعده بوصايا عديدة، كقوله صلّى الله عليه وسلّم لأبي سعيد : « أُوصيك بتقوى الله تعالى ؛ فإنّه رأس كلّ شيء »(٣).

---

(١) النساء : الآية ١٣١ .

(٢) الشورى : الآية ١٣ .

(٣) رواه أحمد ٣ / ٨٢ عن أبي سعيد وهو حسن ، انظر الصحيحة رقم: ٥٥٥ للألباني .

وأقوالُ السّلف الصالح من الصّحابة والتّابعين ومن بعدهم غنيّةٌ بالوصايا الرّائقة والنّصائح الصّادقة، كوصيّة عمر بن الخطّاب، ووصيّة عثمان ومعاذ وغيرهم، وقد جمعها الحافظ أبو سليمان محمّدُ بن عبد الله ابن أحمد بن زَبْر الرَّبَعيّ المتوفّى سنة ٣٧٩هـ في كتاب سمّاه « وصايا العلماء عند حضور الموت »[١].

والعلماءُ سلكُوا هذا المسلك، وكتبُوا وصايا كثيرة، كوصيّة أبي القاسم ابن منده[٢] ت ٤٧٠هـ، ووصيّة ابن قدامة[٣] ت ٦٢٠هـ، وابن الجوزي[٤] ت ٥٩٧هـ، وابن تيمية[٥] ت ٧٢٨هـ، وغِيرهم.

ووصيّة الحافظ الذّهبيّ لابن رافع السّلاميّ رحمهما الله تعالى هي واحدة من هذا المعين الصافي والمنهل العذب، أحببت اليوم أن أقدمها في رسالة وجيزة للأخ القارىء الكريم؛ علّه ينتفع بها، ويرى فيها ما يفيده في دنياه ويعينه في آخرته، والله الموفّق .

❁ ❁ ❁

---

(١) طبع بدار ابن كثير عام ١٤٠٦هـ بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط وصلاح محمد الخيمي .

(٢) هو من مصادر الحافظ ابن حجر في الفتح ١ / ١٥٤ وتغليق التعليق ١/٢٦٥ كذا في معجم المصنفات الواردة في فتح الباري ص٤٤٠ لمشهور حسن ورائد صبري .

(٣) وهي مطبوعة .

(٤) المسماة : لفتة الكبد في نصيحة الولد ، وهي مطبوعة .

(٥) لها طبعات عديدة .

• وصف النّسخة الخطّيّة :

الوصيّة تقع في مجموع ضمّ رسالتين :

الأولى : بيان نقل الأخبار وشرح مذاهب أهل الآثار وحقيقة السّنن وتصحيح الرّوايات لابن منده(١) .

الثّانية : وصيّة الذّهبيّ هذه .

ولهذا المجموع صورة في قسم مخطوطات الجامعة الإسلاميّة تحت رقم: ١٠٥٢ [المصوّرات] ، ورسالتُنا تقعُ في ورقة ونصف، وخطّها فارسيّ، ولم يذكر فيها اسمُ النّاسخ ولا تاريخُ النّسخ. وقد قُوبلت على نسخةٍ أخرى كما في آخرها .

• توثيقُ نسبة الوصيّة للحافظ الذّهبيّ(٢) :

نسب هذه الوصيّة للحافظ الذّهبيّ تلميذُه تاج الدّين عبدُ الوهّاب السّبكيّ في كتابه « معيد النّعم ومبيد النّقم » فقال :

« ورأيتُ من كلام شيخنا الذّهبيّ في وصيّته لبعض المحدّثين في هذه الطّائفة : ما حظُّ واحد من هؤلاء إلاّ أن يسمع ليروي فقط، فليعاقبنّ بنقيض قصده، وليشهّرنّه الله تعالى بعد أن ستره مرّات، وليبقينّ مضغة في الألسن، وعبرة بين المحدّثين، ثمّ ليطبعنّ الله على قلبه ـ ثمّ قال ـ : فهل يكون طالب من طلاّب السّنّة يتهاون بالصّلوات، أو يتعانى تلك القاذورات ؟ وأنحسُ منه محدِّثٌ يكذبُ في حديثه، ويختلقُ الفشار. فإن

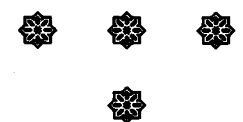
(١) طبع بتحقيق عبد الرّحمن الفريوائي .

(٢) وهذه « الوصية » فات د. بشار ذِكْرُها في كتابه « الذّهبيّ ومنهجه في تاريخ الإسلام » .

ترقّت همّتُه الفتيّة إلى الكذب في النّقل والتّزوير في الطّباق، فقد استراح. وإن تعانى سرقةَ الأجزاء أو كَشْطَ الأوقاف فهذا لصٌّ بسمت محدِّث. فإن كمّل نفسَهُ بتلوُّطٍ أو قيادةٍ، فقد تمّت له الإفادة. وإن استعمل من العلوم قسطا، فقد ازداد مهانة وخبطا ـ إلى أن قال ـ: فهل في مثل هذا الضّرب خيرٌ ؟ لا كثّر الله منهم »(١) .

وهذا النّصُّ موجودٌ في « الوصيّة » مع اختلاف يسير(٢) نبّهت عليه في موضعه .

وأسلوبُ الذّهبيّ ظاهرٌ في الوصيّة جدًّا، وقارن مثلا بينها وبين « زغل العلم » له يتّضح لك الأمر جليًّا .



(١) معيد النعم ومبيد النقم ص ٨٩ .

(٢) كتقديم بعض الفقرات على بعض، والاختلاف في رسم بعض الكلمات .

صورة الصّفحة الأولى من الوصيّة

صورة الصّفحة الثّانية من الوصيّة

وَصِيَّةُ الحَافِظِ الذَّهَبِيِّ ت ٧٤٨ هـ

لِمُحَمَّدِ بْنِ رَافِعٍ السَّلامِيّ

اعْتَنَى بِهَا

جَمَال عَزُّون

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه وصيّةُ الشّيخ الإمام العالم الحافظ البارع أبي عبْـد ا لله محمّـد بـن أحمد بن عثمان الذّهبيّ المقرئ رحمه ا لله تعالى لمحمّد بن أبي الفضل رافع بن أبي محمّد بن محمّد السّلامي[1] :

يَا وُلَيد رافع ! اسمع أَقُلْ لك: أراكَ ـ وا لله ـ مثلي[2] مُزْجَى البضاعَـة، قليلَ العلمِ بالصِّناعَة، فلا أقلَّ من الإقبال على الطّاعَـة، ولُـزومِ خَمْسِـك في جَماعَة .

وهل شيءٌ أقبحُ من شابٍّ يَخْدُمُ السُّـنَّةَ ولا يعمـلُ بهـا؟! نَعَـم؛ آخـرُ يُبالِغُ في الطَّلَب، ويكتبُ عمّن دَرَجَ ودَبّ[3]، ثمّ لا يصلّي! فـلا بـارَك ا للهُ

(١) محمّد بن رافع بن هَجْرَس، المحدِّثُ، العالِمُ، الحافظُ، المفيدُ، الرّحّالُ، المتقـن، نـاصر الدِّيـن الصّميديّ ثمّ المصريّ الشافعيّ، ولد سنة ٧٠٤هـ، وتوفي سنة ٧٧٤هـ، قالـه الذّهـبيُّ في المعجم المختصّ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠، وانظر مقدّمة كتـاب الوفيـات للسـلامي ـ بتحقيـق : صالح مهدي عبّاس .

(٢) هذا من تواضع الذهبي رحمه ا لله تعالى .

(٣) في المثل : أكذب من دبَّ ودرج؛ أي: أكذب الأحيـاء والأمـوات، انظـر لسـان العـرب ٢٦٩/٢، والمعنى هنا أنّه يكتب عن كلِّ أحدٍ دون انتقاءٍ للشّيوخ.

في هـذا النَّمَـط! فإنّ هـؤلاء مـا غَوَايَتُهـم بـالحديث إلاّ كغَوَايَـة المصـارِع والسَّاعي ولاعبِ الحَمام، بل أُولاءِ أَعْذَرُ بالجهلِ .

وهـذا المُعَـثَّرُ يَسْـمَعُ الألـوفَ مـن الحديـثِ فيهـا الوعيـدُ والتَّهديـد، والعذابُ الشّديد، ولا يَنزجر، بل ما أظنُّه يسمعُ شيئاً، ولا يفهـم حديثاً؛ لأنّه إن كان قارئاً بنفسه؛ فبجَهْدِه أن يتَهَجّى الأسمـاءَ والمتـون، ويُبَـدِّلَ مـا يُشير إليه، وعينُه إلى تنبيه الشّيخِ تارةً، وإلى أَمْـرَدَ حـاضرٍ تـارةً، وإلى إقامـةِ الإعرابِ تارةً؛ لئلاّ يُخْزَى بين الحاضرين، وإن كان غيرَه القـارئُ اسـتراحَ، فأنا كفيلٌ لك بأنّه ما يسـمعُ غـيرَ: (ثنـا[1] قـال: ثنـا)، و(صلّـى ا لله عليـه وسلّم)؛ لكثرةِ دَوْرِ ذلك .

فتراه إمّا يكتبُ الأسماءَ حـالَ السَّماع؛ فَيَبْطُـلُ ويُبطِـل، أو يَنْسَـخُ في جـزء، أو يكتـبُ طِباقـاً[2]، أو يُطـالعُ في شـيءٍ، وهـذا أجـودُ أحوالِـه، ولا جودةَ فيها، أو بمكانٍ[3] ـ وهـذا الأغلـبُ ـ يُحَـدِّثُ جَليسَـه، ويَمْـزَحُ مـع الصِّبيان المِلاَح؛ فمتى يَسمعُ هذا أو يعقلُ أو يبصـرُ أو يُغـني عنـه الحديـثُ شيئاً ؟!

---

(١) اختصار : حدّثنا .

(٢) يعني طبقا السّماع، وهو أن يكتب الطالبُ اسمَ الشّيخ الـذي قـرأ أو سمع عليـه أو منـه كتاباً أو جزءاً أو نحوه وما يلتحق بالاسم من نسبٍ ونسبةٍ وكنيةٍ ولقـبٍ ومذهـبٍ ونحـو ذلك، أو في النّسخة التي يرومُ تحصيلَها من المسموع. انظر فتح المغيـث ١١٤/٣ للحـافظ السخاويّ.

(٣) أي : أو تراه بمكانٍ . . .

وأمّا قول وكيع[١]: « إنّ هذا الحديثَ يصدُّكم عن ذِكْرِ الله وعن الصّلاةِ؛ فهل أنتم مُنْتَهُون؟! »[٢]؛ فهذا قالَهُ في الصّلاةِ المُقارِنَةِ للذِّكْرِ، وهي النّوافلُ؛ أي: يُقَلِّلُ تَشاغُلَكُم بالنّوافل؛ فانتهوا عن ذلك.

أمّا أن يَصُدَّهُم عن الفرائض الخمس؛ فحاشا لله! هذا ما كان في سِيَرِهم قطّ؛ إلاّ في أيّام الجهادِ وقبلها بمدّة[٣].

---

(١) ابن الجرّاح الرُّؤاسي الإمام الحافظ ت ١٩٧هـ .

(٢) لم أره عن وكيع لكن عن شعبة أخرجه البسويُّ في المعرفة والتّاريخ ٧٢٧/١ والخطيب البغداديّ في شرف أصحاب الحديث ص١١٤ ــ باب ذكر أخبارٍ ربّما أشكلت على سامعيها، وبيان الإشكال الواقع في وجوهها ومعانيها ــ ، وأبو بكر أحمد بن مروان الدّينوري المالكي في المجالسة وجواهر العلم ٥٨٧/٢، وابن عديّ في الكامل ٨٨/١، وابن عبد البرّ في جامع بيان العلم وفضله ١٠٢٩/٢، رقم: ١٩٦٩، من طرق عن شعبة به .
قال أبو خليفة : « يريد شعبة ـ رحمه الله ـ أنّ أهلَه يضيِّعون العملَ بما يسمعون منه، ويتشاغلون بالمكاثرة به، أو نحو ذلك، والحديثُ لا يصدُّ عن ذِكْرِ الله، بل يَهدي إلى أمر الله، وذَكر كلاماً » .
قال الخطيب البغدادي : « وليس يجوزُ لأحدٍ أن يقول: كان شعبةُ يثبِّطُ عن طلب الحديث، وكيف يكون كذلك وقد بلغ مِن قدرِه أن سُمِّيَ أمير المؤمنين في الحديث، كلُّ ذلك لأجل طلبه له، واشتغاله به، ولم يزل طولَ عمره يطلبه حتى مات على غاية الحرص في جمعه، لا يشتغل بشيءٍ سواه، ويكتب عمّن دونه في السنِّ والإسنادِ، وكان من أشدِّ أصحاب الحديث عنايةً بما سمع، وأحسنهم إتقانا لما حفظ » .

(٣) كذا في الأصل : إلاّ في أيّام الجهادِ وقبلها بمدّة ، والمراد فيما يظهر أنّ جهاد العدوِّ يحصل فيه نوعُ تغييرٍ وتشاغلٍ، نحو الجمع بن الصّلاتين، وقصر الأربع إلى ركعتين، بل وإلى ركعةٍ واحدةٍ عند بعضهم، وينقسم فيها المسلمون إلى طائفتين، إحداهما تؤدي الصلاة، وأخرى تجابه العدوَّ، وعند احتدام السّيوف تشرع ﴿رجالاً وركباناً﴾ .

وهل يترك الصّلاةَ مُحَدِّثٌ إلاّ وهو مِن الرُّذَالَة[١] الزُّبالَة، آوٍ إلى التَّعثُّرِ والضَّلالَة ؟!

فإن كمَّل نفسَه بتلوُّطٍ أو قِيادَة[٢]؛ فقد تمّت له الإفادَة، وإن استعمل من العلوم قِسْطاً، فقد ازدادَ مَهانَةً وخَبْطاً، وبَذَلَ دِينَه لشيطانه، وأدبرَ عن الخير؛ فهل في مثلِ هذا الضَّرْبِ خيرٌ ؟ لا كثَّرَ ا للهُ مثلَهم، فما حظُّ الواحدِ[٣] [مِن هؤلاء][٤] إلاّ أن يسمعَ ليرويَ فقط .

فَلَيُعَاقَبَنَّ بنقيضِ قصده، وليُشَهِّرَنَّهُ ا للهُ [تعالى][٥] بعد أن سترهُ مرّاتٍ، ولَيَبْقَيَنَّ مُضْغَةً في الألسُن، وعِبرةً بين المحدِّثين، ثمّ لَيَطْبَعَنَّ ا للهُ على قلبه، ورُبّما سُلِب التّوحيد، وطَمِعَ فيه الشّيطان؛ فدخلَ في باطنه الخَرابُ، وشَكَّكَهُ في الإسلامِ والنّبوّاتِ إلى أن يخسرَ الدّنيا والآخرة؛ نَسألُ ا للهَ العفو والسِّتر .

فبا للهِ يا أخي ثمّ با لله؛ اتّقِ ا للهَ في نفسكَ المسكينَة، ولا تَكُن ممّن أدخلَهُ طلبُ الحديثِ النّارَ؛ فما ارتفعَ رافِعٌ[٦] إلاّ بالتّقوى، والخيرِ، وملازمةِ الآداب النّبويّة .

---

(١) الرُّذالة : ما انتقي جيّدُه وبقي رديئُه. لسان العرب ٢٨١/١١ (رذل) .

(٢) في بعض نسخ معيد النّعم : بتلوّطٍ اعتادَه ، كما في هامش ص ٨٩ .

(٣) في معيد النعم ص ٨٩ : واحد .

(٤) زيادةٌ من معيد النّعم ص ٨٩ .

(٥) من معيد النعم ص ٨٩ .

(٦) يشير الحافظ الذهبيّ هنا إلى رافع بن هجرس والد محمّدٍ الذي قدّم له الذهبيُّ هذه الوصيّة، وكان رافعٌ هذا إماماً، مقرئاً، محدّثاً، فقيهاً، زاهداً، خيِّراً، عني بالرّواية والقراءات، وكتب وحصّل بعض =

فإن قَبِلْتَ نُصحي؛ فما أَوْلاكَ بالخير والتّوقير، وإن أعرضتَ كإعراضِك عن وصيّةِ الإلهِ العظيم، فتبّاً لك سائرَ الدّهر؛ فإنّ الله يقول ـ وهو أصدقُ مَن قال، وأرحمُ مَن أمر، وأعلمُ مَن أوحى، وأكرمُ مَن هدى، وهوأشفقُ علينا مِن أنفسنا ـ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُم وَإِيَّاكُم أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾[١] .

فبالله ؛ قُل لي : هل يكونُ طالبٌ من خُدّامِ[٢] السُّنّةِ يَتهاونُ بالصّلوات، أو يَتعاني تلكَ القاذورات؟ لا والله، ولا هو ممّن اتّقى الله .

وأَنْحَسُ من ذلك كلِّه محدِّثٌ[٣] يكذِبُ في حديثِه، ويختلِقُ الفُشاراتِ[٤]، فإن تَرقّت همّتُه المقيتةُ[٥] إلى الكذب في النّقل، والتّزويرِ في الطِّباقِ، فقد استراح، وطَرّسَ[٦] الطّلبة على اسمِه ورسمِه: صورةً ومعنىً .

الأصول، وعلّق وأفاد، ذكر الذهبي أنّه احتمع به بالقاهرة وذاكره، توفي سنة ٧١٨هـ، انظر المعجم المختصّ ص ٩٨ للذهبيّ.

(١) النّساء : الآية ١٣١ .

(٢) في معيد النعم ص ٨٩ : طلاّب .

(٣) في معيد النعم ص ٨٩ : و أنحس منه محدِّثٌ ، ونبّه المعلّقُ أنّ في بعض النُّسخ : « أنجس » ؛ بدل : « أنحس » .

(٤) في معيد النعم ص ٨٩ : الفشار ، وهو الهذيان ، وهذه الكلمة لم ترد في كلام العرب، انظر القاموس المحيط مادة (فشر) .

(٥) في معيد النعم ص ٨٩ : الفتيّة ، وفي بعض نسخه : المهينة والمعنتة .

(٦) في الأصل : وطرشوا ، ولعلّ المثبت أولى ، إذ الطِّرْسُ : الكتابُ الذي مُحِي ثمّ كُتب، يقال : طَرَّسَهُ : إذا أعادَ الكتابةَ على المكتوبِ الممحوِّ، انظر المعجم الوسيط ٥٥٤/٢ (طرس)، وعلى =

وإن تَعانى سرقةَ الأجـزاء، أو كشـطَ الأوقـاف، فهـذا لـصٌّ بسَـمْتِ مُحَدِّثٍ، وإن جعل الطّلبَ له مأْكَلَةً ودُكّاناً؛ فالأعمالُ بالنِّيّاتِ، ولاقوّةَ إلاّ با للهِ .

فاقرأ كتابَك كفى بنفسك عليك حسيبا، وأعوذُ بـا للهِ أن أكـونَ قـد ضيّعتُ الزّمانَ في نعتِ بَطَلَةِ الطَّلَبَةِ، أبلاهم ا لله بالغَلَبَة.

فافتح عينَك، وأحضِرْ ذِهنَك، وأرعِني سمعَك، فإن انتفعـتَ وعَقَـدْتَ مع ا لله عَقْدًا؛ فقد توسَّمْتُ فيـك الخيرَ، وإن شـرذْتَ وركبـتَ الإعـراضَ والكسلَ مثلِي(١)، فواحسرتا عليَّ وعليك.

فثَمَّةَ طريقٌ قد بقي لا أكتُمه عنك(٢)، وهو كثرةُ الدّعـاء، والاسـتعانةُ با لله العظيم في آناءِ اللّيلِ والنَّهار، وكثرةُ الإلحاح على مـولاكَ بكـلِّ دعـاءٍ مأثورٍ تستحضرُه أو غيرِ مأثورٍ، وعقيبَ الخَمْسِ، في أن يُصْلِحَك ويُوَفِّقَك.

والزم - ولا بُدَّ - آيـةَ الكرسـيِّ في دُبـر الصَّلـواتِ المفروضـة، وأكـثِر الاستغفارَ والأذكار، والزم الصِّدق المفرط عن كلّ بـدّ في كـلّ شـيء، ولا تَستكبر، ولا تكن ممّن يَستكبر بما عَلِم، فإنّك جاهلٌ خبِلٌ(٣) .

هذا يكون معنى السّياق أنّ المزوِّرَ في طباق السّماع حين يكشط الأسماء ونحـو ذلـك فـإن الطلبـة يكتبون على كتابته المزورة محاولين إظهار الصّحيح الذي محاه، أو إخفاء الكذب الذي أبداه .

(١) هذا مِن تواضع الحافظ الذّهبيّ، وحاشاه أن يكون مِن أهل الإعراض والكسل.

(٢) وهكذا شأنُ العلماء، لا يكتمون ما يعلمون، ولا يألون جهداً في إبداء نصائحهم؛ رغبةً في الهداية والإصلاح .

(٣) في الأصل : خبلي ، والمثبت أولى ، والخَبْلُ : الجنون وشبهُه كالهَوَجِ والبَلَه انظر المصباح المنير ص ١٩٥.

فداوم ـ با لله ـ [على] التّواضع الزّائد، والمسكنةَ للمسلمين إلاّ الفاسقين منهم، وأحبَّ لله، وأبغِض في ا لله، وثق با لله، وتوكّل على ا لله، وأنزل ضرورَتك با لله، ولا تستغنِ إلاّ با لله، وأكثر مِن : لا حولَ ولا قوّة إلاّ با لله، ومِن الصّلاة على رسول ا لله صلّى ا لله عليه وسلّم تسليماً كثيراً دائماً أبداً .

انتهت الوصيّة.

قوبلت(١).



(١) أي على نسخة أخرى .

جُـزْءٌ في
التَّمَسُّـكِ بِالسُّنَنِ

تأليف

شمس الدّين الذّهبيّ ت ٧٤٨ هـ

اعْتَنَى به

جَمَال عَـزُّون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة :

إنّ الحمد لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ با لله من شُرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده ا للهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلاّ ا لله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه.

أمّا بعد :

فهذا جزءٌ لطيفٌ(١) خطّهُ يَراعُ الحافظ النّاقد المؤرِّخ شمس الدِّين أبي عبد ا لله محمّد بن أحمد بن عثمان الذّهبيّ المتوفّى سنة ٧٤٨ هـ، تناول فيه موضوعَ التّمسُّك بالسُّنَن واجتناب البدع، وهو موضوعٌ ذو أهميّةٍ بالغةٍ، لأنّ مبنى الدِّين على العبوديّة الخالصة والاتّباع الصّحيح، فلا يعبدُ إلاّ ا لله، ولا يعبدُ ا للهُ إلاّ بما شرعَ على لسان رسول ا لله ﷺ، وهذا معنى الشّهادتين الكريمتين اللّتين شرع ا لله بحكمته البالغة تكريرهما في الأذان

---

(١) كنتُ نسختُ هذا الجزء قبل بضع سنواتٍ، ورأيتُ من المناسب الآن أن ينشر مع هذه المجموعة، ثمّ ألفيتُ د. محمّد باكريم محمّد باعبد ا لله حفظه ا لله تعالى نشره في مجلّة الجامعة الإسلاميّة ، العددان : ١٠٣ - ١٠٤ ، لعام ١٤١٦هـ - ١٤١٧هـ، فاقتضى التّنبيهُ لمن أراد أن يستفيد من نشرته، وا للهُ يوفّقُ الجميع لما يحبُّ ويرضى.

والإقامة يوميّاً مرّاتٍ عديدة، ترسيخاً للتّوحيد والاتّباع، والنّصوصُ الّتي تناولت هذه القضيّة كثيرةٌ في الكتاب والسُّنّة وآثار السّلف الصّالح، ويكفينا الآن منها قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠]، ففي آخر الآية بيانٌ واضحٌ لتوحيد العبادة ووجوب إخلاص الدِّين له سبحانه واجتناب ما يضادُّ هذا التّوحيد من الشّرك، كما أنّ أوّل الآية فيه الإشارة إلى أصل الاتّباع لأنّ العمل لا يكون صالحاً إلاّ إذا كان صواباً موافقاً للسُّنّة النّبويّة، وبهذه الآية استدلّ الفضيلُ بن عياض وغيرُه من أهل العلم على شرطي قبول الأعمال وهما الإخلاص والاتّباع رزقنا الله وإيّاكُم ذلك بفضله وكرمه.

ورسالة الذّهبيّ هذه عالج فيها الموضوع من جوانب عدّة يجمعُها محورٌ واحدٌ هو كمال هذا الدّين وتمامُه، وأنّ النّجاةَ والسّلامةَ في اتّباع السُّنّة، والخسرانَ والهلكةَ في الإحداث والابتداع. ولم يخل الرّسالةِ من لمحةٍ تاريخيّةٍ عن ظهور البدع، وأشهر الفرق المنحرفة عن منهج السّلف الصّالح، مع تعريفاتٍ موجزةٍ للسُّنّة والبدعة.

● اسمُ الجزء وتوثيقُ نسبته إلى الحافظ الذّهبيّ:

إنّ أسلوبَ الحافظ الذّهبي ظاهرٌ جدّاً في هذا الجزء، ونَفَسَهُ في الحضّ على الاتّباع والتّحذير من الابتداع لا يكادُ يخفى، وعباراتُه الذّهبيّةُ الّتي يختمُ بها التّعليق على النّصوص من سؤال الله الثّبات على التّوحيد والسّنّة ونحو ذلك تؤكِّدُ صحّةَ نسبة هذا الجزء إليه.

ثمّ إنّه جاء في آخر النّسخة ما يؤكّدُ ذلك حيث قال النّاسخُ :

« كُتبتْ هذه النّسخة من خطّ مؤلّفها الحافظ الذّهبيّ ، وقُوبلتْ على خطّه » .

أمّا اسمُ الجزء فلم يرد له ذِكْرٌ في النّسخة الخطّيّة، وموضوعُه المتعلّقُ باتّباع السُّنّة واجتناب البدعة يجعلُ الباحثَ يطمئنُّ إلى حدٍّ كبيرٍ أنّ هذا الجزء هو المذكورُ عند سبط ابن حجر وابن تَغري بَردي وابن العماد باسم: التّمسُّك بالسّنن(١) .

● وصف النّسخة الخطّيّة :

اعتمدتُ في تحقيق هذا الجزء على نسخة مكتبة الأسكوريال بإسبانيا، ولها صورة في قسم مخطوطات الجامعة الإسلاميّة بالمدينة النّبويّة تحت رقم: ٧٥٩٩ - فلم ، وهي تقعُ ضمن مجموع [٥٣ أ ـ ٥٨ ب]، في ستّ ورقاتٍ، وقد خلت من ذِكْرِ اسم النّاسخ وتاريخ النّسخ، وخطُّها نسخيٌّ مقروءٌ، مسطرتُها : ٢٥ سطراً . وهي نسخةٌ منقولةٌ من خطّ المؤلّف ومقابلةٌ عليه كما أفاد ذلك ناسخُ الجزء .

❁ ❁ ❁

(١) كما نقله عنهم د. بشّار عوّاد في كتابه الذّهبيّ ومنهجه في كتابة تاريخ الإسلام ص٢١٢.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله
عليه وسلم اعلم ان البدعة مذمومة في الجملة قال تعالى شرعوا
لهم من الدين ما لم يأذن به الله وقال وان هذا صراطي مستقيما
فاتبعوه ولا تتبعوا السبل وقال ومن اضل ممن اتبع هواه
بغير هدى من الله فاتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم
اصل ونور ومخالفته ضلال ووبال وابتداع ما لم يأذن فيه
ولا سنة مردود، جعفر بن محمد عن ابيه عن جابر ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال في خطبته ان اصدق الحديث
كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الامور محدثاتها وكل
بدعة ضلالة وفي رواية ابن المبارك عن الثوري عن جعفر وكل
محدثة بدعة وكل ضلالة في النار وحديث العرباض وصححه
الترمذي قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة
بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول
الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد الينا قال اوصيكم
بتقوى الله والسمع والطاعة فانه من يعش منكم بعدي فسيرى
اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين
من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات
الامور فان كل بدعة ضلالة وروي عن غضيف بن الحارث
مرفوعا ما ابتدع قوم بدعة الا ترك من السنة مثلها
وجاء في الاثر كل بدعة ضلالة وان رآها الناس حسنة تفسير
هذه الاطلاقات فان النزاع يقع في اشياء هل هي او هي مذمومة
فطائفة تذمها لانها بدعة واخرى لا تذم ويقولون من
البدع حسن وهي وهذه من الحسن وقد تعدها بعضها التي
تدينه ولا تشعر بانه جاء فيه اثر وكذلك عامة الطوائف
تدعي انها اهل السنة وتبدع من خالفها فنقول السنة
التي هي مقابلة البدعة هي الشريعة المأثورة من واجب ومندوب

بدايةُ المخطوط

والمحافظة على الفرائض والطهارة، والابتهال
إلى الله في الهدى والتوفيق مع الذكاء والعلم ولعلهم
يتعجب من بعض كيف خالف في أشياء من الصفات
كما ينبغي الآخر منه ومن سعة علومه كيف لم
على أثرها وآثرها ولعلهم يتعجب من مولانا ومن
هؤلاء كيف لم يسكتوا كما سكت الجمهور وفوضوا
ذلك إلى الله ورسوله حتى إن التلميذ ليتعجب
من شيخه في الفصول مهم من الانفصال ونحن
نرجو للجميع العفو والمغفرة ولعل حفاظهم
مع بذل الوسع وحسن النية في الأصول
والفروع شيئا واحدا أعني أرباب هذا النوع
الذين لا يحيدهم عن الكتاب والسنة وأما ما يسرع
العبادات والعادات فخطبها يسير وكتلاوة
جامع بتطريب، وإذا أمر وصلاة النصف
والتلاوة فيه، وأمثال ذلك من الشعارات
والمهمات والنيات والحوادث وأشباه ذلك ولكن
الجمهور كلهم مع الإجماع واجتماع الكلمة إنما [illegible]
الزمن في الملاد والمجلس والسرور فبدعة وجهله
فإن فعلها المسلم لدينا مع أهل [illegible] ويعلم
وإن فعلها حبا لله ورسوله وابتهاجا ناعما ذهب
مذموما بهما، وإن فعلها عادة ولعبا وأرضيا
لعياله وحبا للأطفال فهذا محل نظر وإنما
الأعمال بالنيات، وللجاهل يعذر ويبين
له برفقه، والله تعالى أعلم، وكتبت هذه النسخة
من خط مؤلفها الحافظ الذهبي وقوبلت على خطه

نهايةُ المخطوط

جُـزْءٌ في

التّمَسُّـــكِ بِالسُّنَـنِ

تأليف

شمس الدّين الذّهبيّ ت ٧٤٨ هـ

اعْتَنَى به

جَمَال عَـزُّون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله، والصّلاةُ والسّلامُ على رسول الله ﷺ .

اعلم أنّ البدعةَ مذمومــةٌ في الجُملـة قـال تعـالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾(١)، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾(٢)، فاتِّباعُ ما جـاء بـه الرّسـولُ ﷺ أصـلٌ ونـورٌ، ومخالفتـه ضلالٌ وَوَبالٌ، وابتداعُ ما لم يَأذن فيه ولا سَنَّهُ مَردُودٌ.

[روى] جعفرُ بن محمّد، عن أبيـه، عـن جـابر أن النبيّ ﷺ قـال في خُطبته: « إن أصدقَ الحديثِ كلامُ اللهِ، وخيرَ الهـدي هـديُ محمّـدٍ، وشرَّ الأمـور محدثاتُهـا، وكـلَّ بدعـةٍ ضلالـةٌ »(٣)، وفي روايـة ابـنِ المبـارك، عـن الثّوري، عن جعفر: « وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النّار »(٤).

وحديثُ العِرْبَاضِ وصَحّحه التِّرمذيُّ قـال: « خَطبنـا رسـولُ الله ﷺ بخطبةٍ بَلِيغةٍ؛ ذَرَفَتْ منها العُيونُ، وَوَجِلَـتْ منهـا القلـوبُ، فقـال قـائلٌ: يـا

---

(١) الشّورى : الآية ٢١ .

(٢) القصص : الآية ٥٠ .

(٣) أخرجه مسلم ٥٩٢/٢، رقم: ٤٣، من طريق عبد الوهّاب بن عبد المجيد، عن جعفر بن محمّد به .

(٤) أخرج هذه الرّواية النّسائيُّ ١٨٨/٣ بإسنادٍ صحيحٍ .

رسولَ الله، كأنَّ هذه موعظـةَ مُـودِّعٍ فمـاذا تَعهـدُ إلينـا؟ قـال: أُوصيكـم بتقوى الله، والسّمعِ والطّاعةِ؛ فإنّه من يَعِشْ منكم بَعدي فسـيرى اختلافـاً كثيراً، فعليكُم بسُنّتي وسُنّةِ الخلفاءِ الرّاشدين المهديِّين مِن بعـدي، تَمسّكُوا بها، وعَضُّوا عليها بـالنّواجذِ، وإيّـاكُم ومحدثـاتِ الأمُـور؛ فـإنّ كـلَّ بدعـةٍ ضلالةٌ »[1] .

ورُوي عن غُضَيف بن الحارث مرفوعاً : « مـا ابتـدع قـومٌ بدعـةً إلاّ تَركُوا من السُّنّة أختَها »[2].

وجاء في الأثر : « كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ وإن رآها النّاسُ حسنةً »[3].

تفسيرُ هذه الإطلاقات :

فإنّ النّزاعَ يقعُ في أشياء هل هي [محبوبةٌ] أو هي مذمومـةٌ؟ فطائفـةٌ ذمّتها لأنها بدعةٌ، وأخرى لا تَذُمّ، ويقولون: من البدع حَسَنٌ وسَـيِّءٌ[4]،

---

(١) أخرجه أبو داود ٥/١٣ ـ ١٤، رقـم: ٤٦٠٧، والتّرمذيُّ ٥/٤٣، رقـم: ٢٦٧٦، وابنُ ماجه ١/١٥ ـ ١٦، رقم: ٤٢، من طريقين عن العرباض بن سارية، قال التّرمذيُّ: « هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ ».

(٢) أخرجه بنحوه أحمد ٤/١٠٥، والبزّار ـ زوائده ١/٨٢، رقم: ١٣١، من طريقين عن أبي بكر بن عبد الله، عن حبيب بن عُبيد الرَّحَبي، عن غُضيف بن الحارث الثُّمالي به، قال الهيثميُّ في مجمع الزّوائد ١/١٨٨: « فيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو منكرُ الحديث ».

(٣) أخرجه بإسنادٍ صحيحٍ المروزيُّ في السُّنّة ص ٢٤، واللالكائيُّ في شـرح أصول الاعتقـاد ١/٩٢، رقم: ١٢٦، من طريقين عن هشام بن الغاز، عن نافعٍ، عن ابن عمر قال: فذكره .

(٤) البدعُ كلُّها سيِّئةٌ ، وما جاء من وصف بعض الأفعال بأنّهـا بدعـةٌ حسـنةٌ فـالمرادُ البدعـةَ اللّغويّة لا الشّرعيّة .

وهذه من الحَسَنِ، وقد تَعُدُّ طائفةٌ الشّيءَ بدعةً ولا تشعرُ بأنّه جاء فيه أثـرٌ، وكذلك عامّةُ الطّوائف تدّعي أنّها أهلُ السُّنّةِ وتُبَدِّع مَن خالفها.

فنقولُ :

السُّنّةُ التي هي مُقابلةُ البدعةِ هي الشِّرْعَةُ المـأثورةُ مِن واجبٍ ومندوبٍ[1]، وصنّفَ خلائقُ من المحدِّثين كتباً في السُّنّةِ والعقائدِ على طرائق أهلِ الأثر، وسمّى الآجُرِّيُّ كتابَه « الشّريعة » .

فالبدعةُ على هذا ما لا يأمرُ الله به ولا رسولُه، ولم يأذن فيه ولا في أصلِه[2]؛ فعلى هذا كلُّ ما نهى الله ورسولُه عنه فهو من البدعة[3]، أما المباحُ المسكوتُ عنه فلا يُعَدُّ سُنّةً ولا بدعةً، بل هو ممّا عفا الله عنه.

(١) هذا تعريفٌ للسُّنّة بالمعنى العامّ الذي يشملُ ما قام الدّليلُ الشّرعيُّ عليه بأنّه طاعةٌ لله ورسوله، سواء فعله ﷺ، أو أقرّه، أو لم يفعل في زمانه لعدمِ المقتضي حينئذٍ لفعله، أو وجود المانع منه، فإنّه إذا ثبتَ أنّه أمر به أو استحبّه فهو سنّةٌ انظر مجموع فتاوى ابن تيميّة ٢١/٣١٧ ـ ٣١٨. ثمّ إنّ السُّنّةَ والبدعةَ بينهما علاقةٌ لغةً وشرعاً؛ فمن ناحية اللّغة نرى بينهما ترادفاً لأنّ السُّنّةَ لغةً هي الطّريقةُ حسنةً كانت أو سيّئةً، فكلٌّ من ابتدأ أمراً عملَ به قومٌ من بعده قيلَ هو سنّةٌ. ومن ناحية الشّرع نرى بينهما تضادّاً وتنافراً لأنّ السّنّة شرعاً هي طريقةُ النّبيّ ﷺ وأصحابه، والبدعةُ هي ما كان مخالفاً لطريقة النّبيّ ﷺ وأصحابه. انظر قواعد معرفة البدع ص ٢٧ ـ ٢٨ للجيزاني.

(٢) في هذا التّعريف ضابطٌ واحدٌ من ضوابط البدعة وهو ألاّ يستند الفعلُ إلى أصلٍ شرعيٍّ، وبقي ضابطان وهما أن يكون الفعلُ مُحْدَثاً حتّى يخرج ما لا إحداثَ فيه أصلاً كالشّعائر الدّينيّة من صلاةٍ وصيامٍ، والأمور الدّنيويّة كالطّعام واللّباس ونحو ذلك، وضابطٌ ثالثٌ أن يُضاف هذا الإحداثُ إلى الدّين بحيث يريد صاحبُه إحداثَ طريقةٍ في الدّين تضاهي الطّريقةَ المشروعةَ، ولهذا كان تعريفُ الشّاطبيّ أجمعَ تعريفٍ للبدعة وأشمله حيث قال : « طريقةٌ في الدِّين مخترعةٌ، تُضاهي الشّرعيّة، يقصدُ بالسُّلوك عليها المبالغةُ في التّعبُّد لله سبحانه »، ثمّ شرح التّعريفَ مطوّلاً انظر الاعتصام ١/٥٠ ـ تحقيق الهلالي.

(٣) ثمّة علاقةٌ بين البدعة والمعصية فيجتمعان ويفترقان: يجتمعان في أنّ كلاً منهما منهيٌّ عنه، مذمومٌ شرعاً، ويلحقُ فاعلَه الإثمُ، ومن هذا الوجه فإنّ البدعَ تدخلُ تحت جملة المعاصي، =

وفي « السُّنن » لسلمان مرفوعاً : « ما سكتَ الله عنه فهو ممّا عفا عنه »(١).

[وفي] حديث أبي ثعلبة(٢) مرفوعاً : « وسكت عن أشياءَ رحمةً لكم من غير نسيانٍ فلا تبحثُوا عنها »(٣)؛ فكلُّ ما سكت الشّارِعُ عنه هل يُسمّى حلالاً أو عفواً ؟ فيه قولان للعلماء .

وعليه تكونُ كلُّ بدعةٍ معصيةً، وليس كلُّ معصيةٍ بدعةً، فقول الذّهبي: « كلُّ ما نهى الله ورسولُه عنه فهو من البدعة » فيه نظرٌ، إذ ليس كلُّ منهيٌّ عنه أو معصيةٍ بدعةً؛ فالزّاني عاصٍ لكنّه لا يسمّى مبتدعاً، والسّكّيرُ عاصٍ لكنّه لا يوصفُ بالابتداع، فكلُّ بدعةٍ معصيةٌ، وليس كلُّ معصيةٍ بدعةً، انظر علم أصول البدع ص ٢١٧ ـ ٢١٨ لعليّ حسن عبد الحميد. وتنفردُ المعصيةُ عن البدعة بأنّ مستند النّهي عن المعصية هو الأدلّة الخاصّة من نصوص الوحي أو الإجماع أو القياس، بخلاف البدعة فإنّ مستندَ النّهي عنها هو الأدلّة العامّةُ ومقاصد الشّريعة وعموم قوله ﷺ: « كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ ». وتنفردُ البدعةُ بكونها مضاهية للمشروع إذ هي تُضافُ إلى الدِّين وتلحق به، بخلاف المعصيّة فإنّها مخالفة للمشروع إذ هي خارجةٌ عن الدّين غير منسوبةٍ إليه. وأيضاً فإنّ جنس البدعة أعظم من جنس المعصية ذلك أنّ فتنةَ المبتدع في أصل الدِّين، وفتنة المذنب في الشّهوة. انظر قواعد معرفة البدع ص ٣٠ للجيزاني.

(١) أخرجه التّرمذيُّ ٤/١٩٢، رقم: ١٧٢٦ ـ الحوت، وابنُ ماجه ٢/١١١٧، رقم: ٣٣٦٧، من طريق سيف بن هارون البرجمي، عن سليمان التّيميّ، عن أبي عثمان النّهدي، عن سلمان به. قال التّرمذيُّ: « هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفُه مرفوعاً إلاّ من هذا الوجه »، ثمّ ذكر أنّ الحديث وقفه أصحّ. وقد حسّن الحديثَ العلاّمةُ الألبانيُّ في صحيح التّرمذي ٢/١٤٥، وصحيح ابن ماجه ٣/١٤١، وغاية المرام رقم : ٢ ، ٣ .

(٢) في الأصل : أبي نخيلة ، والتّصويب من مصادر التّخريج .

(٣) أخرجه الحاكمُ في المستدرك ٤/١١٥، والدّارقطنيُّ في السّنن ٤/١٨٣ - ١٨٤، من طريق داود بن أبي هند، عن مكحول، عن أبي ثعلبة الخشني به.

فالبدعةُ المذمومةُ لابدّ أن تندرج في القسم المذمُوم؛ محرّمةً كانت أو مكروهةً، كما أنّ السُّنّةَ المحبوبةَ مندرجةٌ في القسم المحمُود.

وإنّما نشأ النِّزاعُ مِن جهة قومٍ ظنُّوا أنّ البدعةَ هي ما لم يفعله النّبيُّ ﷺ وأصحابُه والتّابعون أو لم يقولُوه، والرّسولُ يتحتّمُ اتّباعُه فلا يمكنُ أن يكون قولُه أو فعلُه بدعةً قطّ ، بل هو سُنّةٌ.

فتراهُم تارةً يقتصرُون في البدعة على ما لم يصدُر عنه، وتارةً يضمُّون إليه الخلفاء الأربعة، وتارةً يضمُّون إليه البَدْرِيِّين، وتارةً الصّحابةَ، وتارةً الأمّةَ، وتارةً السَّلَفَ.

فما مِن أحدٍ[1] مِن هؤلاء إلاّ مَن هو متبوعٌ في شيء؛ لأنّه مِن أُولي الأمر، فإذا كان متبوعاً إمّا شَرْعاً وإمّا عادةً احتاج إيجادُ البدعةِ إلى أن يُخْرَجَ ما يُتبعُ فيه عن أن يكون بدعةً.

ثمّ لمّا اعتقد هذا خَلْقٌ صارُوا يتنازعُون بَعْدُ في بعض هذه الأمور التي لم يفعلها المتبوعُ؛ فقومٌ يرونها كلّها سُنّةً أخذاً بعمُوم النّصّ في قوله: «كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ».

فهؤلاء وقفُوا مع النّصّ؛ لأنّه[2] لابدّ لمن سلكَ هذا أن يقول: ما ثبت حسنُه مِن هذه البدع فقد خُصّ من العموم.

أو يفرّق بين البدعة اللّغوية والبدعة الشّرعية، وهذه الطّريقةُ أغلبُ على الأثريّة، وذلك أشبهُ بكلام أحمدَ ومالكٍ، لكن قد يُغَلِّظُون[3] في مُسمّى البدعةِ.

---

(١) في الأصل : فمن أخذ ، والمثبتُ أعلاه أولى .
(٢) في الأصل : لأن ، والمثبتُ أعلاه أولى .
(٣) ويحتملُ رسمُها : يغلطُون .

وقومٌ قسّمُوها إلى محرّمٍ، ومكروهٍ، ومباحٍ، ومستحبٍّ، وواجبٍ(١)، وذكرُوا قولَ عمر: « نعمت البدعةُ »(٢) ، وقولَ الحسن: « القَصَصُ بدعةٌ ونعمت البدعةُ، كم فيها مِن أخٍ مُستفادٍ ، ودعاءٍ مستجابٍ »(٣).

وقال الشّافعيُّ : « البدعة بدعتان : بدعةٌ خالفت كتاباً أو سُنّةً أو إجماعاً أو قولَ صاحبٍ فهذه ضلالةٌ ، و بدعةٌ لا تخالفُ ذلك فهذه حسنةٌ »(٤).

(١) قد أجاب الشّاطبيُّ عن هذا التّقسيم بما خلاصتُه أنّه أمرٌ مخترعٌ لا يدلُّ عليه دليلٌ شرعيٌّ، بل هو في نفسه متدافعٌ؛ لأنّ حقيقةَ البدعةِ أن لا يدلّ عليها دليلٌ شرعيٌّ لا من نصوص الشّرْع ولا من قواعده، إذ لو كان هنالك ما يدلُّ من الشّرع على وجوبٍ أو ندبٍ أو إباحةٍ لما كان ثَمَّ بدعةٌ، ولكان العملُ داخلاً في عموم الأعمال المأمور بها، أو المخيَّر فيها؛ فالجمعُ بين عدِّ تلك الأشياء بدعاً، وبين كون الأدلّة تدلُّ عليها جمعٌ بين متنافيين. انظر كتاب الاعتصام ١/ ١٩١ - ١٩٢ للشّاطبي رحمه الله تعالى .

(٢) أخرجه مالكٌ في الموطّأ ١/١١٤، رقم: ٣، ومن طريقه البخاريُّ ٤/٢٥٠، رقم: ٢٠١٠. والبدعةُ هنا في كلام عمر لغويةٌ لا شرعيّة بدليل أنّ صلاة التّراويح جماعةً فعلها رسولُ الله ﷺ في أوّل الأمر، وإنّما امتنع بعد ذلك خشية أن تفرض عليهم، وذلك لا يدلُّ على المنع مطلقاً لأنّ زمانه ﷺ كان زمان وحي وتشريع، فلمّا زالت علّةُ التّشريع بموت رسول الله ﷺ رجع الأمرُ إلى أصله.

(٣) ذكر قولَ الحسن ابنُ الجوزي في تلبيس إبليس ص ١١٧، وابنُ رجب في جامع العلوم والحكم ص٢٩١، والسّيوطيُّ في الأمر بالاتّباع ص ٨٨ .

(٤) أخرج قولَ الشّافعيّ أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/١١٣. قال ابنُ رجب في جامع العلوم والحكم ٢/١٣١: « مرادُ الشّافعيّ رحمه الله ما ذكرناه من قبلُ أنّ البدعة المذمومة ما ليس لها أصلٌ من الشّريعة يرجع إليه وهي البدعةُ في إطلاق الشّرع. وأمّا البدعةُ المحمودةُ فما وافق السُّنّةَ يعني ما كان لها أصلٌ من السُّنّة يرجع إليه، وإنّما هي بدعةٌ لغةً لا شرعاً لموافقتها السّنّة ».

قالوا : وثبت بالإجماع استحبابُ ما يُسمّى بدعةً كالتّراويح(١).

وذكرُوا حديث « مَن سنَّ سُنَّةً حسنةً »(٢)، لكنّهم لا يكادُون يضبطون الفرقَ بين البدعة الحسنة والبدعة السيّئة، فهذا يستحسِنُ ما يذمُّه الآخَرُ.

وبعضُهم قال: البدعةُ هي ما نُهي عنها لعَيْنِها وما لم يَرِدْ فيه نهيٌ لا يكونُ بدعةً ولا سُنَّةً؛ فلازِمُ قولهم تعطيلُ معنى قوله: « كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ » حيث قالُوا: التّعميمُ بالتّقسيمِ والإثباتُ بالنّفي، ولم يبق فائدةٌ لقوله: « كلُّ محدثةٍ بدعةٌ »، بل يبقى بمنزلة قوله: كلُّ ما نهيتكم عنه ضلالةٌ(٣).

لكن عمدتهم ما يقومُ من الأدلّة على حُسْنِ بعض ما سَمَّوْهُ بدعةً من إجماعٍ أو قياسٍ، وهذه طريقةُ مَن لم يتقيّد بالأثر إذا رأى حقّاً ومصلحةً مِن متكلّمٍ وفقيهٍ وصوفيٍّ؛ فتراهُم قد يخرجُون إلى ما يخالفُ النّصَّ ويتركُون واجباً ومستحبّاً، وقد لا يعرفون بالنّصّ، فلابدّ من العلم بالسُّنن.

---

(١) حكم استحباب الجماعة في التّراويح ثابتٌ بفعلِ رسول الله ﷺ، وتسميتُه بدعة إنّما هو من ناحية اللّغة لأنّ عمر رضي الله عنه أحيا شيئاً فعله رسول الله ﷺ، لا أنّه اخترع شيئاً لم يسبقه إليه نبيُّه ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم ٢/٧٠٤ ــ ٧٠٥، رقم: ٦٩، من حديث جرير بن عبد الله البجليّ. والحديثُ واردٌ في الصّدقة حيث ابتدر أحدُ الصّحابة إليها بعد أن حثّهم رسول الله ﷺ ممّا حمل سائر من كان حاضراً على التّصدُّق، فقال رسول الله ﷺ حينها هذا الحديث.

(٣) لشيخ الإسلام ابن تيميّة جوابٌ نفيسٌ على من حمل قولَه ﷺ: « كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ » على ما نُهي عنه عموماً فقال في الاقتضاء ص ٢٧٢ ــ ٢٧٤: « لا يجوزُ حملُ قوله ﷺ: كلُّ بدعةٍ، على البدعة التي نُهي عنها بخصوصها لأنّ هذا تعطيلٌ لفائدة هذا الحديث » في كلامٍ مطوّلٍ له رحمه الله، وانظر علم أصول البدع ص ٢١٧ - ٢٢٤ للحلبيّ.

أمّا ما صحّ فيه النّهيُ فلا نزاعَ في أنّه منهيٌّ عنه وأنّه سيِّئٌ، كما أنّ ما صحّ فيه الأمرُ فهو شَرْعٌ وسُنَّةٌ.

وأمّا مَن خالف باجتهادٍ أو تأويلٍ فهذا ما زال في الأعصار.

فأوّلُ ذلك بدعةُ الخوارج حتّى قال أوّلُهم للنّبيّ ﷺ: « اعْدِلْ »[1]؛ فهُم لا يُصرِّحُون بمخالفة السُّنّةِ المتواترةِ ويَقفُون مع الكتاب؛ فلا يرجمُون الزّاني، ولا يعتبرُون النِّصابَ في السّرقة، فبدعتُهم تخالفُ السّنن المتواترة.

وغالبُ مَن يُخالِفُ مذاهبَ السّلف في الأصول والفروع إنّما يخالفُها لاعتقاده أنّ ذلك مخالفٌ للنّصوص والعقل.

قال الإمام أحمد: « أكثرُ ما يخطىءُ النّاسُ من جهة التأويل والقياس »[2].

وبعضُ الصّحابة ردَّ :

- حديثَ « الميّتُ يُعَذّبُ ببكاء أهلِه عليه »[3].
- وحديثَ مخاطبة أهل قليب بَدْرٍ[4].
- وحديثَ [بَرْوَع بنت واشِقٍ] في مهر المُفَوِّضَةِ[5].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ٦/٦١٧ ـ ٦١٨، رقم: ٣٦١٠، ومسلم ٢/٧٤٤ ـ ٧٤٥، رقم: ١٤٨، عن أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه قال: « بينما نحن عند رسول الله ﷺ ـ وهو يقسمُ قسماً ـ إذ أتاه ذو الخُوَيْصِرَة وهو رجلٌ من بني تميمٍ فقال: يا رسول الله، اعْدِلْ، فقال: ويلك، ومن يعدلُ إذا لم أعدل ... » .

(٢) ذكره عن أحمد ابنُ تيميّة في مجموع الفتاوى ١٣/٦٣ .

(٣) أخرجه البخاري ٣/١٥١، رقم: ١٢٨٦، ومسلم ٢/٦٤١، رقم: ٢٣، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه البخاري ٧/٣٠٠ ـ ٣٠١، رقم: ٣٩٧٦، ومسلم ٤/٢٢٠٤، رقم: ٧٨، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أبو داود ٢/٥٨٨، رقم: ٢١١٤، والتّرمذيُّ ٣/٤٥٠، رقم: ١١٤٥، والنّسائيُّ ٦/١٢١ ـ ١٢٢، وابنُ ماجه ١/٦٠٩، رقم: ١٨٩١، من طرق عن عبد الله بن مسعودٍ
=

ـ وحديثَ بنت قَيْسٍ في عدم السُّكنى والنّفقة للمبتُوتة(١).

وظهر في خلافة عليٍّ بدعةُ الخروجِ والرّفضِ وطعنِ الصّحابة بعضِهم في بعضٍ، وذلك خلافُ الكتاب والسُّنّة.

ثمّ ظهر في حُدود السّبعين بدعةُ القَدَرِ كذّبُوا بالعلم أو بالمشيئة العامّة، وذلك مخالفٌ للكتاب والسُّنّة.

وجاءت الجَبْرِيّةُ فجعلُوا العبدَ مجبوراً لا حُكْمَ عليه، فهذه أيضاً بدعةٌ مخالفةٌ لما في الكتاب مِن الأمر والنّهي والوعد والوعيد وإثابة المحسن وعقوبة الظّالم؛ فالأوّلُون كذّبُوا بخروجِ العُصاة من النّار وأحاديثِ الشّفاعة، ومن الأخيرين يقولُون: لا عذابَ وأنّ الإيمانَ لا يتفاوتُ.

ثمّ وُجدت بدعةُ الجهميّةِ والكلام في الله؛ فأنكرُوا الكلامَ والمحبّةَ، وأن يكون كَلَّمَ موسى أو اتّخذَ إبراهيمَ خليلاً، أو أنّه على العرش استوى،

في رجلٍ تزوّج امرأةً فمات عنها، ولم يدخُل بها، ولم يفرض لها الصّداقَ، فقال: لها الصّداقُ كاملاً، وعليها العدّةُ، ولها الميراثُ. فقال معقلُ بن سنان: سمعتُ رسول الله ﷺ قضى به في بَرْوَع بنت واشق». قال التّرمذيُّ: «حديثُ ابن مسعودٍ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

(١) أخرجه مسلم ٢/١١١٨، رقم: ٤٦، من طريق أبي إسحاق قال: كنتُ مع الأسود بن يزيد جالساً في المسجد الأعظم ومعنا الشّعبيُّ، فحدّث الشّعبيُّ بحديث فاطمة بنت قيس أنّ رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقةً، ثمّ أخذ الأسودُ كفّاً من حصىً فحصبه به فقال: ويلك! تحدِّثُ بمثل هذا قال عمر: لا نتركُ كتابَ الله وسنّةَ نبيّنا ﷺ لقول امرأةٍ لا ندري لعلّها حفظت أو نسيت، لها السّكنةُ والنّفقةُ قال الله عزّ وجلّ: ﴿لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾».

وذلك مخالفٌ للنّصوص، فنشأ مَنْ شَبَّهَ الباري، وجعلَ صفاته كصفاتنا، فخالفُوا الكتابَ والسُّنَّةَ .

ثمّ حدثَ في دولة المأمون ما هو مِن البدع الكفريّة كالخُرَّمِيَّةِ[1] ، والقَرامِطةِ، وتعطيل الشّرائع وأنّ ذلك رموزٌ، فلم يَرْتَبْ مسلمٌ في كفرهم.

فالمتّبعُ ضدُّ المبتدِع؛ لأنَ المتّبعَ [لم يخرُج] من حدود متبوعِه، [و] المبتدعُ أحدثَ أمراً على غير مثالٍ قال الله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾[2] أي مُبْدِعُ، وقيل: بديعُ سماواته وأرضه ومنه بديعُ الحال، وكلامٌ بديعٌ أي لم يُعهد له نظيرٌ .

ومعلومٌ أنّ النّبيّ ﷺ لم ينه عن كلِّ أمرٍ ابتداه مبتدىءٌ وأحدثهُ محدِثٌ، كم مرَّ إلى فسقةٍ أو كُفّارٍ فدعاهُم ووعظهُم، بل هو المعنيُّ بقوله عليه السّلام: « مَن دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثلُ أجور مَن اتّبعه »[3] الحديث، وبقوله: « مَن سنّ سُنّةً حسنةً »[4]، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[5]، وليس المرادُ بقوله: « مَن سنَّ سُنَّةً » أنّه يبتدعُ عبادةً أو قولاً لم يأذن الله به .

---

(١) أتباع بَابَك الخُرَّمي استباحوا المحرّمات وزعموا أنّ النّاس شركاء في الأموال والنّساء، انظر الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ للبغدادي.

(٢) البقرة : الآية ١١٧ .

(٣) أخرجه مسلم ٤/٢٠٦٠، رقم : ١٦ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) تقدّم تخريجُه ص ٣٧ .

(٥) البقرة : الآية ١٤٨ .

ومِن السُّنَّةِ الحسنةِ ما فعله عمرُ بن عبد العزيز مِن ردِّ المظالم وأخذه من الأمراء أموالاً، ومن السُّنَّةِ السّيّئةِ ما فعله الحجّاجُ من أَيْمَان البَيْعَةِ، وجُرأته على الدّم بمجرّد شُبهةٍ فإنّه أحدث أموراً قبيحةً؛ ولهذا أعظمَ العلماءُ مِن قَدْرِ الشّافعي وأحمد والجُنيد وأمثالهم أكثرَ من غيرهم لأنّهم سَنُّوا في الإسلام سُنَّةً حسنةً وأماتُوا بدعاً سيّئةً، قال عليه السّلام: « إنّ الله يبعثُ لهذه الأمّة على رأس كلِّ مائة سنةٍ مَن يُجدِّدُ لها دينَها »(١).

فمن لم يفرِّق بين ما ابتدعهُ الجَعْدُ وغَيْلان والجَهْمُ، وبين ما أحياه عمرُ بن عبد العزيز والحَسَنِ وأيّوبُ والأوزاعيُّ لم يفقه، وإن كان الكلُّ في اللُّغة قد ابتدعُوا وشرعُوا، بل كلُّ نبيّ له شِرْعَةٌ ومنهاجٌ بإذن ربِّه.

وإنّما ذمّ الله مَن شرعَ ديناً لم يأذن به الله ومِن ذلك قولُ عمر : « نعمت البدعةُ »(٢) لأنّها بدعةٌ في اللُّغة لا في العُرْف الشّرعي.

ومِن بدعة اللُّغة جمعُ المصحف وشَرَحَ الله لذلك صدرَ عمر وزيدٍ وأبي بكرٍ ثمّ عثمان.

فقولُه : « كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ » ليس المرادُ كلَّ ما سُمِّي في اللُّغة بدعةً، ويوضّحه قولُه: « وشرُّ الأمور محدثاتُها » فكلاهما في العرف صار لما يُذمّ.

(١) أخرجه أبو داود ٤/٤٨٠، رقم: ٤٢٩١، من طريق ابن وهب، أخبرني سعيدُ بن أبي أيّوب، عن شراحيل بن يزيد المعافري، عن أبي علقمة، عن أبي هريرة فيما أعلمُ عن رسول الله ﷺ قال: فذكره. قال العلاّمةُ الألبانيُّ في الصّحيحة رقم: ٥٩٩: « السّندُ صحيحٌ، رجالُه ثقاتٌ رجالُ مسلمٍ ».

(٢) تقدّم تخريجُه ص ٣٦ .

ودينُنا بحمد الله تامٌّ كاملٌ مَرْضيٌّ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(١)، وقولُه عليه السلام: « ما تركتُ من شيءٍ يُقرِّبكم إلى الجنّة ويُبعدكم عن النّار إلاّ وقد حدّثتكُم به »(٢)، فأيُّ حاجةٍ بنا بعد هذا إلى البدع في الأعمال والأقوال، قال ابن مسعود: « اتّبعُوا ولا تبتدعُوا فقد كُفيتم »(٣) .

(١) المائدة : الآية ٣ .

(٢) أخرجه الشّافعيُّ في مسنده ـ بدائع المنن رقم: ٧، والرّسالة رقم: ٢٨٩، ٣٠٦، ومن طريقه البيهقيُّ في السّنن الكبرى ٧/٧٦، والأسماء والصّفات ١/٤٩٩، رقم: ٤٢٧، وبيان خطأ من أخطأ على الشّافعيّ ص ١٠٥، والخطيبُ في الفقيه والمتفقّه ١/٢٧٠ ـ ٢٧١، رقم: ٢٧٢، عن عبد العزيز بن محمّد، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطّلب، عن المطّلب ابن حنطب أنّ رسول الله ﷺ قال: فذكره. وهذا مرسلٌ المطّلب بن حنطب تابعيٌّ، لكن رجّح الشّيخُ أحمد شاكر في حاشية الرّسالة ص ٩٣ ـ ١٠٣ أنّه من طبقة صغار الصّحابة وعليه يكون الحديثُ متّصلاً. وعلى كلٍّ فللحديث شواهدُ يتقوّى بها منها عن أبي ذرٍّ أخرجه الطّبرانيُّ في الكبير رقم: ١٦٤٧، وعن عمران بن داور أخرجه عبدُ الرّزّاق ١١/١٢٥، رقم: ٢٠١٠٠، وانظر الصّحيحة رقم: ١٨٠٣، وحاشية حديث عليّ بن حجر السّعدي ص ٤٢٨، وحاشية الفقيه والمتفقّه ١/٢٧١.

(٣) أخرجه وكيع في الزّهد ٢/٥٩٠، رقم: ٣١٥، وأحمد في الزّهد ص ٦٢، والدّارميّ ١/٨٠، رقم: ٢٠٥، وابنُ وضّاح في البدع والنّهي عنها ص ٤٣، وابنُ بطّة في الإبانة ١/٣٢٧، واللاّلكائيُّ في شرح أصول الاعتقاد ١/٤٦، رقم: ١٠٤، والطّبرانيُّ في الكبير ٩/١٦٨، رقم: ٨٧٧٠، والبيهقيُّ في المدخل رقم: ٢٠٤، من طرقٍ عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابتٍ، عن أبي عبد الرّحمن السّلمي، عن ابن مسعودٍ قال: فذكره. ورجالُه ثقاتٌ كما قال الهيثميُّ في المجمع ١/١٨١ إلاّ أنّ الأعمش وحبيباً مدلّسان وقد عنعنا، =

واتّباعُ الشَّـرْعِ والدِّيـن متعيِّـنٌ، واتّبـاعُ غـيرِ سـبيل المؤمنـين بـالهوى وبالظنّ وبالعادات المردودة مقتٌ وبدعةٌ، اللّهـمّ اصرف قلوبَنا إلى طاعتك.

قيل: « إنّ أُوَيْساً القَرنيَّ قال لهَرِم بن حَيّان: سَل الله أن يُصلح قلبَـك ونيّتَك، فإنّي ما عالجتُ شيئاً عليّ أشدّ مِن صلاح قلبي ونيّتي ».

وفي مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : « ما بعـث الله من نبيٍّ إلاّ كان له مـن أمّتـه حواريُّـون وأنصـارٌ، يسـتنُّون بسُـنّته ويتّبعُـون هديَه، ثمّ يخلفُ مِن بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلـون، ويفعلُـون مـا لا يُؤمرون، مَن جاهدهُم بيده فهو مؤمنٌ، ومن جاهدهم بلسانه فهـو مؤمـنٌ، ليس وراءَ ذلك من الإيمان حبّةُ خَرْدَلٍ »[1].

وفي البخاري حديثُ « من عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهـو رَدٌّ »[2]، ولو كانت البدعةُ مستحبّةً لكانت مقبولةً، وقد أمر بأشـياء لم تكـن علـى عهده ﷺ ، أو لم يعمل [بها] لعدم الحاجـة إليهـا، أو لانتفـاء شـرط الفعـل ووجود مانعه مثل قتال أهل الرِّدّة وقتال المجوس والتُّرك ويأج[3] والخوارج، وكأمره بإطاعة أمراء الجَوْرِ والصّلاة خلفَهم، وكشروط عمر علـى الذِّمّـة، وكان عليه السلام أقرّ يهود خيبر لفلاحتها بـلا جزيـةٍ، ثـمّ أجلاهُـم عمـرُ

وللأثر طريقٌ أخرى يتقوّى بها أخرجها أبو خيثمة في كتاب العلم رقـم: ٥٤ عـن حمّـاد، عن إبراهيم، عن عبد الله به، وصحّح إسنادَه العلاّمةُ الألبانيُّ.

(١) أخرجه مسلم ١/٦٩ ـ ٧٠ ، رقم : ٨٠ .

(٢) أخرجه البخاري ٥/٣٠١، رقم: ٢٦٩٧، ومسلم ٣/١٣٤٣، رقم: ١٧٠، مـن حديـث عائشة رضي الله عنها.

(٣) يعني يأجوج ومأجوج .

وضربَ عليهم الجزيةَ، وكذا نزولُ ابن مريم حَكَماً عَدْلاً فيكسرُ الصّليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزيةَ، وإنّما يفعلُ ذلك بأمر نبيّنا ﷺ، وكذلك ما يفعله المؤمنون في اليوم الطّويل زمنَ الدّجّال في كثرة الصّلوات في قوله: « [اقدرُوا] له قَدْرَهُ »، وكذلك أمره بالقعود في اليوم الفتنة والانفراد إلى الجبال في غنمه أو باتّخاذ سيفٍ من خشبٍ[1]، وكلُّ ذلك بحسب الأحوال على ما دلّت عليه النّصوصُ والعموماتُ.

ومن ذلك إذنُه في دخول حمّامات الأعاجم للرجل بمئزرٍ ومنع المرأة منه إلا المريضة والنّفساء[2]؛ فلا يقالُ دخولُ الحمّام بدعةٌ فما كان في الحجاز حَمّامٌ[3] .

وكذلك المطاعمُ والملابسُ والدُّورُ والرَّيُّ[4] قال الله تعالى: ﴿لاَ

(١) الأحاديثُ فيما سبق مشهورةٌ معلومةٌ لا داعي للإطالة بتخريجها .

(٢) أخرجه أبو داود ٤/٣٠١ ـ ٣٠٢، رقم: ٤٠١١، وابنُ ماجه ٢/١٢٣٣، رقم: ٣٧٤٨ من طريق عبد الرّحمن بن زياد بن أنعم، عن عبد الرّحمن بن رافع، عن عبد الله بن عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال: « إنّها ستفتحُ لكم أرضُ العجم، وستجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمّامات، فلا يدخلنّها الرّجالُ إلاّ بالأزر، وامنعوها النّساء إلاّ مريضةً أو نفساءَ »، وإسنادُه ضعيفٌ فيه ابن أنعم وابنُ رافعٍ وكلاهما ضعيفٌ، وانظر غاية المرام رقم: ١٩٢ للعلاّمة الألباني .

(٣) فما كان في الحجاز حمّام : الجملة غيرُ واضحةٍ في الأصل ، وهكذا اجتهد في قراءتها د.محمّد باكريم حفظه الله .

(٤) هكذا في المخطوط بالرّاء والمرادُ والله أعلم : الاستقاء، وأبدى د. محمّد باكريم احتمال أنّها : الزّيّ ، وفيه تكرارٌ لا يخفى إذ الملابس والزّيّ متقاربان في المعنى .

تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا﴾[١]، وقال: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾**[٢].

ولّما عافت نفسُه الزّكيّةُ أكلَ الضَّبِّ ما حرّمه، واعتذر بأن لم يكن بأرض قومِه .

وكان يحبُّ الحَلْواءَ والحُلْوَ الباردَ، واللّحمَ وأكلَ الدّجاج، والرُّطَبِ والقِثّاءِ، والطّيباتِ التي بأرضه، وتزوّج ببضع عشرة امرأة، ولبسَ القميصَ والعمامةَ والجُبّةَ الضّيقةَ، وركبَ الفرَسَ والنّاقةَ والحمارَ والبغلةَ، ولا كان مع ذلك يُكثرُ من التّنعُّم والرّفاهية، وما خُيّر بين أمرين إلاّ اختار أيسرَهما[٣] صلواتُ الله عليه وسلامُه .

قال تعالى: **﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾**[٤]، وقال: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾**[٥]، فاحذر الورعَ الفاسدَ، ولا تكُن عبدَ شهواتِك.

وكان يمرضُ ويتداوى، ويحرصُ على أدويةٍ نافعةٍ وعلى الحجامةِ.

وممّا أُحدثَ تمصيرُ الكوفةِ والبصرةِ، والمنائرُ، ووضعُ الدّواوين، وخزائنُ الأموال، وأمثالُ ذلك ممّا فعله الخلفاءُ الرّاشدون والأئمّةُ أو الأمّةُ كلُّها .

---

(١) المائدة : الآية ٨٧ .

(٢) الجاثية : الآية ١٣ .

(٣) الأحاديث فيما سبق مشهورةٌ لا حاجة للإطالة بتخريجها .

(٤) الطّلاق : الآية ٧ .

(٥) الأعراف : الآية ٣١ .

واستدلّ متكلِّمٌ على مَن أنكر عليه بعضَ حِجاجه ومسائِله بأنّه بدعةٌ لأنّ السّلفَ لم يُنقل عنهم نهيُك عن هذا، فلا بدّ أن يُجيبه بأنّ السّلفَ ما احتاجوا إلى النّهي، ودلّت النّصوصُ على النّهي فالنّهي حسنٌ. وأيضا فإذا كان الفعلُ بدعةً والبدعةُ ضلالةٌ فهذا تناقضٌ، فالفعلُ إن ثبت حسنُه بأدلّةٍ شرعيّةٍ فالنّهيُ عنه بدعةٌ، وإن لم يدلّ عليه الشَّرْعُ فهو بدعةٌ والنّهيُ عنه سُنّةٌ.

وربّما كان فصلُ الخطاب أنّ بعضَ الفعلِ حَسَنٌ وبعضَه سيّءٌ، مثالُه النّظرُ والمناظرةُ، فالجدالُ بالحسنى حسنٌ ومنه مذمومٌ قال الله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الذِينَ كَفَرُوا﴾[1]، وقال تعالى ـ يجمعُ الأمرين ـ: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾[2]، فمَن جادل في الحقِّ بعد ما تبيّن فهو مذمومٌ، سواء قصدَ نصرَ إمامه أو هواه وجادلَ بلا علمٍ .

ومنه قولُه عليه السلام في « السُّنن »: « القضاةُ ثلاثةٌ: قاضيان في النّار، وقاضٍ في الجنّة؛ رجلٌ علِم الحقَّ فقضى به فهو في الجنّة، ورجلٌ قضى على جهلٍ فهو في النّار ، و رجلٌ علِم الحقَّ فقضى بخلافه فهو في النّار »[3] .

---

(١) غافر : الآية ٤ .

(٢) آل عمران : الآية ٦٦ .

(٣) أخرج أبو داود ٣/٣٠٦، رقم: ٣٥٧٣ ، وابن ماجه ٢/٧٧٦، رقم: ٢٣١٥ عن ابن بريدة، عن أبيه، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: فذكره. قال أبو داود: « وهذا أصح
=

وكذلك المفتي والشاهدُ[١] والمصنِّفُ والمحدِّثُ، فمن تكلّم بلا علمٍ فجاهلٌ، أو حادَ عن الحقِّ فظالِمٌ، أو تكلّمَ بعلمٍ فله أجران إن أصاب أو واحدٌ إن أخطأ .

فمَن جادلَ الخصمَ بحُججٍ صحيحةٍ دلّ عليها النّصُّ أو الإجماعُ عند الحاجة فهو محسنٌ إن صلحت نيّتُه وذلك من فُروض الكفايات، والنّهيُ عنه عدوانٌ، ومَن جادل بلا حُججٍ وأعرضَ عن النّصوص ومَشى مع رأيه وهواه كما يفعلُه كثيرٌ من المتكلّمين فهو من المذمُومين لاسيّما إذا وقّعه حِجاجُه في التّذامُم ممّا يخالفُ الكتابَ والسُّنّةَ، ونهيُه سُنّةٌ حسنةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[٢]، وقال:﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[٣] .

فعلى العالم أن يُفتِّش على المسألة النّازلة في كتاب الله، فإن لم يجد فتّشَ السُّنن، فإن لم يجد نظرَ في إجماع الأمّة، وهذا هو المجتهِدُ المُطْلَقُ، وأنّى يوجدُ ذلك .

ومن الدّليل على مسائلَ عِدَّةٍ تَرْكُه أو إقرارُه مع علمه عليه السّلام بالمسألة[٤]، كما يُستدلّ بتركه الزّكاةَ في الخضراوات التي بالمدينة على عدم

شيء فيه، يعني حديث ابن بريدة : القضاة ثلاثة ». وللحديث ثلاثة طرق عن عبد الله ابن بريدة عن أبيه ذكرها العلامة الألباني في « الإرواء » ٨/٢٣٥ - ٢٣٧.

(١) بعدها في الأصل : والمفتي ، وهو تكرارٌ .

(٢) النّساء : الآية ٦٩ .

(٣) النّور : الآية ٥٤ .

(٤) يشيرُ الذّهبيُّ إلى قاعدة السُّنّة التّرْكِيَّةِ وهي : إذا ترك الرّسول ﷺ فعلَ عبادةٍ من العبادات مع كون مُوجبها وسببها المقتضي لها قائماً ثابتاً، والمانعُ منها منتفياً، فإنّ فعلَها بدعةٌ، =

الوجوب، وبتركه نهيَه للحَبَشَـةِ عـن الزَّفْـنِ(١) في المسـجد علـى الرُّخصـة، وبترك التّأذينِ في العيد والكسوف والاستسقاء على عدم الاستحباب، وأنّه ليس بدِينٍ ما أمسكَ عن فِعله؛ إذ الأمرُ بـه والنّـدبُ مـع قيـام المقتضـي دلَّ على أنّه ليس بحَسَنٍ ولا بِرٍّ .

وما أُحدث بعده وكان ممّا إليه حاجةٌ فَحَسَنٌ كفَرْضِ عمر للصّحابـة وغيرهم، وكالتّراويح وجمع النّاس على مصحفٍ .

ثـمّ خَلَـفَ قـومٌ اعْتَـدَوْا في الجُـوع والسَّـهَر والرّهبانيّـة، وفي المسـائل والسَّماع، وفي بذل بيوت الأموال لمن شـاءُوا ومنـع المستحِقّ، وتعـدَّوْا في العقوبات والجَوْر، واحتـالُوا علـى الرِّبـا، أو بـالغُوا في نفـي الصّفـات أو في إثباتها، وتنطّعُوا وزبرُوا ، فلا قُوّةَ إلاّ با لله .

وقد يفعلُ المسلمُ بعضَ الأمور بنوعِ تأويلٍ فيخطـىءُ وا لله يغفـرُ لـه، وقد يتوبُ وينقادُ للحقِّ، أو له حسناتٌ ماحيةٌ.

وقد كثُر المنكَرُ والحَـدَثُ؛ فلينْـهَ الفقيـهُ عمّـا أمكـنَ مـن البـدع بنيّـةٍ خالصةٍ وليحذر الغضبَ، فإن الفُرْقَةَ هَلَكَةٌ ، والجماعةَ رحمةٌ.

ويُروى أنّه « ما ابتدع قومٌ بدعةً إلاّ رُفع منهم مِن السُّنّة مثلُها »(٢).

كـالتّلفُّظ بالنّيّـة عنـد الدّخـول في الصّـلاة، والأذان للعيديـن، ونحـو ذلـك. انظـر اقتضـاء الصّراط المستقيم ٥٩١/٢ ـ ٥٩٧، ومجموع الفتاوى ١٧٢/٢٦، والاعتصام ٣٦١/١ فما بعد ـ دار المعرفة، وعلم أصول البدع ص ١٠٧ ـ ١١٨ للحلبيّ، وقواعد في معرفـة البـدع للجيزاني ص ٧٥ ـ ٧٩.

(١) هو اللّعب والدّفعُ والرّقصُ انظر النّهاية ٣٠٥/٢ .

(٢) أخرجه الدّارميُّ ٥٨/١، رقم: ٩٨، وابنُ وضّاحٍ في البـدع والنّهـي عنهـا ص ٨٥، وابـنُ بطّة في الإبانة ٣٥١/١، رقم: ٢٢٨ ـ تحقيق رضا بن نعسان، واللاّلكائيُّ في شرح أصول
=

[وقد] شرعَ اللهُ استماعَ القرآنِ وندبَ إليه، وذمَّ من يُعرض عنه؛ فأعرض قومٌ عن حقيقتِه وفهمِه الذي يخشعُ له القلبُ، ثم صارُوا لونين لوناً قَسَوْا واقتصرُوا على ظاهره وعلى تلاوته أمانيَّ كأهل الكتاب، ولونٌ طلبُوا رقّةَ قلوبهم بسماع غيره كالرُّهبان، وكلٌّ من الطّائفتين تقول للأخرى: لستُم على شيء؛ وبلا ريبٍ مع كلٍّ منهما نوعٌ من المشرُوع.

وكذا وقع التّفريطُ في مُسمّى السُّنّة حتّى أُخرج عنها بعضُ مُسمّاها[١] وعُدَّ بدعةً، وأُدخل فيها ما ليس منها بخبرٍ شاذٍّ[٢].

وكذلك الشَّرْعُ أُدخل في مُسمّاه أشياءُ في العبادات والمعاملات والأنكحة والعقوبات وغير ذلك ممّا فيه اختلافٌ، فصار الشَّرْعُ عند العامّي عبارةً عمّا يَحْكُمُ به قاضٍ وإن كان جاهلاً. أمّا الشَّرْعُ المنزَّلُ فما ثبت بالكتاب والسُّنّة والإجماع، وأمّا الشَّرْعُ المبدَّلُ كما يصدر من جهلة الحُكّام والوُكلاء؛ فالمُنَزَّلُ واجبٌ، والثّاني سائغٌ، والثّالثُ منهيٌّ عنه.

الطّيّباتُ أحلّها اللهُ لنا وحرّم الخبائث؛ فأمّا اليهودُ فبظلمٍ منهم حرّم اللهُ عليهم طيّباتٍ، وحملَ عليهم آصاراً كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ ...﴾[٣] الآية.

الاعتقاد ٩٣/١، رقم: ١٢٩، والهرويُّ في ذمّ الكلام ١٥١/٤، رقم: ٩٢٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٧٣/٦، من طرق عن الأوزاعي، عن حسّان بن عطيّة قال: « ما ابتدع قومٌ في دينهم بدعةً إلاّ نزع الله مثلَها من السُّنّة، ثمّ لا يردّها عليهم إلى يوم القيامة » ، وإسنادُه صحيحٌ.

(١) في الأصل : مسمّاه ، والمثبتُ أولى .

(٢) في الأصل : بخبر منها قول شاذ ، ولعلّ المثبتَ أقرب .

(٣) الأعراف : الآية ١٥٧ وتمامها : ﴿الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ...﴾ .

فالمحرَّمُ خبيثٌ : كالدّم، والميتة، وأكل مالٍ بالظُّلم، كالرّبا، والقمار، وأكل السُمِّ، والسِّباع، والدّم، وكلِّ حيوانٍ خبيثِ الغذاء إذ الاغتذاءُ به يورثُ الطَّبْعَ بغياً واعتداءً .

وكذا الدّمُ هو الحاملُ للاغتذاء به يورثُ الطّبعَ بغياً واعتداءً لقُوّة الشّهوة والغضب، وكذا الخمرُ؛ فالمحرّماتُ تضرُّ المزاجَ والدِّينَ أو أحدَهما، وكذا من أكل فوق عادته يتضرّرُ به .

فالمعروفُ كلُّ صلاحٍ وعَدْلٍ وخيرٍ، والمنكَرُ كلُّ فسادٍ وبغيٍ وظلمٍ وفُحْشٍ .

والطّيِّبُ : كلُّ حلالٍ مرىءٍ هنىءٍ مِن كسبٍ طيّبٍ.

والخبيثُ : كلُّ حرامٍ وبيءٍ نَكِدٍ مُؤْذٍ، مِن كسبٍ محرّمٍ قال تعالى: **﴿قُلْ لاَ يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ﴾**(١)، وفي الحديث : « الحلالُ ما أحلّه الله، والحرامُ ما حرّمه الله، وما سكتَ عنه فهو مما عُفي »(٢) .

ونبيُّنا ﷺ بُعث بالحنيفيّة السَّمحة، وبوضع الآصار والأغلال، وبإباحة طيّباتٍ كثيرةٍ حُرِّمت على أهل الكتابين؛ فللّه الحمدُ على دين الإسلام الحنيفيّ، فإنّه يسرٌ ورفقٌ ورحمةٌ للعالمين .

فأباح الله لنا الغنائمَ، ولحمَ الإبل، ومُؤاكلة الحائض، وأباح لنا العملَ في السّبت، وأربعاً من الزّوجات، وعِدّةً من السَّراري، والعفوَ عن أثر

---

(١) المائدة : الآية ١٠٠ .

(٢) تقدّم تخريجُه ص ٣٤ .

الغائط، والتّطهيرَ بالتّراب، والصّلاةَ في الأرض إلاّ المقبرة والحمّام، فلطف بنا في أشياءَ كثيرةٍ، ووعدنا بإجابة الدُّعاء ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ا للهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾(١).

وشرع لنا نبيُّنا كلَّ عبادةٍ تُقَرِّبنا إلى ا لله، وعلّمنا ما الإيمانُ وما التّوحيدُ، وتركنا على البيضاءِ ليلها كنهارها؛ فأيُّ حاجةٍ بنا إلى البدع في الأقوال والأعمال والأحوال والمحدثات، ففي السُّنَّةِ كفايةٌ وبَرَكَةٌ، فيا ليتنا ننهضُ ببعضها علماً وعملاً وديانةً ومعتقداً .

فشرُّ البدع وأخبثُها ما أخرجَ صاحبَها من الإسلام، وأوجب له الخلودَ في النّار، كالنُّصيريّة والباطنية ومن ادّعى نبوّةَ عَلِيٍّ.

ثمّ بعدهم غلاةُ الرّافضة وغلاةُ الجهميّة والخوارجُ، وهؤلاء يُترَدَّدُ في كفرهم، وكذا مَن صرّح بخَلْقِ القرآن أو جسّم أو جحد الصّفات أو شبّه ا لله بخَلْقِه .

ثم دُونهم القدريّةُ ودعاةُ المعتزلة ومن ينقص بأبي بكرٍ وعمر، ثمّ من ينقص بعثمان وعليٍّ وعمّارٍ وعائشة رضي ا لله عنهم.

ثمّ دُونهم الشّيعةُ الذين يحبُّون الشّيخين ويُفضّلُون عليّاً عليهما، والزّيديّة؛ فبدعُ العقائد تتنوّعُ، أعاذك ا لله وإيّانا منها.

وخلائقُ مِن كبار العلماء رحمةُ ا لله عليهم بدّع بعضُهم بعضاً من الشافعيّة والحنفيّة والحنابلة وأهل الأثر، وأهلِ الكلام ومُثبتةِ الصّفات القرآنية لا الخبرية، ومُثبتةِ الشّيعة دون غيرها، ومُثبتةِ ما ثبتَ من الأخبار

---

(١) إبراهيم : الآية ٣٤ .

دون ما حَسُنَ على اختلافِ آرائهم، ومبالغة بعضهم في الإقْرَار والإمْرَار وذمٌ التّأويل؛ فبين هؤلاء نزاعٌ وخلافٌ شديدٌ، مع إيمانهم - الكُلّ - با لله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والقَدَر، والانقياد للكتاب والصِّحاح والإجماع، وتعظيمِ الربِّ وإجلاله ومراقبته، والانقيادِ لرسول ا لله ﷺ والخضوعِ له، والمحافظةِ على الفرائض والطّهارة، والابتهالِ إلى ا لله في الُهدى والتّوفيق مع الذّكاء والعلم .

وبعضُهم يتعجّبُ من بعضٍ كيف خالفَ في تأويل الصّفات، كما يتعجبُ الآخَرُ منه ومِن سَعة علومه كيف جمدَ على إثباتها وأقرَّها، وبعضُهم يتعجّبُ من هؤلاء ومن هؤلاء كيف لم يسكتُوا كما سكت الجمهُور، وفوّضوا ذلك إلى ا لله ورسوله[١] حتّى إنّ التّلميذ ليتعجّبُ من شيخه، والمفضولَ فيهم من الأفضل .

ونحن نرجُو للجميع العفوَ والمغفرةَ، ونعدُّ خطأَهُم مع بذل الوسع وحُسن النّيّة في الأصول والفروع شيئاً واحداً، أعني أربابَ هذا النّوع الذين لا محيدَ لهم عن الكتاب والسُّنّة.

وأما بدعُ العبادات والعادات فخطبُها يسيرٌ[٢]، وكتلاوةِ جماعةٍ بتطريبٍ وأذانِهم، وصلاةِ النّصفِ والحَلاوةِ فيه، وأمثالِ ذلك من الشّعارات والهيئات والنّيّاتِ والحوادثِ وأشباهِ ذلك.

---

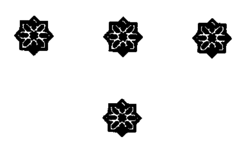
(١) الذي عليه سلفُ الأمّة وأئمّتُها إثباتُ ما أثبتهُ ا للهُ لنفسه في كتابه، وما أثبته له رسولُه ﷺ فيما صحّ من سنّته من صفات الجلال والكمال، بلا تأويل ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تشبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ .

(٢) مقارنةً مع بدع الاعتقاد وإن كان الكلُّ داخلاً تحت قوله ﷺ : « كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ ».

ولكنّ الخيرَ كلّه في الاتّباع ، واجتماع الكلمة .

أما مشابهةُ الذِّمَّة(١) في الميلاد والخَمِيس والنَيْرُوز فبدعةٌ وَحْشَةٌ(٢)؛ فإن فعلها المسلمُ تديُّناً فجاهلٌ يُزجر ويُعلَّم، وإن فعلها حبّاً لأهل الذِّمَّة، وابتهاجاً بأعيادهم فمذمومٌ أيضا، وإن فعلها عادةً ولعباً وإرضاءً لعِياله وجَبْرِ الأطفال فهذا محلُّ نظرٍ(٣)، وإنّما الأعمالُ بالنّيّات، والجاهلُ يُعذر ويُبيّن له برفقٍ ، والله تعالى أعلم.

وكُتبت هذه النّسخةُ مِن خطِّ مؤلِّفها الحافظ الذّهبيّ وقُوبلت على خطِّه.



(١) أي أهل الذّمّة .

(٢) للمؤلّف رسالةٌ مطبوعةٌ في هذه الأعياد سمّاها : تشبُّه الخسيس بأهل الخميس .

(٣) الأولى اجتنابُ ذلك لحصول المشابهة لأعياد المشركين .

نَصِيحَةُ العَلاَّمَةِ

ابْنِ دَقِيقٍ العِيدِ لأَحَدِ نُوَّابِهِ فِي القَضَاءِ

اعْتَنَى بِهَا

جَمَال عَزُّون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة :

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ با لله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده ا لله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا ا لله وحده لا شريك لـه، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فهذه نصيحةُ العلاّمة أبي الفتح محمّد بن عليّ بن وهب بن مطيع تقيّ الدّين القُشيري، المعروف بابن دقيق العيد (٦٢٥ هـ ـ ٧٠٢ هـ) صاحب المصنفات الجليلة كـ : « إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام »، و« الإلمام بأحاديث الأحكام »، و« الاقتراح في بيان الاصطلاح »، ينصحُ بها أحدَ نُوّابه في القضاء .

وليس المقامُ الآن مقامَ ترجمةٍ لابن دقيق العيــد[١]، ويكفـي في الدّلالـة على علمه وفضله قولُ السُّبكي فيه : « و لم نُدرك أحداً من مشايخنا يختلـفُ في أن ابن دقيق العيد هو العالِمُ المبعوثُ على رأس السّبعمائة »[٢] .

❁ - والنّسخة الخطيّة للنّصيحة عثرتُ عليها في المكتبة الوطنية بالجزائر - حرسها الله - ضمن مجموعٍ .

❁ - وليس فيها اسمُ النّاسخ ولا تاريخُ النّسخ .

❁ - قال ناسخُها: « ومنه[٣] أيضا - وذكر ولايـة الشـيخ تقـي الديـن ابن دقيق العيد القضاء سنة ٦٥٩هـ إلى أن قال - :

ومن لطائفه ما كتب إلى نائبه بإخميم[٤] : ... فذكر النّصيحة » .

❁ - وقد نسختُ الرســالة، وعلّقـتُ عليهـا بمـا يناسـب المقـام، والله الموفِّقُ لما يحبُّه ويرضاه .

---

(١) انظر ترجمةً رائقةً لابن دقيق في طبقات الشّافعيّة ٩/٢٠٧ - ٢٤٩ للسُّبكي .

(٢) المصدر السّابق ٩/٢٠٩ .

(٣) أي الكتاب الذي نقل منه رسالة ابن دقيق العيد هذه وغيرها، والذي يفهم من نقوله التي سبقت الرسالة أن الكتاب هو تاريخ عالِمِ حلب المحبِّ أبي الوليـد ابـن الشّـحنة والمسـمّى روض المنـاظر في علـم الأوائـل والأواخـر المطبـوع في حاشـية كتــاب مــروج الذهــب للمسعودي الطبعة القديمة، لكن لم أجد هذه الرسالة فيه، فالله أعلم .

(٤) بلد قديم على شاطىء النيل بالصعيد. قاله ياقوت في معجم البلدان (إخميم) .

[بسم الله الرحمن الرحيم]

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المَجْلِس[١] مُخْلِصِ الدِّين، وفّقه الله لقبول النّصيحة، وآتاه لما يُقربّه إليه قصداً صحيحاً ونيّةً صحيحةً.

أصدرناها إليه بعد حمدِ الله الذي يعلمُ خائنة الأعين وما تُخفي الصّدور، ويُمهلُ حتّى لا يلتبس الإمْهالُ بالإهْمال على المغرُور، ويُذكِّرُ بأيّام الله، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢].

ونحذِّرُه صفقةَ مَن باع الآخرةَ بالدُّنيا؛ فما أحدٌ سواه مغبُون، عسى الله أن يُفيدَه بهذا التّذكار وينفعَه، وتأخذَ هذه النّصائحُ بحُجْزَته عن النّار، فإني أخافُ أن يَتردّى فيخرّ مَن ولاّه معه[٣] والعياذُ بالله.

والمقتضي لإصدارها ما لَمَحناه مِن الغفلة المُسْتَحْكَمَةِ على القلُوب، ومِن تَقاعُدِ الهِمَمِ ممّا يجبُ للربّ على المربُوب، ومِن أُنسِهِم بهذه الدّار

---

(١) المجلسُ : لقبٌ من ألقاب أرباب السّيوف والأقلام صبح الأعشى ٥/٤٩٦ .

(٢) الحج : الآية ٤٧ .

(٣) المنصوح هونائب ابن دقيق العيد في القضاء فهو الذي ولاّه نيابة عنه، فخشي ابن دقيق أن يحاسبه ربّه إن لم يسد هذه النصائح لنائبه، وهذا من ورعه وتقواه.

وهم يُزعجُون عنها، وعِلمهم بما بين أيديهم من عَقَبةٍ كَؤُود وهم لا يتخفّفُون منها، ولا سيما القُضاة الذين تحمّلُوا أعباءَ الأمانة على كواهلَ ضعيفةٍ، وظهرُوا بصُوَرٍ كِبارٍ وهي نحيفةٌ .

وا للهِ إنّ الأمرَ عظيمٌ، والخطبَ جسيمٌ، ولا أرى مع ذلك أمْناً ولا قراراً، ولا راحةً ولا استمراراً، اللهمّ إلاّ رجلا نَبَذَ الآخرة وراه[1]، واتّخذ إلهه هوَاه، وقصر همَّه وهِمّتَه على حظٍّ نفسه ودنيَاه، فغايةُ مطلبه حبُّ الجَاه، والرّغبةُ في قلوب النّاس، وتحسينُ الزّيِّ والملبَس، والرّكبة والمجلِس، غيرَ مُستشعِرٍ خَساسةَ حالِه، ولا رَكاكةَ تَقصُّدِه، فإنّك لا تُسمع الموتى وما أنت بِمُسمِعٍ مَن في القبُور .

فاتّق ا للهَ الذي يراك حين تقُوم، وأقصر أَمَلَكَ عليه، فإنّ المحروم من فضله محرُوم[2].

وما أنا وإيّاكم أيّها النّفر، إلاّ كما قال حبيب العجمي[3] ـ وقد قال له قائلٌ : لَيْتَنَا لم نُخلق ـ قال : قد وقعتم فاحتالُوا .

وإن خَفي عليك مثلُ هذا الخطر، وشغلتك الدُّنيا عن معرفة الوَطَر، فتأمّل كلامَ النّبوة: « القضاةُ ثلاثةٌ : قاضٍ في الجنّة وقاضيان في النّار »[4] .

---

(١) أي : وراءه .

(٢) في الأصل « غير محروم » والمعنى يستقيم بغير كلمة « غير »، وا لله أعلم .

(٣) هو زاهد أهل البصرة وعابدهم، أبو محمّد له ترجمةٌ في السّير ١٤٣/٦ ـ ١٤٤.

(٤) تقدّم تخريجُه ص ٤٦ ـ ٤٧ .

وقول النّبيّ ﷺ لأبي ذر ـ مُشفقاً عليه ـ : « لا تأمّرنّ على اثنين، ولا تولّينّ مال يتيم »(١).

وما أنا والسَّيرَ في مَتْلَفٍ يبرِّحُ بالذَّكَرِ الضَّابطِ(٢)

هيهات ! جفَّ القلم، ونفذَ حكمُ الله، ومِن هناك شمَّ النّاسُ مِن فم الصّدّيق رائحةَ الكَبِد المشويّ .

وقال الفاروق : ليتَ أمّ عُمَرَ لم تلده(٣) .

وقال عليٌّ ـ والخزائنُ مملوؤةٌ ذهباً وفضّةً ـ : مَن يشتري سيفي هذا ؟ ولو وجدتُّ ما أشتري به رداءً ما بعته(٤) .

وقطع الخوفُ نِيَاط(٥) قلب عمر بن عبد العزيز، فمات من خشية العَرْض(٦) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٥٨/٣ ، رقم : ١٨٢٦ .

(٢) هو من قول أسامة الهذلي، انظر ديوان الهذليين ١٩٥/٢. والمتلف: المهلك. يبرّح: يجهد، وروي: يعبّر بالذكر، أي يحمله على ما يكره. الذكر الضابط: البعير العظيم. وانظر شرح الكافية الشافية ٦٩٠/٢.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٦٠/٣ بسنده إلى عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطّاب أخذ تبنة من الأرض فقال: ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أُخلق، ليت أمّي لم تلدني، ليتني لم أكُ شيئا، ليتني كنت نسيا منسيا.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨٣/١ .

(٥) نياط القلب : عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين لسان العرب ٤١٩/٧.

(٦) انظر ترجمته في حلية الأولياء ٢٥٣/٣-٣٢٣ لتعلم شأن هذا الخليفة وأنّه بلغ في الخشية أمرا عجبا !

وعلّق بعضُ السّلف سوطاً يُؤدّب به نفسَه إذا فَتَر .

فترى ذلك سُدىً ، أم نحن المُقرَّبون وهم البُعَداء ؟

فهذه أحوالٌ لا تُؤخذ من كتاب السَّلَم والإِجارة والجنايات، وإنما تتأتّى بالخضُوع والخشُوع، وأن تظمأ أو تجُوع .

ومما يُعينك على الأمر الذي دعوتُك إليه، ويزوّدُك في السّفر للعَرْض عليه، أن تجعل وقتاً تعمِّره بالتّذكُّر والتّفكُّر، وإنابةً تجعلُها مُعِدَّةً لجَلاء قلبك، فإنّه إن استحكم صَداه، صَعُبَ تَلافيه، وأَعْرَضَ عنه مَن هو أعلمُ بما فيه .

فاجعلْ أكثرَ همُومك الاستعدادَ للمَعاد، والتَّأَهُّبَ لجواب المَلِكِ الجَواد، فإنّه يقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنسْأَلَنَّهُم أَجْمَعِين عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

ومهما وجدتَ مِن هَمِّك قُصوراً، واستشعرتَ مِن نفسك عمّا يُذلِّلُها نُفوراً، فاجرُدها إليه، وقِف ببابه واطلبْ، فإنّه لا يُعرض عمّن صدق، ولا يَعْزُبُ عن علمِه خفايا الضّمائر ؛ ألا يعلمُ مَنْ خلَق ؟

فهذه نصيحتي إليك ، وحُجّتي بين يدي الله ـ إن فرّطتَ ـ إذا سئلتُ عليك .

فنسألُ الله لي ولك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، ونَفْساً مطمئنّةً بمنّه وكرمِه وخفيّ لطفِه ، والسّلام(٢) .

---

(١) الحجر: الآية ٩٢ ـ ٩٣ .

(٢) جاء بعد هذا: « واستمر الشيخ في القضاء إلى أن توفي في صفر سنة٧٠٢هـ انتهى مع بعض إصلاح فيما أمكن » .

كَلِمَاتٌ فِي العِلْمِ وَأَدَبِ الطَّلَبِ
وَالاتِّبَـاعِ وَذَمِّ الابْتِدَاعِ

مُسْتَخْرَجَةٌ
مِن كَلاَمِ الحَافِظِ الذَّهَبِيّ

اعتنى بها

جَمَال عَزُّون

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة :

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فهذه كلماتٌ رائقةٌ ، وجملٌ صادقَةٌ ، خطّها يَراعُ الحافظ الُمقرىء شمسُ الدِّين محمّدُ بن أحمد بن عثمان الذّهبيُّ ، في ثنايا مُؤلّفاته الكثيرة ، بأسلوبٍ عربيٍّ مُبين ، يطربُ لها القارىءُ ، ويبتهجُ بها السّامعُ ، لجزالة ألفاظها ، وبلاغة معانيها ، والأعجبُ من ذلك المَسْحَةُ الرّوحانيّةُ التي يخفقُ لها القلبُ ، ويرتاحُ لها البالُ ، ويشعرُ المرءُ شعوراً قويّاً أنّ الحافظَ الذّهبيَّ

يُخرجُ تلك المعاني من أعماق قلبه ، ممّا يُضفي عليها صدقاً وإخلاصاً ، يراهُ كلُّ متأمّلٍ في كلمات هذا الإمام ، فلها من اسم كاتبها أَوْفى نصيب، فهي ذهبيّاتٌ لفظاً ومعنىً، أراد بها الذّهبيُّ ترقيقَ القلُوب، وتهذيبَ السُّلوك، وتثقيفَ العقول، وتذكير النّاس بما كان عليه النّبيُّ ﷺ وأصحابُه، وما سار عليه السّلفُ الصّالحُ، فرحمَ الله الحافظَ الذّهبيّ ، وأجزل له المثوبةَ على ما ترك لنا من هذا التّراث النّافع ، والأثر النّفيس(١) .





(١) وقد جعلتُ لهذه الكلمات عناوين توضيحيّة مأخوذة من كلام الذّهبي نفسه، مع ترقيمها، و لم أراع فيها ترتيباً معيّنا بل أوردتّها بالتّتابع كما جاءت في كتب الذّهبي.

كَلِمَاتٌ فِي العِلْمِ وَأَدَبِ الطَّلَبِ
وَالاتِّبَـاعِ وَذَمِّ الابْتِدَاعِ وَغَيْـرِ ذَلِكَ

مُسْتَخْرَجَةٌ
مِن كَلَامِ الحَافِظِ الذَّهَبِيّ

اعتنى بها

جَمَال عَزُّون

بسم الله الرحمن الرحيم

[١] خطرُ الكذب على النّبيّ ﷺ

قال أبو بكرٍ الصّدّيقُ : « إيّاكُم والكذب ؛ فإنّ الكذبَ مجانب الإيمان » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : صدقَ الصّدِّيقُ، فإنّ الكذبَ رأسُ النِّفاق، وآيةُ المنافق، والمؤمنُ يطبعُ على المعاصي والذّنوب الشّهوانيّة لا على الخِيانة والكذب، فما الظنُّ بالكذب على الصّادق الأمين صلواتُ الله عليه وسلامُهُ؟ وهو القائلُ: إنّ كذباً عَلَيَّ ليس ككذبٍ على غيري، من يكذب عَلَيَّ بُني له بيتٌ في النّار، وقال: من يقُل عَلَيَّ ما لم أقُل ... الحديث. فهذا وعيدٌ لمن نقل عن نبيِّه ما لم يقُله مع غلبة الظّنِّ أنّه ما قاله، فكيف حالُ من تهجّم على رسول الله ﷺ وتعمّد عليه الكذبَ، وقوَّلَهُ ما لم يَقُل، وقد قال عليه السّلامُ: مَن روى عنّي حديثاً يُرى أنّه كذبٌ فهو أحدُ الكاذبين. فإنّا لله وإنّا إليه راجعُون ما ذِي إلاّ بليّةٌ عظيمةٌ وخطرٌ شديدٌ ممّن يَروي الأباطيلَ

والأحاديثَ السّاقطةَ، المُتّهمَ نقلتُها بالكذب، فحُقٌّ على المحدِّث أن يتورّع فيما يُؤدِّيه، وأن يسأل أهلَ المعرفة والورع ليُعينُوه على إيضاح مرويّاتِه. ولا سبيلَ إلى أن يصيرَ العارفُ الذي يُزكِّي نقلةَ الأخبار ويُجَرِّحُهم جهْبذاً إلاّ بإدْمانِ الطّلب، والفَحْصِ عن هذا الشّأن، وكثرةِ المُذاكرة، والسَّهَرِ والتّيَقُّظِ والفَهْمِ، مع التّقوى والدِّين المتين والإنصافِ، والتَّردُّد إلى مجالس العُلماء، والتَّحَرِّي والإتقان ، وإلاّ تفعل :

فدعْ عنك الكتابةَ لستَ منها ولو سوّدتَ وجهَك بالمِدادِ

قال الله عزّ وجلّ : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

فإن آنستَ يا هذا من نفسك فهماً وصدقاً ودِيناً وورعاً، وإلاّ فلا تَتَعَنَّ، وإن غلبَ عليك الهوَى والعصبيّةُ لرأيٍ ولمذهبٍ فبا لله لا تتعبْ، وإن عرفتَ أنّك مُخَلِّطٌ مُخبِّطٌ مُهْمِلٌ لحدود الله فأرحنا منك، فبعد قليلٍ ينكشفُ البَهْرَجُ، ويَنْكَبُّ الزَّغَلُ، و﴿لاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[2]، فقد نصحتُك؛ فعلمُ الحديث صَلْفٌ، فأين علمُ الحديثِ؟ وأين أهلُه؟ كدتُ أن لا أراهُم إلاّ في كتاب، أو تحت تُراب »[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) النّحل : الآية ٤٣ .

(٢) فاطر : الآية ٤٣ .

(٣) تذكرة الحفّاظ ١/٣ ـ ٥ .

[٢] وأين مثلُ أبي حفصٍ عُمَر ؟

قال نافعُ بن أبي نُعيمٍ : عن نافعٍ عن ابن عمر قال : قـال النّبيّ ﷺ : « إنّ ا لله جعلَ الحقَّ على لسانِ عَمَرَ وقلبه » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« فيا أخي ، إنْ أحببتَ أن تعرفَ هـذا الإمـامَ حـقَّ المعرفـةِ فعليـك بكتابي : نِعْمَ السَّمَر في سيرة عُمَر، فإنّه فارقٌ فَيْصَلٌ بين المسلم والرّافضيِّ، فو ا لله ما يَغُضُّ من عُمَرَ إلاّ جاهلٌ دائصٌ، أو رافضيٌّ فاجرٌ، وأين مثلُ أبي حفصٍ؟ فما دار الفَلَكُ على مثل شَكْلِ عُمَر، وهـو الـذي سـنَّ للمحدِّثـين التّثبُّتَ في النّقل، وربَّمـا كـان يتوقّـفُ في خـبر الواحـد إذا ارتـاب، فـروى الجَريريُّ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيدٍ: أنّ أبا موسى سلّم على عُمَرَ مـن وراء الباب ثلاثَ مرّاتٍ فلم يُؤذن له فرجعَ، فأرسلَ عُمَرُ في أثَرِهِ فقال: لِمَ رجعتَ؟ قال: سمعتُ رسـولَ ا لله ﷺ يقـول: إذا سلّم أحدُكـم ثلاثـاً فلـم يُجَبْ فليرجعِ. قال: لتأتِيَنّي على ذلـك ببيّنـةٍ أو لأفعلـنَّ بـك، فجاءنـا أبـو موسى مُنْتَقِعاً لونُه ونحنُ جلوسٌ، فقلنا: ما شأنُك؟ فأخبرنا وقال: فهل سمع أحدٌ منكم؟ فقلنا: نعم كلُّنا سمعهُ، فأرسلُوا معه رجلاً منهم حتّى أتى عُمَـرَ فأخبرهُ. أحبَّ عمرُ أن يتأكّدَ عنده خبرُ أبي موسـى بقـول صـاحبٍ آخـرَ، ففي هذا دليلٌ على أنّ الخبرَ إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجحَ مّما انفردَ بـه واحدٌ، وفي ذلك حضٌّ على تكثير طرق الحديث لكـي يُرتقَـى عـن درجـة الظّنِّ إلى درجة العلم، إذ الواحدُ يجوزُ عليه النّسيانُ والوهمُ، ولا يكادُ يجوزُ

يجوزُ ذلك على ثقتين لم يُخالفهُما أحدٌ، وقد كان عمرُ من وجلِه أن يُخطيء الصّاحبُ على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يأمُرهم أن يُقلّوا الرّوايةَ عن نبيِّهم، ولئلاّ يتشاغل النّاسُ بالأحاديث عن حفظ القرآن »[1].

[٣] أصلٌ كبيرٌ في الكَفِّ عن بثِّ الواهيات

وقال معروف بن خربوذ : عن أبي الطُّفيل، عن عليٍّ قال: « حدِّثُوا النّاسَ بما يعرفُون، ودَعُوا ما يُنكرُون، أتحبُّون أن يُكَذَّبَ الله ورسولُه؟ ».

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« وهذا أصلٌ كبيرٌ في الكَفِّ عن بَثِّ الأشياء الواهية والمنكرة من الأحاديث في الفضائل والعقائد والرَّقائق، ولا سبيلَ إلى معرفة هذا من هذا إلاّ بالإمعان في معرفة الرِّجال »[2] .

[٤] كلُّ إمامٍ يُؤخَذُ من قوله ويترَكُ إلاّ إمامُ المتّقين

« يمكنُ أن تُجمعَ سيرةُ ابن مسعودٍ رضي الله عنه في نصف مجلّدٍ، فلقد كان من سادةِ الصّحابة، وأوعيةِ العلم، وأئمّةِ الهُدى. ومع هذا فله قراءاتٌ وفتاوى ينفردُ بها مذكورةٌ في كتب العلم، وكلُّ إمامٍ يُؤخَذُ من

(١) تذكرة الحفّاظ ١/٥ ـ ٦ .

(٢) المصدر نفسه ١/١٣ .

قوله ويترك إلاّ إمامُ المتّقين، الصّادقُ المصدوقُ، الأمينُ المعصومُ، صلواتُ الله وسلامُه عليه، فيا لله العجب مِن عالِمٍ يُقَلِّدُ دينَه إماماً بعينِه في كلِّ ما قال، مع علمِه بما يردُ على مذهب إمامِه من النُّصوص النّبويّة، فلا قُوّةَ إلاّ با لله »[١] .

[٥] متى الخَلاصُ إلى الإخلاص ؟

قال أبو أسامة : سمعتُ سفيانَ يقول : « ليس طلبُ الحديث من عُدَّةِ الموت، لكنّه عِلّةٌ يتشاغلُ بها الرّجلُ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : صدقَ وا لله ، إنّ طلبَ الحديثِ شيءٌ غيرُ الحديث؛ فطلبُ الحديث اسمٌ عُرْفِيٌّ لأمورٍ زائدةٍ على تحصيل ماهيّة الحديث، وكثيرٌ منها مَراقٍ إلى العلم، وأكثرُها أمورٌ يشغفُ بها المحدِّثُ من تحصيل النُّسخ المليحة، وتطلُّب العالي، وتكثير الشّيوخ، والفرح بالألقاب والثّناء، وتمنّي العمر الطّويل ليروي، وحبّ التّفرُّد، إلى أمورٍ عديدةٍ لازمةٍ للأغراض النّفسانيّة لا الأعمال الرّبّانيّة، فإذا كان طلبُك الحديث النّبويّ محفوفاً بهذه الآفات فمتى خلاصُك منها إلى الإخلاص »[٢] .

---

(١) تذكرة الحفّاظ ١/١٦ .

(٢) المصدر نفسه ١/٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

[٦] عِزٌّ تامٌّ وعلمٌ غزيرٌ

« وفي زمان هذه الطّبقة كان الإسلامُ وأهلُه في عزٍّ تامٍّ وعلمٍ غزيرٍ، وأعلامُ الجهادِ منشورَة، والسُّنَنُ مشهورَة، والبدعُ مكبوتَة، والقَوَّالُون بالحقِّ كثيرٌ، والعُبّادُ متوافرُون، والنّاسُ في بُلَهْنِيَةٍ من العيش بالأمن وكثرة الجُيوش المحمّديّة، مِن أقصى المغرب وجزيرة الأندلس، وإلى قريب مملكة الخطا، وبعض الهند وإلى الحبشة. وخلفاءُ هذا الزّمان أبو جعفرٍ، وأين مثلُ أبي جعفرٍ - على ظُلْمٍ فيه - في شجاعتِه وحزمِه، وكمال عقلِه وفهمِه وعلمِه، ومشاركتِه في الأدب ووُفور هيبتِه. ثمّ ابنُه المهديّ في سخائه وكثرة محاسنِه، وتتبُّعِه لاستئصال الزّنادقة. وولدُه الرّشيدُ هارونُ في جهادِه وحجِّه وعظمة سلطانِه - على لعبٍ ولهوٍ - ، ولكن كان مُعَظِّماً لحُرمات الدِّين، قويَّ المشاركة في العلم، نبيلَ الرّأي، مُحبّاً للسُّنن. وكان في هذا الوقت من الصّالحين مثلُ إبراهيم بن أدهم وداود الطّائي وسفيان الثّوري. ومن النُّحاة مثلُ عيسى بن عمر والخليلُ بن أحمد وحمّادُ بن سلمة وعدّةٌ. والقُرّاءُ كحمزة بن حبيب وأبي عمرو بن العلاء ونافع بن أبي نُعيمٍ وشِبْل بن عَبّادٍ وسَلاّمٌ الطّويل شيخُ يعقوب. ومن الشّعراء عددٌ كثيرٌ كمروان بن أبي حفصة وبشّار بن بُرْدٍ. ومن الفقهاء كأبي حنيفة ومالك والأوزاعي »[(١)].

---

(١) تذكرة الحفّاظ ١/٢٤٤ .

[٧] والله إنّي لأحبُّه في الله - يعني ابنَ المبارك -

« وقع لي حديثُه - أي عبد الله بن المبارك - من غير وجهٍ عالياً، وبالإجازة بيني وبينه ستّةُ أنفسٍ، والله إنّي لأحبُّه في الله، وأرجُو الخيرَ بحبِّه؛ لِمَا أَمْنَحَهُ الله من : التّقوى ، والعبادة ، والإخلاص ، والجهاد ، وسَعة العلم ، والإتقان ، والمواساة ، والفُتُوّة ، والصّفات الحميدة »[1].

[٨] علمٌ لا يُلائمُ علمَ النّبوّة ولا يُوافِقُ توحيدَ المؤمنين

« لمّا قُتل الأمينُ واستُخلِفَ المأمونُ على رأس المائتين نَجَمَ التّشيُّعُ وأبدى صفحتَه، وبزغَ فجرُ الكلام، وعُرِّبَتْ حكمةُ الأوائل، ومنطقُ اليونان، وعُمِلَ رَصْدُ الكواكب، ونشأَ للنّاسِ علمٌ جديدٌ مُرْدٍ مُهْلِكٌ لا يُلائمُ علمَ النُّبوّة، ولا يُوافِقُ توحيدَ المؤمنين، قد كانت الأمّةُ منه في عافيةٍ، وقويتْ شَوْكَةُ الرّافضةِ والمعتزلةِ، وحملَ المأمونُ النّاسَ على القول بخَلْقِ القرآن ودعاهُم إليه، فامتحنَ العلماءَ فلا حولَ ولا قُوّةَ إلاّ الله، إنّ من البلاءِ أن تعرفَ ما كنتَ تُنكِرُ، وتُنْكِرَ ما كنتَ تعرفُ، وتُقدَّمَ عقولُ الفلاسفة، ويُعْزَلَ منقولُ أتباع الرُّسل، ويُمارَى في القرآن، ويُتَبرَّمَ بالسُّنن والآثار، وتقعَ في الحَيْرَة؛ فالفرارَ قبلَ حلُول الدَّمار، وإيّاك ومضلاّتِ

(١) تذكرة الحفّاظ ١/٢٧٥ .

الأهواء، ومُجارةَ العقُول، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِا للهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(١)] »[(٢)].

[٩] رحمَ ا للهُ امرءاً أقبلَ على شأنِه

« هؤلاء المُسَمَّوْنَ في هذه الطَّبَقَة[(٣)] هم ثقاتُ الحُفّاظ، ولعلّ قد أهملنا طائفةً مِن نُظرائهم؛ فإنّ المجلسَ الواحدَ في هذا الوقت كان يجتمعُ فيه أزيد من عشرة آلاف محبرةٍ، يكتبُون الآثارَ النّبويّة، ويعتنُون بهذا الشّأن، وبينهم نحو من مائتي إمامٍ قد برزُوا وتأهّلُوا للفتيا، فلقد تَفانَى أصحابُ الحديث وتَلاشَوْا، وتبدّلَ النّاسُ بطلبةٍ يَهْزَأُ بهم أعداءُ الحديث والسُّنّة، ويسخرُون منهم، وصار علماءُ العصر في الغالب عاكفين على التّقليد في الفرُوع مِن غير تحريرٍ لها، ومُكبِّين على عقليّاتٍ مِن حكمة الأوائل وآراء المتكلِّمين، مِن غير أن يتعقّلُوا أكثرَها، فعمّ البلاءُ، واستحكمت الأهواءُ، ولاحت مبادىءُ رفعِ العلم وقبضِه مِن النّاس؛ فرحم ا للهُ امرءاً أقبل على شأنِه، وقصرَ من لسانِه، وأقبل على تلاوة قُرآنِه، وبكى على زمانِه، وأدمن النّظرَ في الصّحيحين، وعبدَ ا للهَ قبل أن يبغتَهُ الأجلُ، اللّهمّ فوفّق وارحم »[(٤)].

---

(١) آل عمران : الآية ١٠١ .

(٢) تذكرة الحفّاظ ١/٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

(٣) يعني الذّهبيُّ الطّبقة الثّامنة من الأعلام المترجمين في تذكرة الحفّاظ .

(٤) المصدر نفسه ٢/٥٢٩ ـ ٥٣٠ .

[١٠] اسكُتْ بحلمٍ أو انطق بعلمٍ

« لقد كان في هذا العصر[١] وما قاربه من أئمّة الحديث النّبويّ خَلْـقٌ كثيرٌ وما ذكرنا عُشْرَهُم هنا، وأكثرُهم مذكورون في تاريخي[٢]، وكذلك كان في هذا الوقت خَلْقٌ من أئمّة أهل الرّأي والفروع، وعددٌ من أساطين المعتزلة والشّيعة وأصحاب الكلام الذين مشوا وراءَ المعقول، وأعرضُوا عمّا عليه السّلفُ من التّمسُّك بالآثار النّبويّة، وظهرَ في الفقهاء التّقليدُ، وتناقصَ الاجتهادُ؛ فسبحان مَن له الخَلْقُ والأمرُ، فبا لله عليك يا شيخُ ارفُق بنفسك، والزم الإنصاف، ولا تنظُر إلى هؤلاء الحُفّاظ النّظَرَ الشَّزْرَ، ولا ترمُقَنَّهُم بعَيْنِ النَّقْصِ، ولا تعتقد فيهم أنّهم من جنس محدّثي زماننا، حاشا وكلاّ، فما فيمن سمّيتُ أحدٌ - و لله الحمدُ - إلاّ وهو بصيرٌ بالدِّين، عالِمٌ بسبيل النّجاة، وليس في كبار محدّثي زماننا أحدٌ يبلغُ رتبةَ أولئك في المعرفة، فإنّي أحسبُك لفرط هواك تقول بلسان الحال، إن أعوزك لسانُ المقال: مَنْ أحمدُ ؟ وما ابنُ المديني ؟ وأيُّ شيءٍ أبو زرعة وأبو داود ؟ هؤلاء محدِّثون ولا يدرُون ما الفقهُ ؟ وما أصولُه ؟ ولا يفقهُون الرّأي ، ولا علمَ لهم بالبيان والمعاني والدّقائق ، ولا خبرةَ لهم بالبرهان والمنطق، ولا يعرفُون ا لله تعالى بالدّليل، ولا هُم من فقهاء المِلّة، فاسكُتْ بحلمٍ، أو انطق

(١) يعني الأعلام المترجمين في الطّبقة التّاسعة من كتابه تذكرة الحفّاظ .

(٢) يعني تاريخ الإسلام .

بعلم، فالعلمُ النّافعُ هو النّافعُ ما[١] جاء عن أمثال هؤلاء، ولكن نسبتُك إلى أئمّة الفقه كنسبة مُحَدِّثي عصرنا إلى أئمّة الحديث، فلا نحنُ ولا أنتَ، وإنّما يعرفُ الفضلَ لأهل الفضلِ ذو الفضلِ، فمن اتّقى الله راقبَ الله، واعترف بنقصه، ومن تكلّم بالجاهِ وبالجهل، أو بالشّرِّ والبَأْوِ، فأعرض عنه، وذَرْهُ في غيِّه، فعقباهُ إلى وبالٍ، نسألُ اللهُ العفوَ والسّلامةَ »[٢].

[١١] ما زال العلماءُ يختلفُون

« ما زال العلماءُ يختلفُون في المسائل الصِّغار والكِبار، والمعصومُ مَن عصمهُ اللهُ بالتجاءِ إلى الكتاب والسُّنّةِ، وسُكوتٍ عن الخَوْضِ فيما لا يَعنيه، واللهُ يَهدي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ »[٣] .

[١٢] وللحروب رجالٌ يُعرفُون بها

« نُوحٌ الجامعُ مع جلالتِه في العلم تُرك حديثُه، وكذلك شيخُه - يعني يزيد الرَّقَاشي - فكم من إمامٍ في فنٍّ مقصرٌ عن غيره، كسيبويه مثلاً إمامٌ في النّحو ولا يدري ما الحديثُ، ووكيعٌ إمامٌ في الحديث ولا يعرفُ العربيّة،

---

(١) ما : هنا حاليةٌ، والمعنى أنّ العلم يكون نافعاً في حالة ما إذا جاء عن أمثال أولئك الأعلام.

(٢) تذكرة الحفّاظ ٢/٥٢٩ - ٥٣٠ .

(٣) المصدر نفسه ٢/٧٣٠ .

وكأبي نوّاسٍ رأسٌ في الشّعر عَرِيٌّ من غيره، وعبدُ الرّحمن بن مهدي إمامٌ في الحديث لا يدري ما الطّبّ قطُّ، وكمحمّد بن الحسن رأسٌ في الفقه ولا يدري ما القراءات، وكحفصٍ إمامٌ في القراءة تالفٌ في الحديث .

وللحُروبِ رجالٌ يُعْرَفُون بها

وفي الجملة : وما أُوتُوا من العلمِ إلاّ قليلاً، وأمّا اليوم فما بقي من العلُوم القليلة إلاّ القليل، في أُناسٍ قليلٍ، ما أقلَّ مَن يعملُ منهم بذلك القليل، فحسبُنا الله ونعم الوكيل »[١] .

[١٣] مَحْضُ السُّنّةِ

« قد كان الحافظُ سعدُ بن عليٍّ[٢] هذا من رؤوس أهل السُّنّةِ وأئمّة الأثر، وممّن يُعادي الكلامَ وأهلَه، ويذمُّ الآراء والأهواء، فنسألُ الله أن يختمَ لنا بخيرٍ، وأن يتوفّانا على الإيمان والسُّنّة، فلقد قلَّ من يتمسّكُ بمحض السُّنّةِ، بل تراهُ يُثني على السُّنّةِ وأهلِها وقد تلطّخَ ببدع الكلام، ويجسرُ على الخوض في أسماء الله وصفاته، ويبادرُ إلى نفيها، ويبالغُ بزعمه في التّنزيه، وإنّما كمالُ التّنزيه تعظيمُ الرّبِّ عزّ وجلّ، ونَعْتُهُ بما وصفَ به نفسَهُ تعالى »[٣] .

---

(١) تذكرة الحفّاظ ٣/١٠٣١ .

(٢) أبو القاسم الزّنجاني المتوفّى سنة ٤٧١ هـ .

(٣) المصدر نفسه ٣/١١٧٧ - ١١٧٨ .

[١٤] لا حيلةَ في بُرْءِ الرَّفْضِ فإنّه داءٌ مُزْمِنٌ

« هذا ما تيسّر مِن سيرة العَشَرَة، وهُم أفضلُ قُريشٍ، وأفضلُ السّابقين المُهاجرين، وأفضلُ البدريّين، وأفضلُ أصحاب الشّجَرَة، وسادةُ هذه الأمّة في الدُّنيا والآخِرَة، فأبعدَ الله الرّافضةَ، ما أغواهُم وأشدَّ هواهُم، كيف اعترفُوا بفضل واحدٍ منهم وبَخَسُوا التّسعةَ حقَّهُم، وافتروا عليهم بأنّهُم كتمُوا النّصَّ في عَلِيٍّ أنّه الخليفةُ، فوا لله ما جَرى من ذلك شيءٌ، وأنّهُم زَوَّرُوا الأمرَ عنه بزعمِهم، وخالفُوا نبيَّهُم، وبادَرُوا إلى بيعة رجلٍ من بني تَيْمٍ يتّجرُ ويتكسّبُ، لا لرغبةٍ في أموالِه، ولا لرهبةٍ من عشيرته ورجالِه، ويحك ، أيفعلُ هذا مَنْ له مُسْكَةُ عقلٍ ؟ ولو جاز هذا على واحدٍ لَما جازَ على جماعةٍ، ولو جازَ وقوعُه مِن جماعةٍ لاستحالَ وقوعُه والحالةُ هذه، مِنْ أُلوفٍ من سادة المُهاجرين والأنصار، وفُرسان الأمّة، وأبطال الإسلام، لكن لا حيلةَ في بُرْءِ الرَّفْضِ فإنّه داءٌ مُزْمِنٌ، والهُدى نُورٌ يقذفُه الله في قلب مَن يشاءُ ، فلا قُوّةَ إلاّ با لله »(١) .

❁ ❁ ❁

(١) سير أعلام النّبلاء ١/١٤٠ ـ ١٤١ .

[١٥] خطرُ الشُّهرة

قال بريدة بن الحُصَيب : « شهدتُّ خيبر، وكنتُ فيمن صعدَ الثُّلْمَـةَ، فقاتلتُ حتّى رُئي مكاني، وعَلَـيَّ ثَوْبٌ أحمـر، فمـا أعلـمُ أنّـي ركبـتُ في الإسلام ذنباً أعظمَ عَلَيَّ منه ـ أي الشُّهْرَة ـ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : بلى ، جُهّالُ زماننا يعُدُّون اليومَ مثلَ هذا الفعـل مـن أعظـم الجهاد؛ وبكلِّ حالٍ فالأعمالُ بالنّيّات، ولعلّ بُريدة رضي الله عنـه بإزْرائـه على نفسه، يصيرُ له عملُـه ذلـك طاعـةً وجهـاداً، وكذلـك يقـعُ في العمـل الصّالح، رُبَّما افتخرَ به الغِرُّ ونَـوَّهَ بـه فيتحـوّلُ إلى ديـوان الرّيـاء، قـال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[1] »[2] .

[١٦] كفى بالمرء إثماً أن يُحدِّث بكلِّ ما سمع

« بالله عليك ، إذا كان الإكثـارُ مـن الحديـث في دَوْلَـةِ عُمَـرَ كـانُوا يُمنَعُون منه مع صدقهم وعَدالتهم وعدم الأسانيد، بل هـو غَـضٌّ طَـرِيٌّ لم يُشَبْ؛ فما ظنُّك بالإكثار من رواية الغرائب والمناكير في زماننـا مـع طُـول

(١) الفرقان : الآية ٢٣ .

(٢) سير أعلام النّبلاء ٢/٤٧٠ .

الأسانيد، وكثرة الوَهْمِ والغَلَطِ، فبالحَرِيِّ أن نزجُر القـومَ عنـه ؛ فيـا ليتهُـم يقتصرُون على رواية الغريب والضّعيف، بل يروُون ـ وا لله ـــ الموضوعـات والأباطيل، والمُستحيلَ في الأصول والفروع، والملاحم والزُّهـد، نسـألُ ا للهَ العافيةَ. فمن رَوى ذلك مع علمه ببطلانِه، وغَرَّ المؤمنين، فهذا ظالِمٌ لنفسه، جَانٍ على السُّنن والآثار، يُستتابُ من ذلك؛ فإن أنـابَ وأَقْصَـر، وإلاّ فهـو فاسقٌ؛ كفى به إثماً أن يُحَدِّثَ بكـلِّ مـا سمـع، وإن هـو لم يعلـم فليتـورّع، وليستعنْ بمن يُعينُه على تنقية مرويّاته، نسالُ ا لله العافيةَ »[1] .

[١٧] الحَنيفيّةُ السَّمْحَةُ

« أقلُّ مراتب النّهي أن تُكره تلاوةُ القرآن كلِّه في أقلَّ من ثلاثٍ، فما فقه ولا تدبّرَ مَن تلا في أقـلَّ مـن ذلـك. ولـو تـلا ورتّـلَ في أسـبوعٍ ولازمَ ذلك، لكن عملاً فاضلاً، فـالدِّينُ يُسْـرٌ، فـوا لله إنّ ترتيـلَ سُـبع القـرآن في تهجُّد قيام اللّيل مع المُحافظة على النّوافل الرّاتبة، والضُّحى، وتحيّة المسجد، مع الأذكـار المـأثورة الثّابتـة، والقـول عنـد النّـوم واليقظـة، ودُبُـر المكتُوبـة والسَّحَر، مع النّظر في العلم النّافع، والاشـتغال بـه مُخْلِصـاً لله، مـع الأمـر بالمعروف، وإرشاد الجاهل وتفهيمِه، وزَجْرِ الفاسق، ونحـو ذلـك، مـع أداء الفرائض في جماعةٍ بخشُوعٍ وطُمأنينةٍ وانكسـارٍ وإيمـانٍ، مـع أداء الواجـب،

(١) سير أعلام النّبلاء ٢/٦٠١ ـ ٦٠٢ .

واجتناب الكبائر، وكثرة الدُّعاء والاستغفار، والصّدقة، وصلة الرّحم، والتّواضع، والإخلاص في جميع ذلك، لَشُغْلٌ عظيمٌ جَسيمٌ، ولَمَقامُ أصحابِ اليمين، وأولياءِ الله المتّقين، فإنّ سائرَ ذلك مطلوبٌ. فمتى تشاغلَ العابدُ بخَتْمَةٍ في كلِّ يومٍ فقد خالف الحنيفيّةَ السَّمْحَةَ، ولم ينهض بأكثرِ ما ذكرناهُ، ولا تدبَّر ما يتلُوه ...

وكلُّ من لم يَزُمَّ نفسَهُ في تعبُّده وأوراده بالسُّنَّة النّبويّة، يندمُ ويترهّبُ ويسُوءُ مِزاجُه، ويفُوتُه خيرٌ كثيرٌ من مُتابعة سُنَّةِ نبيِّه الرّؤوفِ الرّحيمِ بالمؤمنين، الحريصِ على نفعِهم.

وما زال ﷺ مُعلِّماً للأمّة أفضلَ الأعمال، وآمِراً بهَجْرِ التَّبَتُّل والرّهبانيّة التي لم يُبعث بها، فنهى عن سَرْدِ الصّوم، ونهى عن الوصال، وعن قيام أكثر اللّيل إلاّ في العشر الأخير، ونَهى عن العُزْبَة للمُستطيع، ونهى عن ترك اللّحم، إلى غير ذلك من الأوامر والنّواهي.

فالعابِدُ بلا معرفةٍ لكثيرٍ من ذلك معذورٌ مأجورٌ، والعابدُ العالِمُ بالآثار المحمّديّة المتجاوِزُ لها مفضُولٌ مغرورٌ، وأحبُّ الأعمال إلى الله تعالى أدْوَمُها وإن قَلَّ، ألهمنا الله وإيّاكُم حُسْنَ المُتابعة، وجنّبنا الهَوى والمُخالفة »[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٣/٨٤ ـ ٨٦ .

[١٨] نحمدُ الله على العافيةِ

« نحمدُ الله على العافية الذي أوجدنا في زمانٍ قد انمحص فيه الحقُّ، واتّضحَ من الطّرفين(١)، وعرفنا مآخِذَ كلٍّ واحدٍ من الطّائفتين، وتَبصَّرْنا فعَذَرْنا واستغفرنا، وأحببنا باقتصادٍ، وترحّمنا على البُغاة بتأويلٍ سائغٍ في الجُملة، أو بخطإٍ إن شاء الله مغفورٍ، وقُلنا ـ كما علّمنا الله ـ : ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا**﴾(٢)، وترضّينا أيضاً عمّن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وقّاصٍ وابن عمر ومحمّد بن مسلمة وسعيد بن زيدٍ وخَلْقٍ، وتبرّأنا من الخوارج المارقين الذين حاربُوا عَلِيّاً وكفّروا الفريقين؛ فالخوارجُ كلابُ النّار قد مَرَقُوا من الدِّين، ومع هذا فلا نقطع لهم بخلُود النّار كما نقطع به لعبدة الأصنام والصُّلْبان »(٣) .

❁ ❁ ❁

---

(١) يقصد جيش عليّ ومعاوية رضي الله عنهما .

(٢) الحشر : الآية ١٠ .

(٣) سير أعلام النّبلاء ١٢٨/٣ .

[١٩] العلمُ حجّةٌ على العالِم

قال الشّعبيُّ : « ليتني لم أكُن علمتُ مِن ذا العلمِ شيئاً » .
قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :
« قلتُ : لأنّه حجّةٌ على العالِم، فينبغي أن يعملَ به، ويُنبِّه الجاهِل، فيأمرُه وينهاهُ، ولأنّه مَظِنَّةُ أن لا يُخلِصَ فيه، وأن يفتخر به ويُماري به، لينالَ رئاسةً ودنيا فانيةً »[١] .

[٢٠] مشهورُ الدّوابّ والثّياب بين التّيه والتّواضُع

قال شهرُ بن حوشبٍ : « من ركبَ مشهوراً من الدّوابِّ، ولبسَ مشهوراً من الثّياب، أعرض الله عنه وإن كان كريماً » .
قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :
« قلتُ : من فعله ليُعزَّ الدِّينَ، ويُرغم المنافقين، ويتواضع مع ذلك للمُؤمنين، ويحمد ربَّ العالمين، فحَسَنٌ، ومن فعلهُ بذخاً وتيهاً وفَخْراً أذلّه الله وأعرض عنه؛ فإن عُوتب ووُعظ فكابر وادّعى أنّه ليس بمختالٍ ولا تيّاهٍ فأعرض عنه فإنّه أحمق مغرورٌ بنفسه »[٢] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٤/٣٠٣ .
(٢) المصدر نفسه ٤/٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

[٢١] أبو جهلٍ وإبليس !

قال أبو قلابة : « إذا حدّثتَ الرّجُلَ بالسُّنّةِ فقال : دَعْنا مِن هذا، وهاتِ كتابَ الله ، فاعلمْ أنّه ضالٌّ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ أنا : وإذا رأيتَ المتكلِّمَ المبتدعَ يقول : دَعْنا من الكتاب والأحاديث الآحاد، وهاتِ العَقْلَ فاعلمْ أنّه أبو جهلٍ، وإذا رأيتَ السّالكَ التّوحيديَّ يقول: دَعْنا من النّقل ومن العقل، وهاتِ الذّوْقَ والوَجْدَ، فاعلم أنّه إبليسُ قد ظهرَ بصُورة بَشَر، أو قد حَلَّ فيه، فإن جَبُنْتَ منه فاهرُب، وإلاّ فاصرعْهُ وابرُك على صَدْرِه، واقرأ عليه آيةَ الكُرسيّ واخنُقْهُ »[1] .

[٢٢] العالِمُ بين الصَّمت والنُّطق

« ينبغي للعالِم أن يتكلّم بنيّةٍ وحُسْنِ قَصْدٍ ، فإن أعجبه كلامُه فليصمُتْ ، فإن أعجبه الصَّمْتُ فلينطِقْ ، ولا يَفْتُرْ عن مُحاسبة نفسِه ، فإنّها تحبُّ الظّهورَ والثّناء »[2] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٤/٤٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ٤/٤٩٤ .

[٢٣] فتنةٌ اتَّقُوها بالتّقوى

قال بكر المزنيُّ : « لمّا كانت فتنةُ ابن الأشعث قال طلقُ بن حبيبٍ : اتّقُوها بالتّقوى. فقيل له : صف لنا التّقوى ، فقال : العملُ بطاعة الله ، على نُورٍ من الله ، رجاءَ ثواب الله ، وتركُ معاصي الله ، على نُورٍ من الله ، مخافةَ عذاب الله » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ مُعلّقاً :

« قلتُ : أبدع وأوجز ، فلا تقوى إلاّ بعملٍ ، ولا عملَ إلاّ بتروٍّ من العلم والاتّباع ، ولا ينفعُ ذلك إلاّ بالإخلاص لله ، لا لِيُقال : فلانٌ تاركٌ للمعاصي بنور الفقه ، إذ المعاصي يفتقرُ اجتنابُها إلى معرفتها، ويكونُ التَّرْكُ خوفاً من الله، لا ليُمدح بتركها، فمن داوم على هذه الوصيّة فقد فاز »[١].

[٢٤] زُهّادُ السّلف وعُبّادُهم

« كان زُهّادُ السّلفِ وعُبّادُهم أصحابَ خوفٍ وخُشُوع، وتعبُّدٍ وقُنُوع، ولا يدخلُون في الدُّنيا وشهواتها، ولا في عباراتٍ أحدثها المتأخِّرُون من الفَناء، والمَحْوِ، والاصطِلامِ، والاتّحادِ، وأشباهِ ذلك، ممّا لا يُسَوِّغُه كبارُ العلماء؛ فنسألُ الله التّوفيقَ، والإخلاصَ، ولزومَ الاتّباع »[٢].

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٤/٦٠١ .

(٢) المصدر نفسه ٦/٣٢٨ .

[٢٥] ما أحسنَ الصّدق !

قال الوليدُ بن مسلمٍ : « سألتُ الأوزاعيَّ وسعيدَ بن عبد العزيز وابنَ جُريجٍ : لمن طلبتُم العلم ؟ كلُّهم يقول : لنفسي ، غير ابن جُريجٍ فإنّه قال: طلبتُه للنّاس » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : ما أحسنَ الصّدق ! واليومَ تسألُ الفقيه الغبيَّ : لمن طلبتَ العلمَ ؟ فيُبادرُ ويقول : طلبتُه لله ، ويكذبُ إنّما طلبه للدُّنيا ، ويا قلّةَ ما عرفَ منه »(١).

[٢٦] ذِكْرُ النّاس داءٌ ، وذِكْرُ الله دواءٌ

قال عبدُ الله بن عَون : « ذِكْرُ النّاس داءٌ ، وذِكْرُ الله دواءٌ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : إي والله ، فالعجبُ منّا ومن جهلنا كيف ندعُ الدّواءَ ونقتحمُ الدّاء ؟ قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٢)، ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٨٦/٦ .

(٢) البقرة : الآية ١٥٣ .

أَكْبَرُ﴾(١)، ﴿الذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ﴾(٢) . ولكن لا يتهيّأُ ذلك إلاّ بتوفيق الله. ومن أدمنَ الدُّعاء، ولازم قَرْعَ الباب فُتح له »(٣).

[٢٧] وهل نَشْرٌ لعلمٍ يُقارِبُ تعليمَ القرآن ؟

رُوي عن أبي حنيفة أنّه قال : « لّما أردتُّ طلبَ العلم جعلتُ أتخيّرُ العلومَ وأسألُ عن عواقبها. فقيل: تعلّمُ القرآن. فقلتُ: إذا حفظتُه فما يكونُ آخره ؟ قالوا: تجلسُ في المسجد فيقرأُ عليك الصّبيانُ والأحْداثُ، ثمّ لا يلبثُ أن يخرُج فيهم من هو أحفظُ منك أو مُساويك فتذهب رئاستُك ».

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : مَن طلبَ العلمَ للرّئاسة قد يُفكِّرُ في هذا، وإلاّ فقد ثبت قولُ المصطفى صلواتُ الله عليه : أفضلُكم من تعلّم القرآنَ وعلّمه. يا سُبحان الله ! وهل مَحَلٌّ أفضلُ من المسجد ؟ وهل نَشْرٌ لعلمٍ يُقارِبُ تعليمَ القرآن ؟ كلاّ والله . وهل طلبةٌ خيرٌ من الصّبيان الذين لم يعملُوا الذّنوب؟ وأحسبُ هذه الحكايةَ موضوعة ففي إسنادها مَنْ ليس بثقةٍ »(٤).

---

(١) العنكبوت : الآية ٤٦ .

(٢) الرّعد : الآية ٢٩ .

(٣) سير أعلام النّبلاء ٣٦٩/٦ .

(٤) المصدر نفسه ٣٩٥/٦ ـ ٣٩٦ .

[٢٨] أبى العلمُ أن يكون لغير ا لله

قال معمر : « كان يُقال : إنّ الرّجُـلَ يطلـبُ العلـمَ لغـير ا لله، فيـأبى عليه العلمُ حتّى يكون لله » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : نعم ، يطلبُه أوّلاً والحامِلُ له حبُّ العلم، وحبُّ إزالة الجهـل عنه، وحبُّ الوظائف، ونحوُ ذلك، ولم يكن عَلِمَ وجـوبَ الإخـلاص فيـه، ولا صِدْقَ النّيّة، فإذا علمَ حاسَبَ نفسَهُ، وخافَ مِن وَبال قصـدِه، فتجيئُـه النّيّةُ الصّالحةُ كلُّها أو بعضُها، وقد يتُوبُ من نيّته الفاسدة وينـدمُ. وعلامـةُ ذلك أنّه يُقصِرُ من الدّعاوى وحُبِّ المناظرة، ومن قَصْدِ التّكثُّرِ بعلمِه، ويُـزْري على نفسِه، فإن تَكَثَّرَ بعلمِه أو قال: أنا أعلمُ من فلانٍ فَبُعْداً له »[١].

[٢٩] لعنَ ا للهُ هذه المروءة

قال حجّاجُ بن أرطاةٍ : « لا تتمُّ مروءةُ الرّجُل حتّى يـترُك الصّلاة في الجماعة » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : لعنَ ا للهُ هـذه المـروءة ، مـا هـي إلاّ الحُمْـقُ والكِبْرُ، كيـلا يُزاحِمَهُ السُّـوقَةُ، وكذلـك تجـدُ رؤسـاء وعلمـاء يُصلُّـون في جماعـةٍ في غـير صفٍّ، أو تُبسط له سَجّادةٌ كبيرةٌ حتّى لا يلتصق به مسلمٌ ، فإنّا لله »[٢].

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٧/٧١ .

(٢) المصدر نفسه ٧/٧٢ .

[٣٠] بل السُّنّةُ ما سَنّهُ النّبيُّ ﷺ والخلفاءُ الرّاشدُون من بعده

قال إسحاق بن راهويه : « إذا اجتمع الثّوريُّ والأوزاعيُّ ومالكٌ على أمرٍ فهو سُنّةٌ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : بل السُّنّةُ ما سَنّهُ النّبيُّ ﷺ والخلفاءُ الرّاشدُون مِن بعده. والإجماعُ هو ما أجمعت عليه علماءُ الأمّة قديماً وحديثاً إجماعاً ظنِّيّاً أو سُكوتيّاً، فمن شذّ عن هذا الإجماع من التّابعين أو تابعيهم لقولٍ باجتهاده احتُمل له، فأمّا مَن خالف الثّلاثةَ المذكُورين من كبار الأئمّة فلا يُسمّى مُخالفاً للإجماع ولا للسُّنّة، وإنّما مرادُ إسحاق أنّهم إذا اجتمعُوا على مسألةٍ فهو حقٌّ غالباً، كما نقولُ اليومَ : لا يكادُ يُوجدُ الحقُّ فيما اتّفق أئمّةُ الاجتهاد الأربعة على خلافِه، مع اعترافنا بأنّ اتّفاقهُم على مسألةٍ لا يكون إجماعَ الأمّة ، و نَهابُ أن نجزمَ في مسألةٍ اتّفقُوا عليها بأنّ الحقّ في خلافها »[1] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١١٦/٧ .

[٣١] خَلَلُ الأخذ من الصُّحُفِ

قال الأوزاعيُّ : « كان هذا العلمُ كريماً ، يتلاقاهُ الرِّجالُ بينهم، فلمّا دخل في الكتب دخل فيه غيرُ أهله » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« لا ريبَ أنّ الأخذَ من الصُّحُف وبالإجازة يقعُ فيه خَلَلٌ ولا سيّما في ذلك العصر، حيث لم يكن بَعْدُ نَقْطٌ ولا شَكْلٌ، فتتصحّفُ الكلمةُ بما يُحيل المعنى، ولا يقعُ مثلُ ذلك في الأخذ من أفواه الرّجال، وكذلك التّحديثُ من الحفظ يقعُ فيه الوَهْمُ، بخلاف الرّواية من كتابٍ مُحَرَّرٍ »(١).

[٣٢] إنّما العالِمُ مَن يخشى الله عزّ وجلّ

قال هشامٌ الدَّسْتُوائيُّ : « والله ما أستطيعُ أن أقول : إنّي ذهبتُ يوماً قطُّ أطلبُ الحديثَ أريدُ به وجهَ الله عزّ وجلّ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : والله ولا أنا ، فقد كان السّلفُ يطلبُون العلمَ لله فنبُلُوا، وصارُوا أئمّةً يُقتدى بهم، وطلبهُ قومٌ منهم أوّلاً لا لله وحصّلُوه، ثمّ استفاقُوا وحاسبُوا أنفسَهُم، فجرّهُم العلمُ إلى الإخلاص في أثناء الطّريق،

---

(١) المصدر نفسه ٧/١١٤ .

كما قال مجاهدٌ وغيرُه : طلبنا هذا العلمَ وما لنا فيه كبيرُ نيّةٍ، ثـمّ رزقَ ا للهُ النّيّةَ بَعْدُ، وبعضُهم يقول: طلبنا هذا العلمَ لغير ا لله فأبى أن يكـون إلاّ لله، فهذا أيضاً حَسَنٌ ، ثمّ نشرُوه بنيّةٍ صالحةٍ .

وقومٌ طلبُوه بنيّةٍ فاسدةٍ لأجل الدُّنيا، وليُثْنَى عليهم، فلهُم مـا نَـوَوْا ....، وتَرى هذا الضَّرْبَ لم يستضيؤُوا بنُور العلم، ولا لهُم وَقْـعٌ في النُّفـوس، ولا لعلمهم كبيرُ نتيجةٍ من العمل، وإنّما العالِمُ مَن يخشى ا لله تعالى .

وقومٌ نالُوا العلمَ ووَلُوا به المنـاصبَ، فظلمُـوا وتركُـوا التّقيُّـدَ بـالعلم، وركبُوا الكبائرَ والفواحشَ، فتبّاً لهُم ، فما هؤلاء بعلماء .

وبعضُهم لم يتّق ا لله في علمِـه، بـل ركـبَ الحِيَـل، وأفتـى بـالرُّخص، وروى الشّاذَ من الأخبار .

وبعضُهم اجترأ على ا لله ، ووضع الأحاديثَ ، فهتكَـهُ ا للهُ ، وذهـب علمُه ، وصار زادَه إلى النّار .

وهؤلاء الأقسامُ كلُّهم رَوَوْا من العلمِ شـيئاً كبـيراً، وتضلّعُـوا منـه في الجُملة، فخلفَ مِنْ بعدهم خَلْفٌ بانَ نَقْصُهُم في العلم والعمل، وتلاهُم قومٌ انتموا إلى العلم في الظّاهر، و لم يُتقنُوا منه سوى نَزْرٍ يسيرٍ، أوهمُوا به أنّهُـم علماءُ فضلاءُ، و لم يَدُرْ في أذهانهم قَطُّ أنّهُم يتقرّبُون به إلى ا لله، لأنّهُم مـا رأوا شيخاً يُقتدى به في العلم، فصارُوا هَمَجاً رَعاعاً، غايةُ المُدرِّس منهم أن يُحَصِّلَ كتباً مُثَمَّنَةً يخزُنُها وينظـرُ فيهـا يومـاً مـا، فيصحِّـف مـا يُـوردُه ولا

يُقرِّرُه، فنسألُ الله النّجاةَ والعفوَ كما قال بعضُهم : ما أنا عالِمٌ ، ولا رأيتُ عالِماً »(١) .

[٣٣] أيُّهما أفضلُ طلبُ العلم أو صلاةُ النّافلة والتّلاوة والذِّكْر

قال مِسْعَرُ بن كِدامٍ : « إنّ هذا الحديثَ يصدُّكم عن ذِكْرِ الله ، وعن الصّلاة ، فهل أنتم مُنتهُون ؟ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هذه مسألةٌ مُختلَفٌ فيها : هل طلبُ العلمِ أفضلُ ، أو صلاةُ النّافلة والتِّلاوة والذِّكْرِ ؟ فأمّا مَنْ كان مُخلصاً لله في طلب العلم، وذهنُه جيِّدٌ، فالعلمُ أولى، ولكن مع حظٍّ من صلاةٍ وتعبُّدٍ، فإن رأيتَهُ مُجِدّاً في طلب العلم، لا حظَّ له في القُرُبات، فهذا كَسْلان مَهينٌ، وليس هو بصادق في حُسْنِ نيّتِه. وأمّا مَن كان طلبُه الحديثَ والفقهَ غِيَّةً ومحبّةً نفسانيّةً فالعبادةُ في حقِّه أفضلُ، بل ما بينهُما أَفْعَلُ تفضيلٍ، وهذا تقسيمٌ في الجُمْلة، فقلّ - والله - مَن رأيتُه مُخلصاً في طلب العلم، دَعْنا من هذا كلِّه، فليس طلبُ الحديث اليومَ على الوضع المُتعارف من حيِّز طلب العلم، بل

(١) سير أعلام النّبلاء ٧/١٥٢ - ١٥٣ .

اصطلاحٌ وطلبُ أسانيدَ عاليةٍ، وأَخْـذٌ عـن شيـخٍ لا يَعِـي، وتسـميعٌ لطفـلٍ يلعبُ ولا يفهَمُ، أو لرضيعٍ يبكي، أو لفقيهٍ يتحـدّثُ مـع حَـدَثٍ، أو آخـر ينسخُ. وفاضلُهم مشغولٌ عن الحديث بكتابة الأسماء أو بالنُّعاس، والقارىءُ إن كان له مشاركةٌ فليس عنده من الفضيلة أكثرُ مـن قـراءة مـا في الجـزء، سواء تصحّف عليـه الاسـمُ، أو اختبـطَ المـتنُ، أو كـان مـن الموضوعـات، فالعلمُ عن هؤلاء بمعزلٍ، والعملُ لا أكادُ أراهُ، بل أرى أموراً سـيّئةً، نسـأَلُ الله العفوَ »(١) .

[٣٤] واغُربتاه ، ويا قلّةَ ناصراه !

قال محمّـدُ بـن عبـادة المعـافري : « كُنّـا عنـد أبـي شُـريحٍ رحمـه الله فكثُرت المسائلُ، فقال: قد دَرِنَـتْ قلُوبُكـم، فقُومُـوا إلى خـالد بـن حُميـدٍ المهـري استقِلُّوا قلوبَكـم، وتعلّمُـوا هـذه الرّغـائبَ والرّقـائقَ، فإنّهـا تجـدِّدُ العبادَة، وتُورِثُ الزّهادَة، وتجرُّ الصّداقَة، وأَقِلُّوا المسـائل، فإنّهـا في غـير مـا نزل تُقَسِّي القلبَ، وتُورث العداوة » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : صدقَ والله ، فما الظّنُّ إذا كانت مسائل الأصول، ولـوازم الكلام في مُعارضة النّصّ، فكيفَ إذا كانت مِن تشكيكات المنطق، وقواعد

(١) سير أعلام النّبلاء ١٦٧/٧ .

الحكمة، ودِين الأوائل ؟! فكيف إذا كانت من حقائق الاتّحاديّـة، وزندقـة السَّبْعِينيّة، ومَرْق[١] الباطنيّة؛ فواغُربتاه ، ويا قلّةَ ناصراه ، آمنتُ با لله ، ولا قوّة إلاّ با لله »[٢] .

[٣٥] حُبُّ الحديثِ والعملُ به

قال يحيى بن سعيدٍ القطّان : « كان الثّـوريُّ قـد غلبـت عليـه شَـهْوَةُ الحديث، ما أخافُ عليه إلاّ من حبّه للحديث » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : حُبُّ ذات الحديث ، والعملُ به لله مطلُـوبٌ [وهـو] مـن زاد المعاد ، وحبُّ روايتِه وعواليه ، والتّكثُّرُ بمعرفته وفهمِه مذمُومٌ مَخُوفٌ، فهو الذي خاف منه سفيانُ والقطّانُ وأهلُ المراقبة ، فـإنّ كثـيراً مـن ذلـك وبالٌ على المحدِّث »[٣] .

❁ ❁ ❁

---

(١) المَرْقُ : الصُّوفُ المنتِنُ ، وهنا كنايةٌ عن عقائد الباطنيّة الفاسدة وآرائهم المنتنة .

(٢) المصدر نفسه ١٨٢/٧ ـ ١٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢٥٥/٧ ـ ٢٥٦ .

[٣٦] داءٌ مُزْمِنٌ

قال إبراهيمُ بن أَدْهَم : « ما صدقَ الله عبدٌ أحبَّ الشُّهْرَةَ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : علامةُ المخلص الذي قد يُحبُّ شُهْرَةً ، ولا يشعرُ بها ، أنّه إذا عُوتب في ذلك لا يَحْرَدُ[1] ولا يُبرِّىءُ نفسَهُ، بل يعترفُ ويقول : رحمَ الله مَن أهدى إليّ عيوبي، ولا يَكُنْ مُعْجَباً بنفسِه؛ لا يشعرُ بعيُوبها، بل لا يشعرُ أنّه لا يشعرُ ، فإنّ هذا داءٌ مُزْمِنٌ »[2] .

[٣٧] صار الأمرُ بالعكس

قال أيُّوب بن المتوكّل : « كان الخليلُ إذا أفادَ إنساناً شيئاً لم يُرِهِ بأنّه أفاده، وإن استفادَ من أحدٍ شيئاً أراهُ بأنّه استفادَ منه » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : صار طوائفُ في زماننا بالعكس »[3] .

---

(١) أي : لا يغضب ولا يغتاظ .

(٢) سير أعلام النّبلاء ٧/٣٩٣ .

(٣) المصدر نفسه ٧/٤٣١ .

[٣٨] لا بل عليه اتّباعُ الدّليل فيما تبرهن له

ذكر الذّهبيُّ قولَ مَن قال : « إنّ الإمامَ لمن التزمَ بتقليدِه كالنّبيّ مع أمّتِه لا تحلُّ مخالفتُه ! » .

ثمّ علّق الذّهبيُّ قائلاً :

« قلتُ : قولُه : لا تحلُّ مخالفتُه ، مجرّدُ دعوى، واجتهادٌ بلا معرفةٍ، بل له مخالفةُ إمامه إلى إمامٍ آخر حجّتُه في تلك المسألة أقوى، لا بل عليه اتّباعُ الدّليل فيما تبرهن له، لا كمن تمذهبَ لإمامٍ فإذا لاحَ له ما يوافقُ هواه عمِل به من أيِّ مذهبٍ كان، ومن تتبّع رُخصَ المَذاهب، وزلاّت المُجتهدين، فقد رَقَّ دينُه، كما قال الأوزاعيُّ أو غيرُه : مَنْ أخذ بقول المكّيّين في المُتعة، والكوفيين في النّبيذ، والمدنيّين في الغناء، والشّاميّين في عصمة الخُلفاء، فقد جمع الشّرَّ. وكذا مَنْ أخذ في البيوع الرّبويّة بمن يتحيّلُ عليها، وفي الطّلاق ونكاح التّحليل بمن توسّعَ فيه، وشبه ذلك، فقد تعرّض للانحلال. ولكن شأن الطّالب أن يَدْرُسَ أوّلاً مُصنّفاً في الفقه، فإذا حفظه بحَثَهُ، وطالع الشُّروحَ، فإن كان ذكيّاً، فقيهَ النّفس، ورأى حججَ الأئمّة، فليُراقب الله، وليحتَطْ لدِينه، فإنّ خيرَ الدِّين الوَرَعُ، ومَن تركَ الشّبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضِه، والمعصُومُ مَن عصمه الله ... ولا ريبَ أنّ كلَّ مَنْ أَنِسَ مِنْ نفسه فقهاً، وسعةَ علمٍ، وحُسْنَ قصدٍ، فلا يسعُهُ الالتزامُ بمذهبٍ واحدٍ في كلِّ أقواله، لأنّه قد تبرهنَ له مذهبُ الغير في مسائل،

ولاح له الدّليلُ، وقامت عليه الحجّةُ، فلا يقلِّـدُ فيهـا إمامَـه، بـل يعمـلُ بمـا تبرهنَ، ويُقلِّدُ الإمامَ الآخرَ بالبُرهان، لا بالتّشهِّي والغرض ... »[١] .

[٣٩] حاجةُ العلماء إلى مجادلة أهل البدع بالكتاب والسُّنّة

قال اللّيثُ بن سعدٍ: « بلغتُ الثّمانين، وما نازعتُ صاحبَ هوى قطُّ ».

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : كانت الأهواءُ والبدعُ خاملةً في زمن اللّيث ومالكٍ والأوزاعيّ، والسُّنَنُ ظاهرةً عزيزةً، فأمّا في زمن أحمد بن حنبل وإسحاق وأبي عُبيدٍ فظهرت البدعةُ، وامتُحن أئمّةُ الأثر، ورفعَ أهلُ الأهواء رؤوسَهُم بدخُول الدّولة معهم، فاحتاج العلماءُ إلى مجادلتهم بالكتاب والسُّنّة، ثمّ كَثُرَ ذلك، واحتجّ عليهم العلماءُ أيضاً بالمعقُول، فطال الجدالُ، واشتدّ النِّزاعُ ، وتولّدت الشُّبَهُ ، نسألُ الله العافيةَ »[٢] .

❁ ❁ ❁

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٨/٩٠ ـ ٩٤ .

(٢) المصدر نفسه ٨/١٤٤ .

[٤٠] هو الحقُّ الذي لا حَيْدَةَ عنه

قال أبو عبيدٍ القاسمُ بن سلاّمٍ : « ما أدركنا أحداً يُفسِّرُ هذه الأحاديثَ ، ونحنُ لا نُفَسِّرُها » .

« قد صنّفَ أبو عبيدٍ كتابَ غريب الحديث وما تعرّض لأخبار الصّفات الإلهيّة بتأويلٍ أبداً، ولا فسّرَ منها شيئاً. وقد أخبرَ بأنّه ما لَحِقَ أحداً يُفسِّرُها، فلو كان ـ والله ـ تفسيرُها سائغاً أو حَتْماً، لأوشك أن يكون اهتمامُهم بذلك فوق اهتمامهم بأحاديث الفرُوع والآداب، فلمّا لم يتعرّضُوا لها بتأويلٍ، وأقرُّوها على ما وردتْ عليه عُلِم أنّ ذلك هو الحقُّ الذي لا حَيْدَةَ عنه »[1] .

[٤١] علمُ الجَهْلُ خيرٌ منه

قال سعيدُ بن عُفير : « ما رأيتُ أخطبَ منه[2] على هذه الأعواد، كان جامعاً لكلِّ سُؤددٍ، ويعرفُ الفلسفةَ، وضَرْبَ العُودِ، والنّجومَ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : علمُه هذا الجهلُ خيرٌ منه »[3] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٦٢/٨ .

(٢) يعني إسماعيل بن صالحٍ الهاشمي العبّاسيّ نائب مصر ثمّ حلب .

(٣) المصدر نفسه ٣٥٩/٨ .

[٤٢] أشدُّ الورعِ في اللّسان

قيل للفضيل بن عياضٍ : ما الزُّهْدُ ؟ قال : القُنُوع ، قيل : ما الورعُ؟ قال : اجتنابُ المَحارم ، قيل : ما العبادةُ ؟ قال : أداءُ الفرائض ، قيل : ما التّواضعُ ؟ قال : أن تخضعَ للحقِّ . وقال : أشدُّ الورعِ في اللِّسان .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هكذا هو ، فقد ترى الرّجُلَ ورعاً في مأكِله ومَلبسِه ومُعاملتِه، وإذا تحدّث يدخلُ عليه الدّاخِلُ من حديثِه ؛ فإمّا أن يتحرّى الصّدقَ فلا يُكمل الصّدق، وإمّا أن يصدُقَ فينمّق حديثَهُ ليُمدحَ على الفصاحة ، وإمّا أن يُظهر أحسنَ ما عنده ليعظم، وإمّا أن يسكُتَ في موضع الكلام ليُثنى عليه ، ودواءُ ذلك كلِّه الانقطاعُ عن النّاس إلاّ من الجماعة »[1] .

[٤٣] الحسدُ بغيٌ وخُبْثٌ

قال الفضيلُ بن عياضٍ: « المؤمنُ يغبِطُ ولا يحسدُ ، الغِبْطَةُ من الإيمان، والحسدُ من النِّفاق » .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٨/٤٣٤ .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هذا يفسِّرُ لك قولَه عليه الصّلاةُ والتّسليمُ : لا حسدَ إلاّ في اثنتين : رجل آتاهُ الله مالاً فهو يُنفقُه في الحقّ، ورجل آتاهُ الله القرآنَ فهو يقومُ به آناءَ اللّيل وأطرافَ النّهار. فالحسدُ هنا معناهُ : الغِبْطَةُ ، أن تحسُدَ أخاك على ما آتاهُ الله ، لا أنّك تحسدُه ، بمعنى أنّك تودُّ زوالَ ذلك عنه ، فهذا بغيٌ وخُبْثٌ »[1] .

[٤٤] إي والله صدقَ

قال الفضيلُ بن عياضٍ : « يا مسكين ، أنتَ مُسيءٌ وتَرى أنّك مُحسِنٌ، وأنتَ جاهِلٌ وترى أنّك عالِمٌ، وتبخَلُ وتَرى أنّك كريمٌ، وأحمقُ وتَرى أنّك عاقِلٌ، أجلُك قصيرٌ، وأملُك طويلٌ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : إي ـ والله ـ صدقَ ، وأنتَ ظالِمٌ وتَرى أنّك مظلُومٌ، وآكِلٌ للحرام وتَرى أنّك مُتورِّعٌ، وفاسِقٌ وتعتقدُ أنّك عَدْلٌ، وطالِبُ العلمِ للدُّنيا وتَرى أنّك تطلبُه لله »[2] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٨/٤٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ٨/٤٤٠ .

[٤٥] الكلامُ في العلماء مُفتقِرٌ إلى وزنٍ بالعدل والورع

« إذا كان مثلُ كُبراء السّابقين الأوّلين قد تكلّم فيهم الرّوافضُ والخوارجُ، ومثلُ الفضيل يُتكلَّمُ فيه، فمن الذي يسلمُ مِن ألسنة النّاس، لكن إذا ثبتتْ إمامةُ الرّجُل وفضلُه لم يَضُرَّهُ ما قيل فيه، وإنّما الكلامُ في العلماء مُفتقِرٌ إلى وَزْنٍ بالعَدْلِ والورع . و أمّا قولُ ابن مهدي : لم يكُن ـ أي الفضيل ـ بالحافظ ، فمعناهُ : لم يكن في علم الحديث كهؤلاء الحُفّاظ البُحُور ، كشعبة ، ومالك ، وسفيان ، وحمّاد ، وابن المبارك ، ونُظرائهم ، لكنّه ثَبْتٌ قَيِّمٌ بما نقلَ ، ما أُخذ عليه في حديثٍ فيما علمتُ. وهل يُرادُ من العلم إلاّ ما انتهى إليه الفضيلُ رحمةُ الله عليه ؟ »(١) .

[٤٦] أمّا الخِيامُ فإنّها كخيامهم

قال محمّدُ بن يوسف الفريابيُّ : « كنتُ أمشي مع ابن عُيينة فقال لي: يا محمّد ، ما يُزَهِّدُني فيك إلاّ طلبُ الحديث. قلتُ : فأنتَ يا أبا محمّد،

(١) سير أعلام النّبلاء ٤٤٨/٨ .

أيَّ شيءٍ كنتَ تعملُ إلاّ طلبُ الحديث ؟ فقال : كنتُ إذ ذاك صبيّاً لا أعقلُ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : إذا كان مثلُ هذا الإمام يقول هذه المقالةَ في زمن التّابعين، أو بعدهُم بيسيرٍ، وطلبُ الحديثِ مضبوطٌ بالاتّفاق، والأخذُ عن الأثبات الأئمّة، فكيف لو رأى سفيانُ رحمه الله طلبةَ الحديث في وقتنا وما هُم عليه من الهَنات والتّخبيط، والأخذ عن جهلة بني آدم، وتسميع ابن شَهْرٍ[1].

أمّا الخِيامُ فإنّها كخيامهم وأرى نساءَ الحَيِّ غيرَ نسائها »[2] .

[٤٧] جنايةٌ على السُّنّة وخيانةٌ لله ورسوله

قال سفيانُ بن عيينة : « لا تسمعُوا من بقيّة ما كان في سُنَّةٍ ، واسمعُوا منه ما كان في ثوابٍ وغيره » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : لهذا أكثرُ الأئمّة على التّشديد في أحاديث الأحكام، والتّرخيص قليلاً لا كلَّ التّرخّص في الفضائل والرّقائق، فيقبلُون في ذلك ما ضَعُفَ إسنادُه، لا ما اتُّهِمَ رواتُه، فإنّ الأحاديثَ الموضوعةَ، والأحاديثَ الشّديدةَ الوَهْنِ لا يلتفتُون إليها، بل يروونها للتّحذير منها، والهَتْكِ لحالها،

(١) أي يُحضرون الرّضيع الذي بلغ شهراً من عمره مجلس سماع الحديث .

(٢) سير أعلام النّبلاء ٨/٤٦٣ - ٤٦٤ .

فمن دَلَّسَها أو غطّى تَبْيانَها ، فهو جانٍ على السُّنَّة ، خائنٌ لله ورسُوله، فإن كان يجهلُ ذلك فقد يُعذَرُ بالجهل، ولكن سَلُوا أهلَ الذِّكْرِ إن كنتم لا تعلمُون »[1] .

[٤٨] العِلْمُ بالخصُومة والكلام جَهْلٌ والجَهْلُ بالخصُومة والكلام عِلْمٌ

« ما أنبلَ قوله ـ أي أبو يوسف ـ الذي رواهُ جماعةٌ عن بشر بن الوليد، سمعتُ أبا يوسف يقول : العلمُ بالخصومة والكلام جَهْلٌ، والجهلُ بالخصومة والكلام علمٌ .

قلتُ : مثالُه شبهٌ وإشكالاتٌ من نتائج أفكار أهل الكلام، تُورَدُ في الجدال على آيات الصِّفات وأحاديثها، فيُكفِّرُ هذا هذا، وينشأُ الاعتزالُ والتّجهُّمُ، والتّجسيمُ، وكلُّ بلاءٍ، نسألُ الله العافية »[2] .

[٤٩] لا قُدْوَةَ في خطإ العالِم ولا يُوَبَّخُ بما فعله باجتهادٍ

قال يحيى بن أَكْثَم : « صحبتُ وكيعاً في الحَضَرِ والسَّفَرِ، وكان يصومُ الدّهْرَ، ويختمُ القرآنَ كلَّ ليلةٍ » .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٨/٤٦٣ ـ ٤٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ٨/٥٣٩ .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هذه عبادةٌ يُخْضَعُ لها، ولكنّها من مثل إمامٍ من الأئمّة الأثريّة مفضُولةٌ، فقد صحَّ نهيُه عليه السّلامُ عن صوم الدَّهْرِ، وصحّ أنّه نهى أن يُقرأ القرآنُ في أقلّ من ثلاثٍ، والدِّينُ يُسْرٌ، ومتابعةُ السُّنّةِ أولى، فرضي الله عن وكيعٍ، وأين مثلُ وكيعٍ ؟ ومع هذا فكان مُلازِماً لشُرْب نبيذ الكُوفة الذي يُسْكِرُ الإكثارُ منه، فكان مُتأوِّلاً في شُرْبِه، ولو تركهُ تورُّعاً لكان أولى به، فإنّ مَنْ توقّى الشُّبهات فقد استبرأ لدِينه وعِرْضِه، وقد صحَّ النّهيُ والتّحريمُ للنّبيذ المذكُور، وليس هذا موضعُ هذه الأمُور، وكلُّ أحدٍ يُؤخَذُ من قوله ويُترك، فلا قُدْوَةَ في خطإ العالِم، نعم، ولا يُوَبَّخُ بما فعله باجتهادٍ، نسألُ الله المُسامحةَ »[1] .

[٥٠] وقليلُ ما هُمْ

« بلغنا عن ابن مهدي قال : ما هو - يعني الغَرام بطلب الحديث - إلاّ مثلُ لَعِبِ الحَمامِ، ونِطاحِ الكِباشِ .

قلتُ : صدقَ والله، إلاّ لمن أرادَ به الله، وقليلٌ ما هُم »[2] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٩/١٤٢ - ١٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ٩/٢٠٧ .

[٥١] هكذا ـ وا لله ـ كان العلماءُ

قال ابنُ وهبٍ : « نذرتُ أنّي كلّما اغتبتُ إنساناً أن أصُوم يوماً، فأجهدني، فكنتُ أغتابُ وأصومُ، فنويتُ أنّي كلّما اغتبتُ إنساناً أن أتصدّق بدرهمٍ، فمن حُبِّ الدّراهم تركتُ الغِيبةَ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هكذا ـ وا لله ـ كان العلماءُ ، وهذا هو ثمرةُ العلم النّافع »[١] .

[٥٢] لا خيرَ إلاّ في الاتّباع

قال عليُّ بن المدينيّ : « أتيتُه[٢] يوماً ، فوجدتُّ معه دَرْجاً[٣] يحدِّثُ به ، فقلتُ له : أسمعتَ هذا ؟ قال : لا ، ولكن اشتريتُه وفيه أحاديثُ حِسانٌ أحدِّثُ بها هؤلاء ، فقلتُ : أما تخافُ ا للهَ ؟ تُقَرِّبُ العبادَ إلى ا لله بالكذبِ على رسول ا لله ﷺ » .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٩/٢٢٨ .

(٢) يعني أحمد بن عطاء الهُجيمي المتوفّى سنة ٢٠٠ هـ وكان زاهداً قدريّاً مبتدعاً كما قال الذّهبيُّ في ترجمته من سير أعلام النّبلاء ٩/٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٣) الدَّرْجُ : هو الورقُ الذي يكتبُ فيه .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : ما كان الرّجلُ يَدري ما الحديثُ ، ولكنّه عبدٌ صالِحٌ، وقـعَ في القَدَرِ، نعوذُ با لله من تُرَّهات الصَّوَفَة[١]، فلا خيرَ إلاّ في الاتِّباع، ولا يمكنُ الاتِّباعُ إلاّ بمعرفة السُّنَنِ »[٢] .

[٥٣] كان مُعافىً من معرفة حكمة الأوائل

« قد كان هذا المرءُ[٣] من بُحور العلم، ومع ذلك فلم يكُن بالماهر بكتاب ا لله، ولا العارف بسُنّة رسول ا لله ﷺ، ولا البصيرِ بالفقه واختلاف أئمّة الاجتهاد، بلى ، وكان مُعافىً من معرفة حكمة الأوائل ، والمنطق ، وأقسام الفلسفة ، وله نظرٌ في المعقُول »[٤] .

[٥٤] كلامُ الأقران يُطْوَى ولا يُرْوَى

« كلامُ الأقرانِ إذا تبرهنَ لنا أنّه بهوىً وعصبيّةٍ لا يُلتفَتُ إليه، بل يُطْوى ولا يُرْوى ، كما تقرّرَ عن الكفِّ عن كثيرٍ ممّا شجرَ بين الصّحابة

(١) يعني الصُّوفيّة .

(٢) سير أعلام النّبلاء ٤٠٩/٩ .

(٣) يعني أبا عبيدة معمر بن المثنّى العلاّمةُ النّحويُّ .

(٤) المصدر نفسه ٤٤٧/٩ .

وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين ، وما زال يمرُّ بنا ذلك في الدّواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطعٌ وضعيفٌ، وبعضُه كذبٌ، وهذا فيما بين أيدينا وبين علمائنا، فينبغي طَيُّه وإخفاؤُه، بل إعدامُه لتصفُوَ القلوبُ، وتتوفّرَ على حُبِّ الصّحابة، والتّرضّي عنهم، وكتمانُ ذلك متعيِّنٌ عن العامّة وآحاد العلماء، وقد يُرَخّصُ في مطالعة ذلك خَلْوَةً للعالِم المنصف العَرِيِّ من الهَوى، بشرط أن يستغفر لهُم، كما علّمنا الله تعالى حيث يقُول: ﴿**والذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإِخْوَانِنَا الذِينَ سَبَقُونَا بالإِيمَان وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾(١)؛ فالقومُ لهم سوابق، وأعمالٌ مُكفِّرَةٌ لَمَا وقعَ منهم، وجهادٌ مَحّاءٌ، وعبادةٌ مُمَحِّصَةٌ، ولسنا ممّن يغلُو في أحدٍ منهم، ولا ندّعي فيهم العصمةَ، نقطعُ بأنّ بعضَهُم أفضلُ من بعضٍ، ونقطعُ بأنّ أبا بكرٍ وعمرَ أفضلُ الأمّة، ثمّ تتمّة العشرة المشهُود لهم بالجنّة، وحمزة وجعفر ومعاذ وزيد، وأمّهات المؤمنين، وبنات نبيّنا ﷺ، وأهل بدرٍ، مع كونهم على مراتب، ثمّ الأفضلُ بعدهُم مثلُ أبي الدّرداء وسلمان الفارسيّ وابن عمر وسائر أهل بيعة الرّضوان الذين رضي الله عنهم بنصٍّ آية سُورة الفتح، ثمّ عموم المهاجرين والأنصار كخالد بن الوليد والعبّاس وعبد الله بن عمرو، وهذه الحَلْبَة، ثمّ سائر مَن صحب رسولَ الله ﷺ وجاهد معه، أو حجّ معه، أو سمع منه، رضي الله عنهم أجمعين، وعن جميع صواحب رسُول الله ﷺ المُهاجرات والمدنيّات وأمّ الفضل وأمِّ هانىء الهاشميّة وسائر الصّحابيّات. فأمّا ما تنقلُه الرّافضةُ وأهلُ

---

(١) الحشر : الآية ١٠ .

البدع في كتبهم من ذلك فلا نُعَرِّجُ عليه ولا كَرَامَةَ، فأكثرُه باطلٌ وكذبٌ وافتراءٌ، فدأبُ الرّوافض روايةُ الأباطيل، أو رَدُّ ما في الصِّحاح والمسانيد.

ومتى إفاقةُ مَن به سَكَرانُ

ثمّ قد تكلّم خَلْقٌ من التّابعين بعضُهم في بعضٍ، وتحاربُوا ، وجرتْ أمورٌ لا يمكنُ شرحُها، فلا فائدةَ في بثِّها ، ووقع في كتب التّواريخ وكتب الجرح والتّعديل أمورٌ عجيبةٌ، والعاقِلُ خَصْمُ نفسِه، ومِن حُسْنِ إسلام المرءِ تركُه ما لايعنيه، ولحومُ العلماء مسمومةٌ، وما نُقل من ذلك لتبيين غلطِ العالِم، وكثرة وهمِه، أو نقص حفظِه، فليس من هذا النَّمَطِ، بل لتوضيح الحديث الصّحيح من الحسن، والحسن من الضّعيف ... »[١] .

[٥٥] مِنْ دَسائس دُعاة العُبيديّة

« ولجهلة المصريّين فيها[٢] اعتقادٌ يتجاوزُ الوصفَ ولا يجوزُ ، ممّا فيه من الشِّرْك ، ويسجُدون لها ، ويلتمسُون منها المغفرةَ ، وكان ذلك من دسائس دُعاة العُبَيديّة »[٣] .

(١) سير أعلام النّبلاء ١٠/٩٢ ـ ٩٤ .

(٢) يعني السّيدة المكرّمة الصّالحة نَفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما .

(٣) المصدر نفسه ١٠/١٠٦ .

[٥٦] العلمُ والعبادةُ

قال أحمدُ بن سلمة النّيسابوريُّ : سمعتُ هَنّاداً يقول غير مرّةٍ ـ إذا ذَكَرَ قبيصةَ[١] ـ : « الرّجلُ الصّالحُ ، وتدمعُ عيناهُ ، وكان هنّادٌ كثيرَ البكاء ... » .

وقال حفصُ بن عمر : « ما رأيتُ مثلَ قبيصة ، ما رأيتُه متبسِّماً قطُّ[٢]، مِن عباد الله الصّالحين » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : كذا كان والله أهلُ الحديث ، العلمُ والعبادةُ ، واليومَ فلا علمَ ولا عبادةَ ، بل تخبيطٌ ولَحْنٌ ، وتصحيفٌ كثيرٌ ، وحفظٌ يسيرٌ ، وإذا لم يرتكب العظائمَ ، ولا يُخِلُّ بالفرائض ، فللّه دَرُّه »[٣] .

[٥٧] سَلْ أهلَ العلمِ إن كنتَ لا تعلَمُ

« ليس مِن شرطِ التّواتُر أن يصلَ إلى كلِّ الأمّة، فعند القُرّاء أشياءُ متواتِرَةٌ دون غيرهم، وعند الفقهاء مسائلُ متواترةٌ عن أئمّتهم لا يَدْريها

(١) قبيصة بن عقبة السُّوائي الكوفيّ الحافظ الإمام الثّقة العابد .

(٢) لا يخفى أن التّبسُّم لا ينافي الصّلاح ، وقد تبسّم رسول الله ﷺ ، بل وكان ضحكُه تبسُّماً.

(٣) سير أعلام النّبلاء ١٠/١٣٣ - ١٣٤ .

القُرّاءُ، وعنـد المحدِّثين أحـاديثُ متواتِرةٌ قـد لا يكونُ سمعهـا الفقهـاءُ، أو أفادتهُم ظَنّاً فقط ، وعند النُّحاة مسائلُ قطعيّةٌ ، وكذلك اللُّغويُّون ، وليس مَنْ جهل علماً حجّةً على مَنْ عَلِمَهُ ، وإنّما يُقال للجـاهل : تَعَلَّمْ ، وسَلْ أهلَ العلمِ إن كنتَ لا تعلمُ ، لا يُقال للعالِم : اجهلْ مـا تعلـمُ ، رزقنـا الله وإيّاكُم الإنصافَ »(١) .

[٥٨] لا يستويان مثلاً الكافرُ الأصليّ ومن كُفِّرَ ببدعةٍ لكن نبرأُ إلى الله من البدع وأهلها

« هو - أي بِشْرٌ المَرِّيسيّ - بِشْرُ الشَّرِّ، وبِشْرٌ الحافي بِشْـرُ الخَير، كمـا أنّ أحمدَ بن حنبلٍ هو أحمدُ السُّنّةِ، وأحمدُ بن أبي دُؤادٍ أحمدُ البدعـة. ومَـن كُفِّـرَ ببدعـةٍ وإن جَلَّـتْ ليـس هـو مثـل الكـافر الأصلـيّ، ولا اليهـوديّ والمجُوسيّ، أبى الله أن يجعلَ مَن آمن بالله ورسُوله واليـومِ الآخـر، وصـام وصلّى وحجّ وزكّى - وإن ارتكب العظائمَ، وضلّ وابتـدع - كمَـنْ عـاندَ الرّسُول، وعَبَدَ الوَثَنَ، ونبذَ الشّرائعَ وكَفَرَ، ولكن نـبرأُ إلى الله مـن البـدع وأهلها »(٢) .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٠/١٧٠ - ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه ١٠/٢٠٢ .

[٥٩] معتزليٌّ لم نَرَ كتبَهُ و لله الحمدُ

في ترجمة أبي سهلٍ بشر بن المعتمر الكوفي البغدادي شيخ المعتزلة والمتوفَّى سنة ٢١٠ هـ قال الحافظُ الذّهبيُّ رحمه الله تعالى :

« كان أبرصَ ذكيّاً فَطِناً ، لم يُؤتَ الهُدَى ، و طَال عمرُه فما ارعوَى ... ، وله كتاب : تأويل المتشابه ، وكتاب الرّدِّ على الجُهّال ، وكتاب العَدْلِ ، وأشياءُ لم نرها و لله الحمدُ »[١] .

[٦٠] انظُر يا مسكينُ كيف أنتَ عنهم بمعزلٍ

قال عمرو بن عليٍّ الفَلاّسُ : « رأيتُ يحيى ـ يعني القطّان ـ يوماً حدّث بحديثٍ، فقال له عَفّان : ليس هو هكذا، فلمّا كان من الغدِ أتيتُ يحيى فقال : هو كما قال عَفّان ، ولقد سألتُ الله أن لا يكون عندي على خلاف ما قال عفّان » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هكذا كان العلماءُ ، فانظُر يا مسكينُ كيف أنتَ عنهُم بمعزلٍ »[٢] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٠/٢٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ١٠/٢٤٩ .

[٦١] الشّجاعةُ والسّخاءُ أخوان

قال أحمدُ بن أبي خالدٍ الأحولُ الكاتبُ : « مَنْ لم يَقْدِرْ على نفسِه بالبَذْلِ ، لم يَقْدِرْ على عدُوِّه بالقَتْل » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : الشّجاعةُ والسّخاءُ أخوان ، فمن لم يَجُدْ بمالِه فلن يجودَ بنفسِه »(١) .

[٦٢] للكُلِّ موقِفٌ بين يدي الله تعالى

« المعتزلةُ تقول : لو أنّ المحدِّثين تركُوا ألفَ حديثٍ في الصِّفات والأسماء والرُّؤية والنّزول لأصابُوا، والقدريّةُ تقول : لو أنّهم تركُوا سبعين حديثاً في إثبات القَدَر، والرّافضةُ تقُول : لو أنّ الجمهورَ تركُوا من الأحاديث التي يدّعُون صحّتَها ألفَ حديثٍ لأصابُوا، وكثيرٌ من ذوي الرّأي يردُّون أحاديثَ شَافَهَ بها الحافظُ المفتي المجتهدُ أبو هريرةَ رسولَ الله ﷺ ، ويزعمُون أنّه ما كان فقيهاً ، ويأتُوننا بأحاديثَ ساقطةٍ ، أو لا يُعرفُ لها إسنادٌ أصلاً مُحتجِّين بها .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٠/٢٥٦ .

قلنا : وللكُلِّ موقفٌ بين يدي الله تعالى . يا سُبحان الله ! أحاديثُ رؤية الله في الآخرة متواترةٌ ، والقرآنُ مصدِّقٌ لها ، فأين الإنصاف ؟ »[١] .

[٦٣] عباراتٌ وشقائقُ لا يعبأُ اللهُ بها

قال المُبَرّد : « قال رجلٌ لهشامٍ الفُوَطيّ[٢] : كم تَعُدُّ من السّنين ؟ قال: من واحدٍ إلى أكثر من ألفٍ. قال : لم أُرد هذا ، كم لك من السِّنِّ ؟ قال: اثنا وثلاثون سِنّاً . قال : كم لك من السِّنين ؟ قال : ما هي لي ، كلُّها لله . قال : فما سِنُّك ؟ قال : عَظْمٌ . قال : فابْنُ كم أنتَ ؟ قال : ابنُ أمٍّ وأبٍ . قال : فكم أتى عليك ؟ قال : لو أتى عَلَيَّ شيءٌ لقتلني . قال : ويحك ، فكيف أقول ؟ قال : قل: كم مضى من عُمُرِك » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هذا غايةُ ما عند هؤلاء المتقعِّرين من العلم ، عباراتٌ وشقائقُ لا يعبأُ اللهُ بها ، يُحرِّفُون بها الكَلِمَ عن مواضعه قديماً وحديثاً ، فنعوذُ بالله من الكلام وأهلِه »[٣] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٠/٤٥٥ .

(٢) هشام بن عمرو الفُوَطي كوفي معتزليّ .

(٣) المصدر نفسه ١٠/٥٤٧ .

[٦٤] ذكاءٌ وبالٌ على صاحبه

في ترجمة أبي عبد الرّحمن الشّافعيّ المتكلّم سمّى الذّهبيُّ أيضاً أشباهَهُ من أهل الكلام والاعتزال ثمّ قال :

« وأشباهُهم ممّن كان ذكاؤُهم وبالاً عليهم، ثمّ بينهم من الاختلاف والخُباط أمرٌ لا يخفى على أهل التّقوى، فلا عقُولهم اجتمعتْ ، ولا اعتنوا بالآثار النّبويّة ، كما اعتنى أئمّةُ الهُدى ، ﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾[1] »[2].

[٦٥] لا يُبْذَلُ العلمُ للجهلة الذين يفهمُون منه ما يضرُّهم

« ينبغي للمحدِّث أن لا يُشْهِرَ الأحاديثَ التي يتشبّثُ بظاهرها أعداءُ السُّنن من الجهميّة وأهل الأهواء، والأحاديثَ التي فيها صفاتٌ لم تثبُت، فإنّك لن تُحَدِّثَ قوماً بحديثٍ لا تبلغُه عقولُهم إلاّ كان فتنةً لبعضهم، فلا تكتُم العلمَ الذي هو علمٌ، ولا تَبْذُلْهُ للجهلة الذين يَشْغَبُونَ عليك، أو الذين يفهمُون منه ما يضرُّهم »[3].

---

(١) الأنعام : الآية ٨١ .

(٢) سير أعلام النّبلاء ١٠/٥٥٥ ـ ٥٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ١٠/٥٧٨ .

[٦٦] العلومُ الباطلةُ كثيرةٌ جدّاً فلتُحذَرْ

« إنّ العلمَ الواجبَ يجبُ بثّه ونَشْرُه ويجبُ على الأمّة حفظُه، والعلـمُ الذي في فضـائل الأعمـال ممّـا يصـحُّ إسـنادُه يتعيّـنُ نقلُـه، ويتـأكّدُ نَشْـرُه، وينبغي للأمّة نَقْلُه. والعلمُ المباحُ لا يجبُ بَثُّه ، ولا ينبغي أن يدخُـلَ فيـه إلاّ خواصُّ العلماء . والعلمُ الذي يحـرمُ تعلّمُـه ونَشْـرُه علـمُ الأوائـل وإلهيّـات الفلاسفة وبعضُ رياضتهم بل أكثرُهُ، وعلمُ السِّحْر، والسِّيمياء، والكيمياء، والشَّعْبَذَة، والحِيَل، ونَشْرُ الأحاديث الموضُوعة، وكثيرٌ من القصص الباطلـة أو المنكرة، وسيرةُ البَطّال المُخْتَلَقَة، وأمثالُ ذلـك، ورسـائلُ إخـوان الصَّفَـا، وشِعْرٌ يُعْرَضُ فيه إلى الجَناب النّبويّ، فالعلُومُ الباطلةُ كثـيرةٌ جـدّاً فلتُحـذَرْ، ومن ابتُلي بالنّظر فيهـا للفُرْجَـةِ والمعرفـة مـن الأذكيـاء فليُقَلِّـلْ مـن ذلـك، وليُطالعْـهُ وحـدَهُ، وليسـتغفر الله تعـالى، وليلتجـىء إلى التّوحيـد، والدُّعـاء بالعافية في الدِّين، وكذلك أحاديثُ كثيرةٌ مكذوبـةٌ وردتْ في الصِّفـات لا يَحِلُّ بَثُّها إلاّ للتّحذير مـن اعتقادهـا، وإن أمكـنَ إعدامُهـا فحَسَـنٌ؛ اللّهُـمّ فاحفظ علينا إيمانَنا ، ولا قُوّةَ إلاّ با لله »[1].

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٠/٦٠٤ .

[٦٧] مقامان مذمُومان

« نعوذُ با لله من التّشبيه ، ومن إنكار أحاديث الصِّفات ، فما ينكِرُ الثّابتَ منها مَنْ فَقُهَ ، وإنّما بعد الإيمان بها هنا مقامان مذمُومان :

[المقامُ الأوّل] : تأويلُها وصَرْفُها عن موضُوع الخِطاب ، فما أوّلَها السَّلَفُ، ولا حَرَّفُوا ألفاظَها عن مواضعها، بل آمنُوا بها، وأمَرُّوها كما جاءتْ.

المقامُ الثّاني : المبالغةُ في إثباتها ، وتصوُّرُها من جنْسِ صفات البَشَر، وتشكُّلُها في الذِّهْن، فهذا جَهْلٌ وضلالٌ ، وإنّما الصِّفةُ تابعةٌ للموصُوف، فإذا كان الموصُوفُ عزّ وجلّ لم نَرَهُ، ولا أخبرنا أحدٌ أنّه عايَنَهُ، مع قوله لنا في تنزيله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(١)، فكيف بقي لأذهاننا مجالٌ في إثبات كيفيّة الباريء، تعالى ا لله عن ذلك، فكذلك صفاتُه المُقَدَّسةُ، نُقِرُّ بها ونعتقِدُ أنّها حَقٌّ، ولا نُمَثِّلُها أصلاً ولا نَتَشَكَّلُها »(٢).

[٦٨] أعْطِ القَوْسَ باريها

« نحنُ لا ندّعي العصمةَ في أئمّة الجَرْحِ والتّعديل ، لكن هُم أكثرُ النّاس صواباً ، وأندرُهم خطأً ، وأشدُّهم إنصافاً ، وأبعدُهم عن التّحامُل.

---

(١) الشُّورى : الآية ١١ .

(٢) سير أعلام النّبلاء ١٠/٦١١ .

وإذا اتّفقُوا على تعديلٍ أو جَرْحٍ فتمسَّكْ به ، واعضُضْ عليه بناجذَيْك ، ولا تتجاوزْهُ فتندم . ومَنْ شذَّ منهم فلا عبرةَ به ؛ فخَلٍّ عنك العَناءَ ، وأعطِ القَوْسَ باريها ، فوا لله لولا الحُفّاظُ الأكابر لخطبت الزّنادِقَةُ على المنابر ، ولئن خَطَبَ خاطِبٌ من أهل البِدَع فإنّما هو بسيف الإسلام ، وبلسان الشّريعة ، وبجاهِ السُّنّة ، وبإظْهار مُتابعة ما جاء به الرّسولُ ﷺ ، فنعوذُ با لله من الخذلان »[1].

[٦٩] كيف بالماضين لو رأونا اليومَ نسمعُ من أيِّ صحيفةٍ مصحّفةٍ !

قال عبّاس بن عبد العظيم : « هي كتبُ أميّة بن خالدٍ ، يعني : الذي يُحدِّثُ بها هُدْبَةُ[2] » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ مُعَلِّقاً :

« قلتُ : رافقَ أخاهُ[3] في الطّلب ، وتشاركا في ضبط الكتب ، فساغَ له أن يروي من كتب أخيه ؛ فكيف بالماضين لو رأونا اليومَ نسمعُ من أيِّ صحيفةٍ مُصَحَّفَةٍ على أجهل شيخٍ له إجازةٌ ، ونَروي من نسخةٍ أخرى بينهما من الاختلاف والغلط ألوانٌ ، ففاضلُنا يُصَحِّحُ ما تيسّر من

(١) سير أعلام النّبلاء ١١/٨٢ .

(٢) هدبةُ بن خالدٍ البصري الحافظُ المسندُ .

(٣) أي : أميّة بن خالدٍ البصري .

حفظه ، وطالبُنا يتشاغَلُ بكتابة أسماء الأطفال ، وعالِمُنا ينسَـخُ ، وشـيخُنا ينامُ ، وطائفةٌ من الشّبيبة في وادٍ آخر من المُشاكلة والمُحادثة . لقـد اشْـتَفَى بنا كلُّ مُبتدِعٍ ، ومَجَّنا كلُّ مُؤمنٍ ، أفهؤلاء الغُثاء هُم الذين يحفظُون علـى الأمّة دينَها ؟ كلاّ وا لله ؛ فرحمَ ا للهُ هُدْبَةَ ، وأين مثلُ هُدْبَة ؟ »(١).

[٧٠] الصَّدْعُ بالحقِّ عظيمٌ يحتاجُ إلى قوّةٍ وإخلاصٍ

« الصَّدْعُ بالحقِّ عظيمٌ يحتاجُ إلى قوّةٍ وإخلاصٍ ، فـالمُخْلِصُ بـلا قُـوّةٍ يعجزُ عن القيام به ، والقويُّ بلا إخلاص يُخْذَلُ ، فمـن قـام بهمـا كـاملاً فهو صِدِّيقٌ ، ومَنْ ضَعُفَ فلا أقلَّ من التّألُّم والإنكار بـالقلب ، ليـس وراءَ ذلك إيمانٌ ، فلا قُوّةَ إلاّ با لله »(٢).

[٧١] قُفْلُ باب الفتنة : عُمَرُ بن الخطّاب رضي ا لله عنه

« كان النّاسُ أمّةً واحدةً ، ودينُهم قائماً في خلافة أبي بكـرٍ وعمـر ، فلمّا استُشهد قُفْلُ باب الفتنة عمرُ رضي ا لله عنـه ، وانكسـر البـابُ، قـام رؤوسُ الشرِّ على الشّـهيد عثمـان حتّـى ذُبِحَ صَبْراً ، وتفرّقـت الكلمـةُ ، وتمّتْ وقعةُ الجَمَلِ ، ثمّ وقعةُ صِفّين ، فظهرت الخـوارجُ ، وكفّـرت سادةَ

(١) سير أعلام النّبلاء ١١/٩٨ ـ ٩٩ .
(٢) المصدر نفسه ١١/٢٣٤ .

الصّحابة ، ثـمّ ظهـرت الرّوافـضُ والنّواصـبُ. وفي آخـر زمـن الصّحابــة ظهرت القدريّةُ، ثمّ ظهرت المعتزلةُ بالبصرة، والجهميّـةُ والمجسِّمةُ بخُراسـان في أثناء عصر التّابعين، مـع ظهُـور السُّنّة وأهلِهـا، إلى بعـد المئتـين، فظهـر المأمونُ الخليفةُ ـ وكان ذكيّاً متكلِّماً له نظرٌ في المعقُول ـ فاسـتجلبَ كتـبَ الأوائل ، وعرّبَ حكمةَ اليُونان ، وقـامَ في ذلـك وقعـدَ ، وخَـبَّ ووضـعَ، ورفعت الجهميّةُ والمعتزلةُ رؤوسَها بل والشّيعةُ فإنّه كـان كذلـك. وآل بـه الحالُ إلى أن حملَ الأمّـةَ على القـول بخَلْق القـرآن، وامتحـنَ العلمـاءَ فلـم يُمْهَلْ، وهلكَ لعامِه ، وخلَّى بعده شرّاً وبلاءً في الدِّين ؛ فإنّ الأمّةَ ما زالتْ على أنّ القرآنَ العظيمَ كـلامُ ا لله تعـالى ووحيُـه وتنزيلُـه ، لا يعرفُـون غـيرَ ذلك، حتّى نبغَ لهم القولُ بأنه كلامُ ا لله مخلُوقٌ مجعُولٌ ، وأنّه إنّمـا يُضـافُ إلى ا لله تعالى إضافةَ تشريفٍ كبيت ا لله ، وناقة ا لله ، فأنكر العلمـاءُ ، ولم تكن الجهميّةُ يظهرُون في دولة المهدي والرّشيد والأمين، فلمّـا ولي المـأمونُ كان منهم وأظهر المقالةَ »[1].

[٧٢] يظنُّونه مُحدِّثاً و بَسْ

قال ابنُ عَقيلٍ : « مِن عجيب ما سمعتُه عن هـؤلاء الأحْـداث الجُهّـال أنّهم يقولون : أحمد ـ يعني ابن حنبل ـ ليس بفقيهٍ ، لكنّـه محـدِّثٌ . قـال : وهذا غايةُ الجهل ، لأنّ له اختيارات بناهـا علـى الأحـاديث بنـاءً لا يعرفـه أكثرُهـم ، وربّما زادَ على كبارهم » .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٢٣٦/١١ .

قال الحافظُ الذّهبيُّ مُعَلِّقاً :

« قلتُ : أحسبُهم يظنُّونه كان مُحَدِّثاً و بَس[١] ، بل يتخيّلونه من بَابَةِ محدِّثي زماننا . ووالله لقد بلغَ في الفقه خاصّةً رتبةَ اللّيث ، ومالكٍ ، والشّافعيّ ، وأبي يوسف ، وفي الزُّهد والورع رتبةَ الفُضيل ، وإبراهيم بن أدهم ، وفي الحفظِ رتبةَ شعبة ، ويحيى القطّان ، وابن المديني ، ولكن الجاهل لا يعلمُ رتبةَ نفسه ، فكيف يعرفُ رتبةَ غيرِه ؟ ! »[٢].

[٧٣] قلّ تحصيلُ العلم من أفواه الرّجال

« إنّ الخَطَّ قد يتصحَّفُ على النّاقل ، وقد يُمكنُ أن يُزاد في الخَطِّ حرفٌ فيغيِّرُ المعنى ونحو ذلك . وأمّا اليوم فقد اتّسعَ الخَرْقُ ، وقَلَّ تحصيلُ العلم من أفواه الرّجال ، بل ومن الكتب غير المغلُوطة ، وبعضُ النّقلة للمسائل قد لا يُحْسِنُ أن يَتَهَجَّى »[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) بمعنى : كفى وحَسْبُ فارسيّة .

(٢) سير أعلام النّبلاء ١١/٣٢١ .

(٣) المصدر نفسه ١١/٣٧٧ .

[٧٤] ما الظنُّ إذا كان واعِظُ النّاس عبدَ بطنِه وشهوتِه

« ما الظّنُّ إذا كان واعِظُ النّاس من هذا الضَّرْبِ عَبْدَ بطنِه وشهوتِه، وله قَلْبٌ عَرِيٌّ من الحُزْن والخوف ، فإن انضافَ إلى ذلك فِسْقٌ مَكينٌ ، أو انحلالٌ من الدِّين ، فقد خاب وخسِر ، ولابُدَّ أن يفضحَهُ ا لله تعالى »[١].

[٧٥] كلامُك يُعرَضُ على ا لله فلا تحترز !

قال حاتِمٌ الأصمُّ : « لو أنّ صاحبَ خَبَرٍ جلسَ إليك ، لكنتَ تتحرّزُ منه ، وكلامُك يُعْرَضُ على ا لله فى تحترز ! » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هكذا كانت نكتُ العارفين وإشاراتُهم ، لا كما أحدثَ المتأخِّرُون من الفَناء والمَحْوِ والجَمْعِ الذي آل بجهلتهم إلى الاتِّحاد وعَدَمِ السِّوَى »[٢].

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١١/٤١٠ .

(٢) المصدر نفسه ١١/٤٨٧ .

[٧٦] متى يُفلِحْ مَنْ كان يسرُّه ما يَضُرُّه ؟

« تأمّل هذه الكلمة الجامعة وهي قولُه ﷺ : الدِّينُ النّصيحةُ ، فمن لم ينصَحْ للهِ وللأئمّة والعامّة كان ناقِصَ الدِّين. وأنتَ لو دُعيتَ: يا ناقِصَ الدِّين ، لغضبْتَ ؛ فقُل لي : متى نصحْتَ لهؤلاء ؟ كلاّ والله ، بل ليتَك تسكتُ ولا تنطِقُ ، أو لا تُحَسِّن لإمامك الباطلَ ، وتُجَرِّئُه على الظُّلْم وتَغُشُّهُ ؛ فمن أجل ذلك سقطتَ مِن عَينِه ومن أعيُن المؤمنين. فبالله قُل لي: متى يُفْلِحُ مَن كان يَسُرُّه ما يَضُرُّه ؟ ومتى يُفلح من لم يُراقب مولاه ؟ ومتى يُفلح مَن دنا رحيلُه ، وانقضى جيلُه ، وساءَ فعلُه وقيلُه ؟ فما شاء اللهُ كان ، وما نَرْجُو صلاحَ أهلِ الزّمان ، لكن لا نَدَعُ الدُّعاءَ ، لعلّ الله أن يلطف ، وأن يُصلحنا ، آمين »(١).

[٧٧] الطّريقةُ المثلى هي المحمّديّةُ

« الطّريقةُ المثلى هي المحمّديّةُ وهو الأخذُ من الطّيّبات، وتناولُ الشّهوات المباحة من غير إسرافٍ، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً**﴾(٢)، وقد قال النّبيُّ ﷺ : لكنّي أصومُ

(١) سير أعلام النّبلاء ١١/٥٠٠ .

(٢) المؤمنون : الآية ٥١ .

وأفطرُ، وأقومُ وأنامُ ، وآتي النّساء ، وآكلُ اللّحمَ ؛ فمن رغبَ عن سُنّتي فليس منّي. فلم يشرع لنا الرّهبانيّةَ ، ولا التّمزُّق، ولا الوصال ، بل ولا صومَ الدّهْر . وديِنُ الإسلام يُسْرٌ وحنيفيّةٌ سَمْحَةٌ، فليأكل المسلمُ من الطّيِّب إذا أمكنه كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾[1]، وقد كان النّساءُ أحبَّ شيءٍ إلى نبيِّنا ﷺ، وكذلك اللّحمُ والحلواءُ والعسلُ والشّرابُ الحلوُ الباردُ والمِسْكُ، وهو أفضلُ الخَلْقِ وأحبُّهم إلى الله تعالى. ثمّ العابدُ العَرِيُّ من العلم متى زهد وتبتّل وجاع، وخلا بنفسه، وترك اللّحمَ والثّمارَ، واقتصر على الدُّقّةِ والكِسْرَة، صفتْ حواسُّه ولطُفَتْ، ولازمتْهُ خطَراتُ النّفس، وسمع خطاباً يتولّدُ من الجُوع والسّهَر، لا وجُودَ لذلك الخطاب ــ والله ــ في الخارج، وولجَ الشّيطانُ في باطنه وخرجَ، فيعتقِدُ أنّه قد وصل، وخُوطب وارتقى، فيتمكّنُ منه الشّيطانُ ويوسوسُ له، فينظرُ إلى المؤمنين بعَيْنِ الازدراء، ويتذكّرُ ذنوبَهُم، وينظرُ إلى نفسه بعَيْنِ الكمال، وربُّما آل به الأمرُ إلى أن يعتقد أنّه وليٌّ، صاحبُ كراماتٍ وتمكُّنٍ، وربّما حصلَ له شكٌّ، وتزلزل إيمانُه، فالخَلْوَةُ والجُوع أبو جَادِ التّرَهُّب، وليس ذلك من شريعتنا في شيءٍ. بلى ، السُّلُوكُ الكاملُ هو الورعُ في القُوتِ، والورعُ في المنطق، وحفظُ اللِّسان، وملازمةُ الذِّكْرِ، وتَرْكُ مخالطةِ العامّة، والبكاءُ على الخطيئة، والتّلاوةُ بالتّرتيل والتّدبُّر، ومقتُ النّفس وذمُّها في ذات الله، والإكثارُ من الصّوم المشروع، ودوامُ التّهجُّد، والتّواضعُ للمسلمين، وصلةُ الرّحم، والسّماحةُ، وكثرةُ البِشْر،

---

(١) الطّلاق : الآية ٧ .

والإنفاقُ مع الخَصاصة، وقولُ الحقّ المُرّ برفقٍ وتُؤدةٍ، والأمرُ بالعُرْفِ، والأخذُ بالعفو، والإعراضُ عن الجاهلين، والرّباطُ بالثّغر، وجهادُ العدوّ، وحجُّ البيت، وتناولُ الطّيّبات في الأحايين، وكثرةُ الاستغفار في السَّحَر، فهذه شمائلُ الأولياء، وصفاتُ المحمّديّين، أماتنا الله على محبّتهم »(١).

[٧٨] هكذا كان السّلفُ يتّبعُون ولا يتنطّعُون

في ترجمة أبي بكرٍ محمّد بن الحسن الأعين الحافظ الثّبْتِ نقل الذّهبيُّ عن عبد الله بن الإمام أحمد قولَه : « ترحّم عليه - يعني على ابن الأعين - أبي وقال : إنّي لأغبطُه ، مات وما يعرفُ إلاّ الحديث ، لم يكن صاحبَ كلامٍ » .

ثمّ قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هكذا كان أئمّةُ السّلف ، لا يرونَ الدُّخولَ في الكلام ولا الجدال ، بل يستفرغُون وُسْعَهُم في الكتاب والسُّنّة ، والتّفقّه فيهما ، ويتّبعُون ولا يتنطّعُون »(٢).

❁ ❁ ❁

(١) سير أعلام النّبلاء ١٢/٨٩ - ٩١ .
(٢) المصدر نفسه ١٢/١٢٠ .

[٧٩] التّحديثُ من كتابٍ أبعدُ عن العُجب

قال عليٌّ بن المدينيّ : « عهدي بأصحابنا وأحفظُهم أحمدُ بـن حنبـلٍ، فلمّا احتاجَ أن يُحدِّثَ لا يكادُ يحدِّثُ إلاّ من كتابٍ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : لأنّ ذلك أقربُ إلى التّحرّي والورع، وأبعدُ عن العُجْبِ »(١).

[٨٠] ما زال العلماءُ يردُّ بعضُهم على بعضٍ

« ما زال العلماءُ قديماً وحديثاً يردُّ بعضُهم على بعضٍ في البحـث وفي التّواليف، وبمثل ذلك يتفقّهُ العالِمُ، وتتبرهنُ له المشكلاتُ، ولكن في زماننـا قد يُعاقَبُ الفقيهُ إذا اعتنى بذلك لسُوء نيّته، ولطلبه للظُّهُور والتّكثُّر، فيقومُ عليه قضاةٌ وأضدادٌ ، نسألُ ا لله حُسْنَ الخاتمة، وإخلاص العمل »(٢).



(١) سير أعلام النّبلاء ١٢/٢٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٢/٥٠٠ ـ ٥٠١ .

[٨١] ما أحسنَ حديثه !

قال الأصمّ عن عبّاس بن محمّدٍ الدُّوري : « لم أرَ في مشايخي أحسنَ حديثاً منه » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : يحتملُ أنّه أرادَ بحُسْنِ الحديث الإتقانَ ، أو أنّه يتّبعُ المتونَ المليحة فيرويها ، أو أنّه أرادَ عُلوَّ الإسناد ، أو نظافةَ الإسناد ، وتَرْكَهُ رواية الشّاذِّ والمنكر والمنسُوخِ ونحو ذلك، فهذه أمورٌ تَقْضي للمحدِّث إذا لازَمَها أن يُقال : ما أحسنَ حديثَهُ »[١].

[٨٢] الاحتجاجُ بالُمحال والكذب دَيْدَنُ الإماميّة

« نعوذُ بالله من زوال العَقْل ، فلو فرضنا وقوعَ ذلك[٢] في سالف الدَّهْر فمن الذي رآهُ ؟ ومن الذي نعتمدُ عليه في إخباره بحياتِه ؟ ومن الذي نصَّ لنا على عصمته ، وأنّه يعلمُ كلَّ شيءٍ ؟ هذا هَوَسٌ بَيِّنٌ ، إن سلّطناهُ على العقُول ضلّتْ وتحيّرتْ، بل جوّزتْ كلَّ باطلٍ . أعاذنا الله وإيّاكُم من الاحتجاج بالُمحال والكذب ، أو ردِّ الحقِّ الصّحيح كما هو ديدنُ الإماميّة »[٣].

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٢/٥٢٣ .

(٢) يعني ما تزعمُه الإماميّة من دخول محمّد بن الحسن العسكري سِرْداباً وأنّه حيٌّ الآن.

(٣) المصدر نفسه ١٣/١٢٢ .

[٨٣] على علمِ الحديث وعُلمائه ليبْكِ مَنْ كان باكياً

قال عثمانُ بن سعيدٍ : « مَن لم يجمع حديثَ شُعبة وسُفيان ومالكٍ وحمّاد بن زيدٍ وسفيان بن عُيينة فهو مُفْلِسٌ في الحديث ـ يريدُ أنّه ما بلغَ درجةَ الحُفّاظ ـ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« وبلا ريبٍ أنّ مَنْ جمعَ علمَ هؤلاء الخمسة، وأحاطَ بسائر حديثهم، وكتبَهُ عالياً ونازلاً، وفَهِمَ عللَهُ، فقد أحاط بشطر السُّنّة النّبويّة، بل أكثر من ذلك، وقد عُدِمَ في زماننا مَن ينهضُ بهذا وببعضِه، فنسألُ الله المغفرة. وأيضاً فلو أرادَ أحدٌ أن يتتبّع حديثَ الثّوريّ وحدَهُ، ويكتُبَهُ بأسانيد نفسِه على طُولِها، ويُبيِّن صحيحَه من سقيمه، لكن يجيءُ مسندُه في عشر مجلّداتٍ. وإنّما شأنُ المحدِّث اليومَ الاعتناءُ بالدّواوين السِّتّة، ومسند أحمد ابن حنبل، وسُنن البيهقي، وضبطُ متُونها وأسانيدها، ثمّ لا ينتفعُ بذلك حتّى يتّقيَ ربَّهُ، ويَدِينَ بالحديث، فَعَلَى علم الحديث وعُلمائه ليبْكِ مَنْ كان باكياً، فقد عاد الإسلامُ المَحْضُ غريباً كما بدأ، فَلْيَسْعَ امرؤٌ في فكاك رقبتِه من النّار ، فلا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله.

ثمّ العلمُ ليس هو بكثرة الرّواية، ولكنّه نُورٌ يقذِفُه الله في القَلْبِ، وشرطُه الاتِّباع، والفرارُ من الهوى والابتدَاع، وفّقنا الله وإيّاكُم لطاعتِه »[1].

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٣٢٣/١٣ .

[٨٤] الذي يحتاجُ إليه الحافظُ

قال عثمانُ بن خرّزاذ : « يحتاجُ صاحبُ الحديث إلى خمسٍ ، فإن عَدِمَتْ واحدةٌ فهي نَقْصٌ ، يحتاجُ إلى : عقلٍ جيّدٍ ، ودِينٍ ، وضَبْطٍ ، وحَذاقةٍ بالصِّناعة ، مع أمانةٍ تُعرف منه » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : الأمانةُ جزءٌ من الدِّين ، والضَّبْطُ داخلٌ في الحِذْق ، فالذي يحتاجُ إليه الحافظُ أن يكون تقيّاً ، ذكيّاً ، نحويّاً لُغويّاً ، زَكِيّاً حَيِيّاً ، سَلَفِيّاً، يكفيه أن يكتب بيده مئتي مجلّد ، ويُحَصِّل من الدّواوين المعتبرة خمسَ مئة مجلّد ، وأن لا يفتُر من طلب العلم إلى الممات ، بنيّةٍ خالصةٍ وتواضُعٍ ، وإلاّ فلا تَتَعَنَّ »(١) .

[٨٥] واحُزْنَاه على غُرْبَة الإسلام والسُّنّة

« تُكُلِّمَ في السُّلَميّ من أجل تأليفه كتاب : حقائق التّفسير ، فيا ليتَهُ لم يُؤلِّفْهُ ، فنعوذُ با لله من الإشارات الحلاّجيّة ، والشَّطَحات البسْطاميّة ، وتصوُّف الاتّحاديّة ، فواحُزْنَاه على غُرْبَة الإسلام والسُّنّة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ »(٢) .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٣/٣٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٣/٤٤٢ .

[٨٦] مُعَثَّرٌ مخذُولٌ

قال عَبْدان : « حدّث ـ أي ابنُ خِراشٍ ـ بمراسيلَ وَصَلَهَا ، ومواقيـفَ رَفَعَـهَا » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلـتُ : قلـتُ : هـذا مُعَـثَّرٌ مخـذُولٌ ، كـان علمُـه وبـالاً ، و سـعيُه ضـلالاً ، نعوذُ با لله من الشّقاء »(١) .

[٨٧] تفسيرُ الإمام أحمد لا وجودَ له

قال أبو الحسين أحمدُ بن جعفر بن المُنادي : « لم يكُن في الدُّنيا أحـدٌ أَرْوى عن أبيه من عبد ا لله بن أحمد، لأنّه سمع منه المسند وهو ثلاثون ألفاً، والتّفسير وهـو مئـةُ ألـفٍ وعشـرون ألفـاً، سمـع منـه ثمـانين ألفـاً، والبـاقي وجــادةً » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : ما زلنا نسمعُ بهذا التّفسير الكبير لأحمد على ألسنة الطّلبـة، وعمدتُهم حكايةُ ابن المنادي هذه، وهو كبـيرٌ قـد سمـعَ مـن جـدّه وعبّـاس الدُّوري ومن عبد ا لله بن أحمد، لكن ما رأينا أحداً أخبرنا عن وجـود هـذا

(١) سير أعلام النّبلاء ١٣/٥١٠ .

التّفسير، ولا بعضه، ولا كُرّاسة منه، ولو كان له وجودٌ أو لشيءٍ منه لنسخُوه، ولاعتنى بذلك طلبةُ العلم، ولحصّلُوا ذلك، ولنُقل إلينا، ولاشتُهر، ولتنافس أعيانُ البغداديّين في تحصيله، ولنقلَ منه ابنُ جريرٍ فمن بعده في تفاسيرهم، ولا - وا لله - يقتضي أن يكون عند الإمام أحمد في التّفسير مئةُ ألفٍ وعشرون ألف حديثٍ، فإنّ هذا يكون في قَدْرِ مُسنده، بل أكثر بالضِّعْفِ، ثمّ الإمامُ أحمد لو جمع شيئاً في ذلك، لكن يكونُ مُنَقَّحاً مُهَذَّباً عن المشاهير، فيصغر لذلك حجمُه، ولكان يكونُ نحواً من عشرة آلاف حديثٍ بالجَهْدِ، بل أقلّ. ثمّ الإمامُ أحمد كان لا يرى التّصنيفَ، وهذا كتابُ المسند له لم يُصنِّفهُ هو ، ولا رتّبه ، ولا اعتنى بتهذيبه ، بل كان يرويه لولده نُسَخاً وأجزاءاً، ويأمرُه : أن ضَعْ هذا في مسند فلانٍ ، وهذا في مسند فلان . وهذا التّفسيرُ لا وجودَ له، وأنا أعتقدُ أنّه لم يكُن، فبغدادُ لم تزل دارَ الخُلفاء ، وقُبَّةَ الإسلام ، ودارَ الحديث ، ومَحَلّةَ السُّنن، ولم يزل أحمدُ فيها مُعَظَّماً في سائر الأعصار، وله تلامذةٌ كبارٌ ، وأصحابُ أصحابٍ، وهَلُمَّ جَراً إلى بالأمس ، حين استباحها جيشُ المغُول، وجرت بها من الدِّماء سيولٌ ، وقد اشتُهر ببغداد تفسيرُ ابن جريرٍ، وتزاحمَ على تحصيله العلماءُ، وسارتْ به الرُّكبانُ ، ولم نعرف مثلَه في معناه ، ولا أُلِّف قبله أكبر منه ، وهو في عشرين مجلّدةً ، وما يحتملُ أن يكون عشرين ألف حديثٍ ، بل لعلّه خمسةَ عشر ألف إسنادٍ ، فَخُذْهُ فعُدَّهُ إن شئتَ »(١) .

❁ ❁ ❁

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٣/٥٢١ - ٥٢٢ .

[٨٨] مسندُ الإمام أحمد وأمنيّةٌ للحافظ الذّهبيّ

« لعلّ الله يُقيّضُ لهذا الدِّيوان العظيم من يُرتِّبُه ويُهذِّبُه، ويحذفُ ما كُرِّر فيه، ويُصلحُ ما تصحّف، ويُوضح حالَ كثيرٍ من رجاله، ويُنبِّه على مُرسَلِه ، ويُوَهِّنُ ما ينبغي من مناكيره ، ويُرتِّب الصّحابةَ على المعجم ، وكذلك أصحابُهم على المعجم ، ويرمزُ على رؤوس الحديث بأسماء الكتب السِّتّة ، وإن رتّبه على الأبواب فحسنٌ جميلٌ ، ولولا أنّي قد عجزْتُ عن ذلك لضَعْف البصر ، وعدم النِّيّة ، وقُرْبِ الرّحيل ، لعملتُ في ذلك »[1] .

[٨٩] نعوذُ بالله من الهَوى والفَظاظة

« لو أنّا كلّما أخطأ إمامٌ في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قُمْنا عليه، وبدّعناهُ، وهجرناهُ، لما سَلِمَ معنا لا ابنُ نصرٍ ولا ابنُ مندة، ولا مَنْ هو أكبرُ منهما، والله هو هادي الخَلْقِ إلى الحقِّ، وهو أرحمُ الرّاحمين، فنعوذُ بالله من الهوى والفَظاظة .

قال أبو محمّد بن حزمٍ في بعض تواليفه : أعلمُ النّاسِ مَن كان أجمعَهُم للسُّنن ، وأضبطَهُم لها ، وأذْكَرَهُم لمعانيها ، وأدراهُم بصحّتها ، وبما أجمعَ النّاسُ عليه ممّا اختلفُوا فيه .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٣/٥٢٥ .

قال : وما نعلمُ هذه الصِّفةَ ـ بعد الصّحابة ـ أتمَّ منها في محمّد بن نصرٍ المروزي ، فلو قال قائلٌ : ليس لرسُول الله ﷺ حديثٌ ولا لأصحابه إلاّ وهو عند محمّد بن نصرٍ ، لَمّا أبعدَ عن الصِّدْقِ .

قلتُ :

هذه السَّعَةُ والإحاطةُ ما ادّعاها ابنُ حزمٍ لابن نصرٍ إلاّ بعد إمعان النّظر في جماعة تصانيف لابن نصرٍ ، ويمكنُ ادِّعاءُ ذلك لمثل أحمد بن حنبلٍ ونُظرائه ، والله أعلم»(١) .

[٩٠] قد جعلَ الله لكلِّ شيءٍ قَدْراً

« مَن بالغَ في الجُوع كما يفعلُه الرُّهبانُ ، ورفضَ سائرَ الدُّنيا ، ومألُوفات النّفس ، من الغذاء والنّوم والأهل ، فقد عرّض نفسَه لبلاءٍ عَريضٍ ، وربُّما خُولط في عقلِه ، وفاتهُ بذلك كثيرٌ من الحنيفيّة السَّمْحَة ، وقد جعلَ الله لكلِّ شيءٍ قَدْراً ، والسّعادةُ في مُتابعة السُّنن ، فَزِن الأمورَ بالعَدْلِ ، وصُم وأفطرْ ، ونَمْ وقُمْ ، والزم الورعَ في القُوت ، وارضَ بما قسمَ الله لك ، واصمُت إلاّ من خيرٍ »(٢) .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٤/٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٤/٦٩ ـ ٧٠ .

[٩١] قَلّ القَوّالُ بالحقّ

« قراءةُ الأَسْبَاع التي في المساجد وقتَ صلوات النّـاس فيهـا تشـويشٌ بَيِّنٌ على المُصلِّين ، هذا إذا قرؤُوا قراءةً جائزةً مُرتَّلةً ، فإن كـانت قراءتُهـم دَمْجاً وهَذْرَمَةً وبَلْعاً للكلمات ، فهذا حـرامٌ مُكَـرَّرٌ ، فقـد ـ وا لله ـ عـمّ الفسادُ ، وظهرت البدعُ ، وخفيت السُّنَنُ ، وقـلّ القَـوّالُ بـالحقّ ، بـل لـو نطقَ العالِمُ بصـدق وإخـلاصٍ لعارضَـهُ عـدّةٌ مِـن عُلمـاء الوقـت ، ولمقتـوه وجهّلوه ، فلا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ با لله »[1] .

[٩٢] المحدِّثُون والفقهاءُ

« كان المحدِّثُون أئمّةً عالِمين بالفقه أيضاً ، وكان أهـلُ الـرّأي بُصَـراءَ بالحديث ، قد رحلُوا في طلبه ، وتقدّمُوا في معرفتِه . وأمّا اليومَ فالمحدِّثُ قد قَنِعَ بالسِّكّةِ والخُطْبة ، فلا يفقَه ولا يحفَظ ، كما أنّ الفقيهَ قد تَشَبّثَ بفقـهٍ لا يُجيدُ معرفتَهُ ، ولا يدري ما هو الحديثُ ، بل الموضـوعُ والثّابتُ عنـده سواء ، بل قد يُعارِضُ ما في الصّحيح بأحاديث ساقطةٍ ، ويُكابِرُ بأنّه أصحُّ وأقوى ، نسألُ ا للهَ العافيةَ »[2] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٤/١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٤/٢٣٦ - ٢٣٧ .

[٩٣] ما أحسنَ التّقيُّد بمُتابعة السُّنن والعلم

قيل : إنّ ابن عطا فقد عقلَهُ ثمانيةَ عشرَ عاماً ، ثمّ ثابَ إليه عقلُه .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : ثبّتَ الله علينا عقولَنا وإيمانَنا ، فمَن تسبّب في زوال عقلِه بجُوعٍ ، ورياضةٍ صَعْبَةٍ ، وخَلْوَةٍ ، فقد عَصى وأثِمَ ، وضاهَى مَنْ أزالَ عقلَه بعضَ يومٍ بسُكْرٍ ، فما أحسنَ التّقيُّد بمُتابعة السُّنن والعلم »[1] .

[٩٤] هذا عَيْنُ الزّندقة

قال السُّلميّ : « حُكي عن الحلاّج أنّه رُؤي واقفاً في الموقف ، والنّاسُ في الدُّعاء وهو يقول : أُنَزِّهُكَ عمّا قَرَفَكَ به عبادُك ، وأبرأُ إليك ممّا وحّدك به الموحِّدُون » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هذا عَيْنُ الزّندقة ، فإنّه تبرّأ ممّا وحّد الله به الموحِّدُون الذين هُم الصّحابةُ والتّابعُون وسائرُ الأمّة ، فهل وحّدُوه تعالى إلاّ بكلمة الإخلاص التي قال رسولُ الله ﷺ : مَن قالها من قلبه فقد حَرُمَ مالُه ودمُه. وهي : شهادةُ أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّداً رسولُ الله ﷺ . فإذا برىء

(١) سير أعلام النّبلاء ١٤/٢٥٦ .

الصُّوفيُّ منها فهو ملعُونٌ زنديقٌ، وهو صُوفِيُّ الزِّيِّ والظّاهر، متسترٌ بالنَّسَبِ إلى العارفين، وفي الباطن فهو مِن صُوفيّة الفلاسفة أعداء الرّسُل، كما كان جماعةٌ في أيّام النّبيّ ﷺ منتسبُون إلى صُحبتِه وإلى ملّتِه ، وهُم في الباطن من مَرَدَةِ المُنافقين، قد لا يعرفُهم نبيُّ الله ﷺ ولا يعلمُ بهم، قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ**﴾(١)، فإذا جاز على سيّد البشر أن لا يعلمَ ببعض المنافقين وهم معه في المدينة سنواتٍ، فبالأولى أن يخفى حالُ جماعةٍ من المنافقين الفارغين عن دِين الإسلام بعده عليه السّلام على العلماء من أمّتِه. فما ينبغي لك يا فقيهُ أن تُبادر إلى تكفير المسلم إلاّ ببرهان قطعيّ، كما لا يسُوغُ لك أن تعتقدَ العِرْفانَ والولايةَ فيمن قد تبرهنَ زَغَلُه، وانتهكَ باطنُه وزندقتُه، فلا هذا ولا هذا، بل العَدْلُ أنّ من رآهُ المسلمُون صالِحاً مُحسناً فهو كذلك، لأنّهم شهداءُ الله في أرضِه، إذ الأمّةُ لا تجتمعُ على ضلالةٍ، وأنّ من رآهُ المسلمُون فاجراً أو منافِقاً أو مُبطلاً فهو كذلك، وأنّ من كان طائفةٌ من الأمّة تُضلِّلُه ، وطائفةٌ من الأمّة تُثني عليه وتُبَجِّلُه ، وطائفةٌ ثالثةٌ تقفُ فيه وتتورّعُ من الحَطِّ عليه ، فهو ممّن ينبغي أن يُعرضَ عنه ، وأن يُفوَّضَ أمرُه إلى الله ، وأن يُستغفرَ له في الجملة ، لأنّ إسلامَه أصليٌّ بيقينٍ، وضلالَه مشكوكٌ فيه ، فبهذا تستريحُ ويصفُو قلبُك من الغِلِّ للمؤمنين.

ثمّ اعلم أنّ أهل القبلة كلَّهُم، مؤمنَهم وفاسقَهم، وسُنِّيَهُم ومُبتدعَهُم ـ سوى الصّحابة ـ لم يُجمعُوا على مسلمٍ بأنّه سعيدٌ ناجٍ، ولم يُجمعُوا على

---

(١) التّوبة : الآية ١٠١ .

مسلمٍ بأنّه شقيٌّ هالكٌ ، فهذا الصِّدِّيقُ فَرْدُ الأمّة ، قد علمتَ تفرُّقَهُم فيه، وكذلك عمر، وكذلك عثمان، وكذلك عليٌّ، وكذلك ابنُ الزّبير، وكذلك الحجّاجُ، وكذلك المأمونُ، وكذلك بِشْرٌ المرّيسيّ، وكذلك أحمدُ ابن حنبلٍ، والشّافعي، والبخاري، والنّسائي، وهَلُمَّ جَراً من الأعيان في الخير والشّرّ إلى يومك هذا، فما من إمامٍ كاملٍ في الخير إلاّ وثَمَّ أناسٌ من جهلة المسلمين ومُبتدعيهم يذمُّونه ويحطُّون عليه، وما من رأسٍ في البدعة والتّجهُّم والرّفض إلاّ وله أناسٌ ينتصرُون له، ويذبُّون عنه، ويَدينُون بقوله بهوىً وجهلٍ، وإنّما العبرةُ بقول جُمهور الأمّة الخالين من الهوى والجهل، المتّصفين بالورع والعلم .

فتدبّر - يا عبدَ الله - نِحْلَةَ الحَلاّج الذي هو من رؤُوس القرامطة، ودُعاة الزّندقة، وأنصف وتورّع، واتّق ذلك[1]، وحاسِبْ نفسَك، فإن تبرهنَ لك أنّ شمائلَ هذا المرءِ شمائلُ عدوٍّ للإسلام، محبٌّ للرّئاسة، حريصٍ على الظُّهور بباطلٍ وبحقٍّ، فتبرّأ من نِحْلَتِه، وإن تبرهنَ لك والعِياذُ بالله أنّه كان - والحالةُ هذه - مُحقّاً هادياً مهديّاً - فجدِّد إسلامَك، واستغث بربِّك أن يُوفِّقَك للحقِّ، وأن يُثبِّتَ قلبَك على دِينه، فإنّما الهُدى نُورٌ يقذِفُه الله في قلب عبدِه المسلم، ولا قوّةَ إلاّ بالله، وإن شككتَ ولم تعرف حقيقتَهُ، وتبرّأتَ ممّا رُمي به، أرَحْتَ نفسَك، ولم يسألك الله عنه أصلاً »[2] .

(١) كذا في المطبوع ، ولعلّها : واتّق ربَّك .

(٢) سير أعلام النّبلاء ١٤/٣٤٢ - ٣٤٥ .

[٩٥] المقلّدُ قاصِرٌ في التّمكُّن من العلم

قال الشّيخُ محيي الدِّين النّووي : « لابن المنذر من التّحقيق في كتبه ما لا يُقارِبُه فيه أحدٌ ، وهو في نهايةٍ من التّمكُّن من معرفة الحديث ، وله اختيارٌ فلا يتقيّدُ في الاختيار بمذهبٍ بعينه، بل يدورُ مع ظهُور الدّليل » .
قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :
« قلتُ : ما يتقيّدُ بمذهبٍ واحدٍ إلاّ مَنْ هو قاصِرٌ في التّمكُّن من العلم كأكثر علماء زماننا ، أو مَنْ هو متعصِّبٌ ، وهذا الإمامُ فهو من حملة الحُجّة ، جارٍ في مضمار ابن جريرٍ ، وابن سُريجٍ ، وتلك الحَلَبَة رحمهُم الله »[1] .

[٩٦] لو عملُوا بيسير ما عرفُوا لأفلحُوا

قال محمّدُ بن الفضل واعِظُ بَلْخ : « ذهابُ الإسلام من أربعةٍ : لا يعملُون بما يعلمُون ، ويعملُون بما لا يعلمُون ، ولا يتعلّمُون ما لا يعلمُون، ويمنعُون النّاسَ من العلم » .
قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :
« قلتُ : هذه نعوتُ رؤوس العرب والتُّرْك، وخَلْقٍ من جهلة العامّة، فلو عملُوا بيسير ما عرفُوا لأفلحُوا ، ولو وقفُوا عن العمل بالبدع لوُفِّقُوا ،

(١) سير أعلام النّبلاء ١٤/٤٩١ .

ولو فتّشُوا عن دينهم وسألُوا أهلَ الذّكْرِ ـ لا أهل الحِيَلِ والمكرِ ـ لسَعِدُوا ، بل يُعرِضُون عن التّعلُّم تِيهاً وكسلاً، فواحدةٌ من هذه الخِلال مُرْدِيَةٌ، فكيف بها إذا اجتمعتْ ؟ ! فما ظنُّك إذا انضمّ إليها كِبْرٌ وفجُورٌ، وإجرامٌ وتَجَهْرُمٌ على الله ؟ ! نسألُ الله العافيةَ »[1] .

[٩٧] مِن صفات العبد الصّادق

« الصّادقُ يُقِلُّ من الكلام ، والأكل ، والنّوم ، والمُخالطة ، ويكثرُ الأورادَ، والتّواضعَ، وذِكْرَ الموتِ، وقولَ: لا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ با لله »[2].

[٩٨] هكذا فلتكُن الهِمَمُ

قال ابنُ حبّان في أثناء كتاب الأنواع : « لعلّنا قد كتبنا عن أكثر من ألفَيْ شيخٍ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : كذا فلتكُن الهِمَمُ ، هذا مع ما كان عليه من الفقه ، والعربيّة ، والفضائل الباهرة ، وكثرة التّصانيف »[3].

(١) سير أعلام النّبلاء ١٤/٥٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ١٤/٥٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ١٦/٩٤ .

[٩٩] هذه مُكابرةٌ

قال ابنُ حَيُّويه : « جئتُ إلى شيخٍ عنده الموطَّأُ ، فكان يُقرأُ عليه وهو يتحدّثُ ، فلمّا فرغَ قلتُ : أيُّها الشّيخُ : يُقرأُ عليك وأنت تتحدّثُ؟! فقال: قد كنتُ أسمعُ ، قال : فلم أَعُدْ إليه » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : كذا شيوخُ الحديث اليوم ، إن لم ينعسُوا تحدّثُوا ، وإن عُوتبُوا قالوا : قد كُنّا نسمعُ ، وهذه مكابرةٌ »(١).

[١٠٠] الكمالُ عزيزٌ

« الكمالُ عزيزٌ ، وإنّما يُمدَحُ العالِمُ بكثرة ما لَهُ من الفضائل ، فلا تُدْفَنُ المحاسنُ لورطةٍ ، ولعلّه رجع عنها ، وقد يُغفَرُ باستفراغه الوُسْعَ في طلب الحقّ ، ولا قوّة إلاّ با لله »(٢).

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٦/١٦٠ ـ ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه ١٦/٢٨٥ .

[١٠١] بُعْدُ المغاربة عن علم الكلام

« كانت علماءُ المغرب لا يدخلُون في الكلام، بل يُتقنُون الفقهَ أو الحديثَ أو العربيّةَ، ولا يخوضون في المعقولات، وعلى ذلك كان الأصيليُّ، وأبو الوليد بن الفَرَضِيّ، وأبو عمر الطّلمنكيّ، ومكّيٌّ القيسيُّ، وأبو عمرٍو الدّاني ، وأبو عمر بن عبد البرّ ، والعلماء »(١) .

[١٠٢] خَلَواتٌ مبتدَعةٌ

قيل : « إنّ أبا محمّدٍ جعفر بن محمّد الأبهريَّ الزّاهدَ عمل له خَلْوَةً فبقي خمسين يوماً لا يأكلُ شيئاً » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قد قُلْنا : إنّ هذا الجُوعَ المُفْرِطَ لا يسُوغ، فإذا كان سَرْدُ الصّيام والوصالُ قد نُهي عنهما فما الظّنُّ ؟ وقد قال نبيُّنا ﷺ : اللّهمّ إنّي أعُوذ بك من الجُوع فإنّه بئس الضّجيع. ثمّ قلَّ من عمل هذه الخَلَواتِ المبتدعة إلاّ واضطربَ، وفسدَ عقلُه، وجفَّ دماغُه، ورأى مرأىً، وسمع خطاباً لا وجودَ له في الخارج؛ فإن كان مُتمكّناً من العلم والإيمان، فلعلّه ينجُو بذلك مِنْ تَزَلْزُلِ توحيدِهِ، وإن كان جاهِلاً بالسُّنَنِ وبقواعد الإيمان، تزلزلَ

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٦/٥٥٧ .

توحيدُه، وطمع فيه الشّيطانُ، وادّعى الوصولَ، وبقي على مَزَلَّةِ قَدَمٍ، وربُّما تزندقَ وقال : أنا هُوَ ، نعُوذُ با لله من النّفس الأمّارة ومن الهوى، ونسألُ ا لله أن يحفظَ علينا إيمانَنا ، آمين »[1] .

[١٠٣] كيف يطيرُ ولّما يُرَيِّشْ ؟ !

« مَن بلغ رتبةَ الاجتهاد، وشهد له بذلك عدّةٌ من الأئمّة، لم يَسُغْ له أن يُقلِّ، كما أنّ الفقيهَ المُبتدئَ والعامِّيَّ الذي يحفظُ القرآنَ أو كثيراً منه لا يَسُوغُ له الاجتهادُ أبداً، فكيف يجتهدُ ؟ وما الذي يقول ؟ وعَلامَ يَبْني ؟ وكيف يطيرُ ولّما يُرَيِّشْ ؟ والقسمُ الثّالثُ : الفقيهُ المنتهي، اليَقِظ الفَهِم المحدِّث، الذي قد حفظَ مختصراً في الفروع، وكتاباً في قواعد الأصُول، وقرأ النّحوَ، وشارك في الفضائل، مع حفظه لكتاب ا لله، وتشاغُله بتفسيره، وقوّة مناظرتِه، فهذه رتبةُ مَنْ بلغَ الاجتهادَ المُقيَّدَ، وتأهّلَ للنّظر في دلائل الأئمّة، فمتى وضح له الحقُّ في مسألةٍ، وثبتَ فيها النّصُّ، وعمل بها أحدُ الأئمّة الأعلام كأبي حنيفة مثلاً، أو كمالكٍ، أو الثّوري، أو الأوزاعي، أو الشّافعي، وأبي عبيدٍ، وأحمد، وإسحاق، فَلْيَتّبِعْ فيها الحقَّ، ولا يَسْلُك الرُّخَص، ولْيَتَورَّعْ، ولا يَسَعُهُ فيها بعد قيام الحُجّة عليه تقليدٌ، فإن خاف ممّن يُشَغِّب عليه من الفقهاء فَلْيَتَكَتَّمْ بها ولا يتراءى بفعلها، فربّما أعجبتهُ نفسُه، وأحبّ الظّهُور فيُعاقَبُ، ويدخلُ عليه الدّاخِلُ من

---

(١) سير أعلام النّبلاء ١٧/٥٧٦ ـ ٥٧٧ .

نفسِه، فكم من رجُلٍ نطقَ بالحقِّ، وأمر بالمعروف، فيُسَلِّطُ الله عليه مَنْ يُؤذيه لسُوء قصدِهن وحُبِّه للرّئاسة الدِّينيّة .

فهذا داءٌ خَفِيٌّ سارٍ في نفُوس الفقهاء، كما أنّه داءٌ سارٍ في نفوس المُنفقين من الأغنياء وأرباب الوقُوف والتُّرب المُزخرفة »[١] .

[١٠٤] أنّى يُنْصَرُون وكيف لا يُخْذَلُون ؟

« داءٌ خَفِيٌّ يَسْري في نفوس الجُند والأمراء والمُجاهدين، فتراهُم يلتقُون العدوَّ، ويصطدمُ الجَمْعان، وفي نفُوس المجاهدين مُخَبَّآتٌ وكَمائنُ من الاختيال، وإظهارِ الشّجاعة ليُقال، والعَجَبِ، ولُبْسِ القَراقلِ[٢] المُذهّبة، والخُوذ المزخرفة، والعُدَدِ المُحَلاّة، على نفُوسٍ متكبِّرةٍ، وفُرْسانٍ مُتَجَبِّرَةٍ، وينضافُ إلى ذلك إخْلالٌ بالصّلاة، وظُلْمٌ للرّعيّة، وشُرْبٌ للمُسْكِر، فأنّى يُنْصَرُون وكيف لا يُخْذَلُون ؟ اللّهُمّ فانْصُرْ دينَك، ووفِّق عبادَك »[٣] .

❁ ❁ ❁

(١) سير أعلام النّبلاء ١٨/١٩١ - ١٩٢ .

(٢) ضربٌ من الثّياب .

(٣) المصدر نفسه ١٨/١٩١ - ١٩٢ .

[١٠٥] طلبُ العلمِ للعمل

« مَنْ طلبَ العلمَ للعمـل كَسَرَهُ العلـمُ ، وبكـى علـى نفسِـه ، ومَـنْ طلبَ العلمَ للمدارس والإفتاء، والفَخْر والرّيـاء، تَحـامَقَ واختـال، وازدرى بالنّاس، وأهلكهُ العُجْبُ ، ومَقَتَتْهُ الأنفـسُ ، ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾(١) أي : دسَّسها بالفجُور والمعصية »(٢) .

[١٠٦] رسائلُ إخوان الصّفا داءٌ عضالٌ

« قد ألّفَ الرّجـل - يعني الغزالي - في ذمّ الفلاسـفة كتـابَ التّهـافُت، وكشفَ عَوارَهُم، ووافقهُم في مواضع ظنّـاً منـه أنّ ذلـك حـقٌ، أو مُوافِـقٌ للمِلّة، ولم يكن لـه علـمٌ بالآثـار، ولا خـبرةٌ بالسُّـنن النّبويّـة القاضيـة علـى العقل، وحُبِّبَ إليه إدْمانُ النّظر في كتاب رسـائل إخـوان الصّفـا، وهـو داءٌ عُضالٌ، وجَرَبٌ مُرْدٍ، وسُمٌّ قَتّالٌ، ولولا أنّ أبا حـامدٍ مـن كبـار الأذكيـاء، وخيار المُخلصين ، لتَلِفَ .

فالحِذَارَ الحِذَارَ من هذه الكتب، واهربُوا بدينكـم مـن شُـبَه الأوائـل، وإلاّ وقعتُم في الحَـيْرَة، فمـن رامَ النّجـاةَ والفـوزَ فليـلزم العبوديّـة، وليُدمـن

(١) الشّمس : الآية ٩ - ١٠ .

(٢) سير أعلام النّبلاء ١٨/١٩٢ .

الاستغاثةَ با لله، وليبتهل إلى مولاهُ في الثّبات على الإسلام، وأن يُتوفّى على إيمان الصّحابة، وسادة التّابعين، وا للهُ الموفّقُ، فبحُسْنِ قصد العالِم يغفرُ لـه، وينجُو إن شاء ا لله »[1] .

[١٠٧] إحياء علوم الدِّين للغزالي في نظر الذّهبيّ

« أمّا الإحياءُ ففيه من الأحاديث الباطلة جملةٌ ، وفيه خيرٌ كثيرٌ ، لـولا ما فيه من آدابٍ ورسُومٍ وزُهْـدٍ مـن طرائـق الحُكمـاء ومُنحـرفي الصُّوفيّـة، نسألُ ا للهَ علماً نافعاً »[2] .

[١٠٨] العلمُ النّافع

« تَدْري ما العلمُ النّافعُ ؟ هو ما نزلَ به القرآنُ، وفسّـرهُ الرّسـولُ ﷺ قولاً وفعلاً، و لم يأتِ نهيٌ عنه، قال عليه السّلام: مَـنْ رغبَ عـن سُنّتي ، فليـس منّـي . فعليـك يـا أخـي بتدبُّـر كتـاب ا لله، وبإدمـان النّظـر في الصّحيحين، وسنن النّسـائي، وريـاض النّـواوي وأذكـاره، تُفلـح وتنجـح، وإيّاك وآراءَ عُبّادِ الفلاسفة، ووظـائفَ أهـل الرّياضـات، وجُـوع الرّهبـان،

(١) سير أعلام النّبلاء ١٨/٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٩/٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

وخطابَ طَيْشِ رؤوس أصحاب الخَلَوات، فكلُّ الخير في متابعة الحنيفيّة السَّمْحَة، فواغوثاهُ با لله ، اللّهمّ اهدنا إلى صراطك المستقيم »[١] .

[١٠٩] ما أشكلَ عليك فرُدَّه إلى ا لله ورسُوله

« ينبغي للمسلم أن يستعيذ مِن الفتن، ولا يشغب بذِكْرِ غريب المذاهب لا في الأصُول ولا في الفرُوع، فما رأيتُ الحركةَ في ذلك تُحَصِّلُ خيراً، بل تُثيرُ شرّاً وعداوةً، ومقتاً للصُّلحاء والعُبّاد من الفريقين، فتمسَّك بالسُّنّة، والزَمْ الصّمتَ، ولا تَخُضْ فيما لا يَعنيك، وما أشْكَلَ عليك فرُدَّهُ إلى ا لله ورسُوله، وقِفْ وقُلْ : ا للهُ ورسُولُه أعلمُ »[٢] .

[١١٠] كتاب الشِّفا في رأي الحافظ الذّهبي

« تواليفُه ـ أي القاضي عياض ـ نفيسةٌ، وأجلُّها وأشرفُها كتابُ الشِّفا لولا ما قد حَشاهُ بالأحاديث المُفتعلة، عَمَلَ إمامٍ لا نَقْدَ له في فنِّ الحديث ولا ذَوْقَ، وا للهُ يُثيبُه على حُسْن قَصْدِه، وينفَعُ بشِفائه، وقد فَعَلَ، وكذا فيه من التّأويلات البعيدة ألوانٌ، ونبيُّنا صلواتُ ا لله عليه وسلامُه غَنِيٌّ

(١) سير أعلام النّبلاء ١٩/٣٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٩/١٤٢ .

بِمِدْحة التّنزيل عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحـاد، وبالآحـاد النّظيفة الأسانيدِ عن الواهيات .

فلماذا يا قـومُ نتشبَّعُ بالموضوعـات، فيتطـرَّقُ إلينـا مقـالُ ذوي الغِـلِّ والحسد، ولكن مَنْ لا يعلمُ معذورٌ، فعليك يـا أخـي بكتـاب دلائـل النّبـوّة للبيهقي فإنّه شفاءٌ لما في الصّدُور ، وهدىً ونُور »[1] .

[١١١] دِماغٌ طاشَ وفاشَ وبقيَ قَرْعةً !

قال ابنُ هلالة : « جلستُ عنده[2] في الخَلْوَة مِراراً، وشاهدتُ أمـوراً عجيبةً، وسمعتُ مَنْ يُخاطبُني بأشياءَ حسنةٍ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : لا وجودَ لِمَنْ خاطبك في خَلْوَتِكَ مع جُوعك المُفـرط، بـل هو سماعُ كلامٍ في الدِّماغ الـذي قـد طـاشَ وفـاشَ وبقـي قَرْعَـةً كمـا يَتِـمُّ للمُبَرْسَمِ والمغمُور بالحُمّى والمجنون، فاجزمْ بهذا ، واعبُد الله بالسُّنن الثّابتة تفلـح »[3] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٢١٦/١٩ .

(٢) يعني : أبا الجنّاب أحمد بن عمر الخُوارزميّ .

(٣) المصدر نفسه ١١٢/٢٢ .

[١١٢] صريحُ الاتّحاد في تائيّة ابن الفارض

« إن لم يكُن في تلك القصيدة صريحُ الاتّحاد الذي لا حيلةَ في وجُودِه ، فما في العالَم زندقةٌ ولا ضَلالٌ .

اللّهمّ ألهمنا التّقوى ، وأعذنا من الهَوى ، فيا أئمّةَ الدِّين ألا تغضبُون لله؟ ! فلا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ با لله »[١] .

[١١٣] لن يُفلح مَن تعانى سرقةَ السّماع

« أمّا سرقةُ السّماع ، وادِّعاءُ ما لم يَسمع من الكتب والأجزاء، فهذا كذبٌ مُجَرَّدٌ ، ليس من الكذب على الرّسول ﷺ ، بل من الكذب على الشّيوخ ، ولن يُفْلِحَ من تعاناهُ .

وقَلَّ من سترَ ا للهُ عليه منهم ؛ فمنهم مَنْ يفتضحُ في حياتِه، ومنهم من يفتضِحُ بعد وفاتِه، فنسألُ ا للهُ السِّتْرَ والعفوَ »[٢].

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٣٦٨/٢٢ .

(٢) الموقظة ص ٦٠ .

[١١٤] مِنْ آداب المحدِّث

« تصحيحُ النّيّةِ من طالب العلم مُتَعَيِّنٌ، فمن طلبَ الحديثَ للمُكاثرة أو المُفاخرة ، أو ليرويَ ، أو ليتناول الوظائفَ ، أو ليُثْنى عليه وعلى معرفتِه، فقد خَسِرَ. وإن طلبهُ لله ، وللعمل به ، وللقُرْبَة بكثرة الصّلاة على نبيِّه ﷺ ، ولنفع النّاس ، فقد فازَ. وإن كانت النيّةُ ممزوجةً بالأمرين فالحكمُ للغالب. وإن كان طَلَبَهُ لفَرْطِ المحبّة فيه، مع قطع النّظر عن الأجر وعن بني آدم، فهذا كثيراً ما يعتري طلبةَ العلُوم، فلعلّ النيّةَ أن يرزُقها الله بَعْدُ. وأيضاً فمن طلبَ العلمَ للآخرة كساهُ العلمُ خشيةً لله، واستكانَ وتواضع، ومن طلبه للدُّنيا تكبّر به وتكثّر وتجبّر، وازدرى بالمسلمين العامّة، وكان عاقبةُ أمرِه إلى سِفالٍ وحَقارةٍ .

فليحتسب المحدِّثُ بحديثه رجاءَ الدُّخول في قوله ﷺ : نضّر الله امرءاً سمِع مقالتي فوعاها، ثمّ أدّاها إلى من لم يسمعها .

وليبذُل نفسَهُ للطّلبة الأخيار، لا سيما إذا تفرّد ، وليمتنع مع الهَرَم وتغيُّر الذِّهْن، وليعهد إلى أهله وإخوانه حالَ صحّته: أنّكم متى رأيتمُوني تغيّرتُ فامنعُوني من الرّواية .

فمن تغيّر بسُوء حفظٍ وله أحاديثُ معدودةٌ، قد أتقنَ روايتَها، فلا بأسَ بتحديثه بها زمنَ تغيُّره .

ولا بأسَ بأن يُجيزَ مرويّاته حالَ تغيُّره، فإنّ أصولَه مضبوطةٌ ما تغيّرتْ، وهو فقدَ وَعيَ ما أجازَ. فإن اختلطَ وخَرِفَ امتنع من أخذ

الإجازة منه .

ومن الأدب أن لا يُحَدِّثَ مع وجود مَنْ هو أولى منه لسِنِّه وإتقانِه. وأن لا يحدِّثَ بشيءٍ يرويه غيرُه أعلى منه، وأن لا يَغُشَّ المُبتدئين، بل يَدُلَّهُمْ على المهمّ، فالدِّينُ النّصيحةُ .

فإن دلّهُم على مُعَمَّرٍ عامِّيٍّ، وعلمَ قصورَهم في إقامة مرويّات العامّيّ، نصحهُم ودلَّهُم على عارفٍ يسمعُون بقراءته، أو حضرَ مع العامّيّ وروى بنزولٍ ، جمعاً بين الفوائد .

ورُوي أنّ مالكاً رحمه الله كان يغتسلُ للتّحديث، ويتبخّرُ ويتطيّبُ، ويلبسُ ثيابَه الحسنة، ويلزمُ الوقارَ والسّكينةَ، ويَزْبُرُ مَنْ يرفعُ صوتَهُ ، ويُرَتِّلُ الحديثَ .

وقد تسمّحَ النّاسُ في هذه الأعصار بالإسراع المذمُوم، الذي يخفى معه بعضُ الألفاظ، والسّماعُ هكذا لا مِيزةَ له على الإجازة، بل الإجازةُ صِدْقٌ، وقولُك: سمعتُ أو قرأتُ هذا الجُزْءَ كلَّهُ ـ مع التَّمْتَمَةِ ودَمْجِ بعض الكلمات ـ كذبٌ . وقد قال النّسائيُّ في عدّة أماكن من صحيحه[1]: وذَكَرَ كلمةً معناها كذا وكذا .

وكان الحُفّاظُ يعقدُون مجالسَ للإملاء، وهذا قد عُدِمَ اليوم، والسّماعُ بالإملاء يكونُ مُحَقّقاً ببيان الألفاظ للمُسمِعِ والسّامع .

وليجتنب روايةَ المُشكلات ممّا لا تحملُه قلوبُ العامّة، فإن روى ذلك فليكُن في مجالسَ خاصّةٍ .

---

(١) يعني : من سُنَنِه .

ويحرمُ عليه روايةَ الموضُـوع ، وروايـةَ المَطْرُوح ، إلاّ أن يُبيِّنَـهُ للنّـاس ليَحْـذَرُوه »(١) .

[١١٥] شكوكٌ ووساوسُ لا تَـزُول إلاّ بسُؤال أهل العِلْـم

« مَنْ مرض قلبُه بشكُوكٍ ووسـاوسَ لا تَزُولُ إلاّ بسُؤال أهـل العلـم فليتعلَّمْ من الحقِّ ما يَدْفَعُ ذلك عنه، ولا يُمْعِـن، وأكـبرُ أدويتـه الافتقـارُ إلى الله والاستغاثةُ به ، فليُكرِّر هذا الدُّعاء ، وليُكثرْ منه :

اللّهُمّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، مُنزل التّوراة والإنجيل، اهدني لما اختُلف فيه مِن الحقِّ بإذنك، إنّك تَهْدِي مَنْ تشاءُ إلى صراطٍ مستقيم.

ولْيُجَدِّد التّوبةَ والاستغفار، وليسأل الله تعالى اليقينَ والعافيةَ ؛ فإنّـه - إن شاء الله - لا ينقضـي عنـه أيّـامٌ إلاّ وقـد عُـوفي ـ إن شـاء الله ـ مـن مرضه، وسَلِمَ له توحيدُه، واستراحَ مِن الدُّخُول في علـم الكـلام الـذي - والله العظيم - تعلّمه لدَرْءِ دائه مُوَلِّدٌ له أدْواءَ عديدةً رُبَّمـا قَتَلَتْهُ ! بـل لا تقعُ كثرةَ الشُّكُوك والشُّبه إلاّ لمن اشتغلَ بعلمِ الكلام والحكمة .

فدواءُ هذه : رميُ هذه الأشـياء المُهْلِكَة، والإعـراضُ عنهـا بالكُليّـة، والإقْبَالُ على كثرة التِّلاوة والصّلاة والدُّعاء والخَوْف؛ فأنا الزَّعيـمُ لـه بـأن يَخلُص له توحيدُه ، ويُعافيه مَوْلاَهُ .

---

(١) الموقظة ص ٦٥ - ٦٧ .

وإن لم يستعمل هذا الدّواء، وداوى الدّاءَ بالدّاءِ، وغَرِقَ في أودية الآراء والعقُول، فقد يَسْلَمُ وقد يَهْلِكُ، وقد يتعلَّلُ إلى أن يموت »(١) .

[١١٦] على الوالدين تعليمُ الأولاد

« على الوالدين تعليمُ الأولاد الأطفال أوّلاً فأوّلاً ما يجبُ اجتنابُه، ويلزمُ فعلُه واعتقادُه، فيُذاكِرُ الأبُ ولدَه شأنَ التّوحيد وأنّ الله ربُّ العالمين، وخالقُ الأشياء، ورازقُ الأحياء، وأنّ محمّداً نبيُّه، وأنّ الإسلامَ دينُه حتّى يألفَهُ الصّبيُّ ويرسُخ في طَبْعِه .

فإذا ميّز عَلَّمَهُ الوضُوءَ والصّلاةَ، وحذّرَهُ الزّنا والسّرقةَ والكذبَ وأكلَ الحرام والدّم والميتة ونحو ذلك، وأنّ ببلُوغه يَجْرِي عليه القلمُ »(٢) .

[١١٧] أقسامُ العلوم

« المستحبُّ طلبُ عِلْمِ الفقه والإمعانُ فيه، ومعرفةُ أقوال الصّحابة والتّابعين، وحُجَجِهم مِن الكتاب والسُّنّة الصّحيحة، ونحو ذلك، وبعضُه آكَدُ من بعضٍ .

---

(١) مسائلُ في طلب العلم وأقسامه ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٤ .

ومعرفةُ التّفسير ، وما لابُدَّ منه من معرفة العربيّة ولُغة القرآن ولغة الحديث والفقه، ومُهمّات الطبّ، وما صحَّ من الحديث النبويّ وما حَسُنَ، وما ثبتَ من القراءات وغير ذلك .

ومعرفةُ سيرة النّبيّ ﷺ ومَغازيه، وسيرة الخُلفاء الرّاشدين، ومعرفةُ رجال الحديث، وجَرْحِهم وتعديلهم، إلى غير ذلك ممّا يتعلَّقُ بهذه العلُوم، إلى أن ينتقلَ العالِمُ إلى المُباح من معرفة تاريخ العالَم واللُّغات والشِّعْرِ المُباح.

بل كلُّ علمٍ من العلُوم الإسلاميّة ينقسمُ إلى الأقسام الخمسة، وليس من العلُوم الإسلاميّة ما كلُّه حقٌّ وتعلُّمُه مُتَعَيِّنٌ غيرُ الكتاب العزيز، فإنّك تنتقِلُ بعدَهُ إلى علم حِفْظِ متُون حديث الصّحيحين والسُّنن الأربعة والموطّأ.

فمنها ما هو فَرْضٌ لا يَسَعُ المرءَ جهلُه، ومنها ما يُنْدَبُ إلى معرفتِه، ولا ينبغي للمرء جهلُه كعدّة أحاديث في الإيمان والطّهارة والصّلاة والزّكاة والحجّ والبيع والنِّكاح والحُدود والأطعمة، وبعضُها آكَدُ من بعضٍ، كما أنّ بعضَها يتعيَّنُ على الطّالب الذّكيّ .

ومنها ما هو مباحٌ كحديث أُمِّ زَرْعٍ، وحديث الإسرائيليّات من جامع الأصُول، ونحو ذلك ممّا يجري مجرى القصص،وبعضٌ أولى مِن بعضٍ.

وقسمٌ يكرهُ حفظُه لضعفه واطِّراحه كفضل قَزْوين، وحديث: أنا دارُ العلم، وحديث ابن عبّاسٍ في حفظ القرآن، وأنّ السِّجِلّ اسمُ كاتب الوحي، وما أشبهَ ذلك من الموضُوعات، فإنّ المقتصرَ على حفظ متُون هذه يتضرَّرُ بها، وتتعلَّقُ بذهنِه، ويعتقدُها ثابتةً، فلا ينبغي التّشاغلُ بحفظها إلاّ لمن يعرفُها ليُحَذِّرَ منها .

وقسمٌ يحرمُ حفظُ متونِه : كحديث عَرَقِ الخَيْل ، والجَمَلِ الأَوْرَقِ،

وهذه الأُكْذُوبات التي وُضعتْ في الصّفات، فلا ينبغي للمرءِ أن ينطقَ بها، وإن نطقَ فللتّحذير منها. فإذا كان هذا في الحديث النّبويّ فما الظنُّ بسائر العلُوم ؟!

وكذلك في تفسير القرآن : منه ما هو حَتْمٌ، ومنه ما هو مستحبٌّ، ومباحٌ، ومكروهٌ. فكثرةُ الأقوال في الآية - مع وهنِها وبُعدها من الصّواب الذي هو وجهٌ واحدٌ دلّ السِّياقُ والخطابُ العربيُّ عليه ـ مكروهٌ حفظُها والاعتمادُ عليها ، فإنّ القولَ الصّحيحَ يضيعُ بينها .

والمحرَّمُ : حفظُ تفسير القرامطة والإسماعيليّة وفلاسفة المتصوّفة الذين حرّفُوا كتابَ الله فوقَ تحريف اليهُود ممّا إذا سمعهُ المسلمُ بل عامّةُ الأمّة ببَداءَةِ عقُولهم علمُوا أنّ هذا التّحريفَ افتراءٌ على الله وتبديلٌ للتّنزيل، ولا أستجيزُ ذِكْرَ أمثلة ذلك فإنّه مِنْ أَسْمَجِ الباطل .

وهذا بابٌ واسِعٌ جدّاً يحتاجُ إليه الطّالبُ ليتعبَ فيما هو الحقُّ، وليهربَ ممّا هو محضُ الإفكِ الذي هو زَغَلُ الحديث والتّفسير والقراءات وأخبار الأُمم والسِّير والمغازي والمناقب وفقه جهلة الرّوافض .

وكذلك الشِّعْرُ هو كلامٌ كالكلام، فَحَسَنُهُ حَسَنٌ، وقبيحُه قبيحٌ، والتّوسُّعُ منه مباحٌ، إلاّ التّوسُّع في حفظ مثل شِعْرِ أبي نُواسٍ وابن الحجّاج[1] وابن الفارض فإنّه حرامٌ، قال في مثله نبيُّك ﷺ : لأن يمتلىءُ جَوْفُ أحدِكُم قَيْحاً حتّى يَرِيَهُ خيرٌ له من أن يمتلىء شِعْراً. وقال في المباح

(١) هو الحسين بن أحمد بن الحجّاج البغداديّ، شاعرٌ غلب عليه الهَزْلُ، توفّي سنة ٣٩١هـ، انظر وفيات الأعيان ١/١٥٧ .

والمستحبّ منه: إنّ من الشّعْرِ حكمةً، وقال في حقّ حَسّان إذ هجا المُشركين : اللّهُمّ أيِّدْهُ برُوح القُدُسِ »(١) .

[١١٨] لا تَنْسَ خبرَ النُّعمان بن بَشيرٍ في المُشتبهات

« اعلم أنّ الإكثارَ من العلُوم المستحبّة يُوقِعُ فيما لا استحبابَ فيه، كما أنّ الإكثارَ من المُباحات مُوقِعٌ في المكرُوهات، وكذا الإكثارُ من استعمال المكرُوه مُؤَدٍّ إلى مُقارفة المُحرَّم، فلا تَنْسَ خبرَ النُّعْمان بن بَشيرٍ في المُشتبهات، والعَدْلُ في ذلك : دَعْ ما يُريبُك إلى ما لا يُريبُك »(٢) .

[١١٩] طلبُ العلمِ لمجاراة العلماء ومماراة السُّفهاء خطرٌ عظيمٌ

« قد يكونُ طلبُ العلمِ الذي هو الواجبُ والمستحبُّ المتأكِّدُ مذمومٌ في حقٍّ بعض الرّجال، كمن طلبَ العلمَ ليُجاري به العلماء، ويُماري به السُّفهاء، وليصرفَ به الأعيُنَ إليه، أو ليُعَظَّم ويُقَدَّم، وينالَ من الدُّنيا المالَ والجاهَ والرِّفْعَةَ، فهذا أحدُ الثّلاثة الذين تُسَجَّرُ بهم النّارُ .

(١) مسائلُ في طلب العلم وأقسامه ص ٢٠٤ ـ ٢١٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٠ .

ولو كان أفنى هذا عُمُرَهُ في معرفة المُوسيقى والعَرُوض والكيمياء، ومعرفة علم الهندسة، أو كان شاعِراً مادِحاً للرُّؤساء لكان أخَفَّ لإثمِه وأبْعَدَ له من النّار. فإن انْضَافَ إلى هِمَّةِ هذا المُتَخَلِّف - نسألُ الله العَفْوَ - أن ينالَ بعلمِه مَرامَهُ من القضاء والنّظر والتّدريس، فيظلِمُ ويحكمُ بغير ما أنزلَ الله، ويأكلُ المالَ إسرافاً وبَغْياً، ولا يتأبّى عن مكرُوهٍ فقد تمّتْ خسارتُهُ .

فإذا انضافَ إلى المجمُوع أنّه مُتَلَطِّخٌ بالفواحش، فيا خَيْبَته ! فإن كَمَّلَ أوصافَهُ بجهلِه ونَقْصِ فضلِه، وأوهمَ أنّه قائمٌ على هذه العلُوم التي مِن أجلها قُدِّمَ وهو عَرِيٌّ من معرفتِها، جاهِلٌ بأكثرها أو بكثيرٍ منها فماذا أقول ؟!

بلى ! هُنا فصلٌ ينبغي مراعاتُه و هو :

مَنْ طلبَ العلمَ لينال به ما يقومُ به ويَقُوتُه بالمعروف وبأهلِه ليتفرّغ بذلك المغلُوم لتكملة المعارف، وليتوفّر على العلم، فهذا قد يُباحُ - إن شاء الله - لمن حَسُنَتْ نيّتُه، وغَلَبَتْ عليه محبّةُ العلم لذاتِه، فإنّ العلمَ قد يُحَبُّ محبّةً لا تُوصَفُ مع قَطْعِ نظر مُحِبِّ العلم عن الرّياسة والمال. ومِثْلُ هذا يُرْجَى له أن يَؤُولَ علمُه إلى الخير والنّفع به كما قال مجاهِدٌ وغيرُ واحدٍ: طلبنا هذا العلمَ وما لنا فيه نيّةٌ، ثمّ رزقَ الله النّيّةَ بَعْدُ. أي : طلبُوه بلا نيّةٍ دينيّةٍ ولا دُنيويّةٍ ، بل محبّةً في العلم ، إذ الجَهْلُ تأباهُ النّفوسُ الزكيَّة ، والفِطَرُ الذّكيَّة .

ويليه رجلٌ طلبَ العلمَ محبّةً فيه ممزوجةً بشهوة رياسةٍ، ونيّتُه حسنةٌ، لا يُنافِسُ في طلب المدارس، ويقنعُ بما قُدِّرَ له. فإن جاءهُ رزقٌ وولايةٌ فرحَ بها لشدّة فاقتِه، وليتوسّع من الدُّنيا ، ويعملُ غالباً بما ينبغي، ويستغفرُ الله

من تقصيره، فهذا داخِلٌ في قولـه: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(١)، اللّهُمّ فتُبْ على حملة العلم، واغفر لهم.

نعم، فإنّ هذا العالِمَ بخير وكفايةٍ وجهاتٍ فاضلةٍ عنه، وله ألوفٌ من المال يتّجرُ فيها، وهذا لا أرتابُ أنه يحرمُ عليه أخذُ الجامكِيّة(٢)؛ لأنّه من الأغنياء التُّجّار، ومن ذوي الثروة واليَسَار، أو أرباب المزارع والعَقَار، فكيف يُزاحِمُ الفقهاءَ ويُضيِّقُ عليهم؟ إذ أَخْذُ الجامكيّة إنّما موضوعُه: استعانةٌ على طلب العلم ونشره، وهذا الرّجلُ في غنىً عن أخذ صدقات المُلوك والوزراء والأمراء. ولا يحلُّ له أن يأخُذَ لعلمه أجرةً ولا ثمناً، وهو في عِداد المُسْرِفين، وفي عِداد الكانزين، فلو صرفَ وليُّ الأمر هؤلاء من الجهات لَعُدَّ من العادلين، وقد قال الله تعالى في ناظر مال الأيتام: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾(٣).

يا أخي، بالله عليك، حاسِبْ نفسَك، واتّقِ ربَّك، وخُذْ من الوُقوف ما يَكفيك وولدَك بالمعرُوف، وما بقي فَواسِ به الضّعيف والمسكين، واسْتَعِدَّ لهجُوم المَنِيّة، واسْتَفِقْ مِن خُمار كلب شهوتِك، وتزوّد لآخرتك بنَبْذِ حُطامٍ يضرُّ جَمْعُه، وتصدَّقْ بما فَضَلَ عنك منه لعلّك يُغْسَلُ به لك وَضَرُ أوساخ الواقفين، كما خفّفُوا هم من أثقال أوساخهم بما

(١) التّوبة: الآية ١٠٢.
(٢) الجامكيّة: رواتبُ خُدّام الدّولة.
(٣) النّساء: الآية ٦.

وقفُوه من أموالهم المجموعة من المظالم والشّبُهات، فإنّهم ما قَصَّرُوا فيما فعلُوا، فتشبَّهْ ـ يا هذا ـ بهم لعلّك تنجُو ، و السّلام »[١] .

[١٢٠] ما جعلَ الله لرجُلٍ من قلبين في جوفِه

« قال ابنُ خلّكان في وفيات الأعيان : رأيتُه[٢] مراراً راكِباً بهيمةً إلى الجبل ، وحولهُ اثنان وثلاثُون يقرؤُون عليه دفْعَةً واحدةً في أماكنَ من القُرآن مختلفةٍ ، وهو يردُّ على الجميع » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : ما أعلمُ أحداً من المُقرئين ترخّصَ في إقراء اثنين فصاعِداً إلاّ الشّيخ علم الدِّين، وفي النّفس من صحّة تحمُّل الرّواية على هذا الفعل شيءٌ، فإنّ الله تعالى ما جعلَ لرجُلٍ من قلبين في جوفِه .

ولا رَيْبَ في أنّ ذلك أيضاً خلافُ السُّنّة لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾[٣]، وإذا كان هذا يقرأُ في سُورةٍ، وهذا في سُورةٍ، في آنٍ واحدٍ، ففيه مفاسدُ :

أحدُها : زوال بهجة القرآن عند السّامعين .

---

(١) مسائلُ في طلب العلم وأقسامه ص ٢١٠ ـ ٢١٣ .
(٢) أي علم الدِّين عليّ بن محمّد السّخاوي المُقرىء .
(٣) الأعراف : الآية ٢٠٤ .

وثانيها : أنّ كلّ واحدٍ يُشَوِّشُ على الآخَر، مع كونِه مأموراً بالإنصات .

وثالثُها : أنّ القارىء منهم لا يجوزُ له أن يقول: قرأتُ القرآنَ كلَّهُ على الشّيخ وهو يسمعُ، ويَعي ما أتلُوه عليه، كما لا يسُوغ للشّيخ أن يقُول لكلِّ فَرْدٍ منهم: قرأ عَلَيَّ فلانٌ القرآنَ جميعَهُ، وأنا أسمعُ قراءتَهُ، وما هذا في قوّة البَشَر، بل هذا مقامُ الرّبوبيّة، قالت عائشةُ رضي الله عنها: سُبحان مَنْ وَسِعَ سمعُه الأصواتَ. وإنّما يُصَحِّحُ التّحمُّلَ إجازةُ الشّيخ للتّلميذ، ولكن تصيرُ الرّوايةُ بالقراءة إجازةً، لا سَماعاً من كلِّ وَجْهٍ »[1] .

[١٢١] خِفْتُ أن أَعُقَّ والدي

« رحلتُ إليه[2]، فأُدْخِلْتُ عليه، فوجدتُه قد أضرّ وأصمّ، ولكن فيه جَلادَةٌ وشَهامَةٌ، وهو في سبعٍ وثمانين سنةً ، فقرأتُ عليه جُزْءاً، ورفعتُ صوتي فسمع، وكلّمتُه في أن أجمعَ عليه السّبعةَ[3]، فقال: اشْرَعْ، فقرأتُ عليه الفاتحةَ، وآياتٍ من البقرة، وهو يَرُدُّ الخلافَ، ويَرُدُّ روايةَ يعقوب وغيرِه ممّا قرأ به، فقلتُ: إنّما قصدي السّبعةُ فقط، فتخيّل منّي نَقْصَ المعرفةِ وقال: إذا أردتَّ أن تقرأ عَلَيَّ فامضِ إلى تلميذي فلانٍ، فاقرأ عليه، ثمّ

(١) معرفةُ القرّاء الكبار ٢/٦٣٣ .

(٢) أي شيخَهُ المقرىء أبا الحسين يحيى بن أحمد الجُذامي الإسكندراني المالكي .

(٣) أي القراءات السّبعة .

اعرض عَلَيَّ، فرأيتُ أنّ هذا شيءٌ يطُول، وزَهَّدَني فيه أنّي كنتُ لا أدخلُ عليه إلاّ بمشقّةٍ، وأمنعُ مرّةً ويُؤذَنُ لي مرّةً، وأيضاً فكنتُ لا أقرأ ربعَ حِزْبٍ جَمْعاً حتّى ينقطع صوتي لمكان صَمَمِه. ثمّ ظفرتُ بسحنون[1] المذكور بَعْدُ، وقرأتُ عليه كما ذكرتُ لك، وكنتُ قد وعدتُّ أبي وحَلَفْتُ له أنّي لا أُقيمُ في الرّحلة أكثرَ من أربعة أشهرٍ ، فخفتُ أعُقّه »[2] .

[١٢٢] صار باطنُه مأوى لقَرينِه

« الشّيخُ يوسف القمّينيُّ المُولَّهُ بدمشق، كان للنّاس في هذا اعتقادٌ زائدٌ لما يسمعُون من مكاشفتِه التي تجري على لسانه، كما يتمُّ للكاهن سواء في نطقه بالمغيّبات. كان يأوي إلى القَمامين والمَزابل التي هي مأوى الشّياطين، ويمشي حافياً، ويكنسُ الزّبْلَ بثيابه النّجسة ببوله، ويترنّحُ في مشيه، وله أكمامٌ طِوالٌ، ورأسُه مكشوفٌ، والصّبيانُ يعبثُون به. وكان طويلَ السّكُوت، قليلَ التّبسُّم، يأوي إلى قُمّين حمام نُور الدِّين، وقد صارَ باطنُه مأوى لقرينِه، ويَجْري فيه مجرى الدّم، ويتكلّمُ فيخضعُ له كلُّ تالفٍ، ويعتقدُ أنّه وليٌّ لله ، فلا قُوّةَ إلاّ با لله .

وقد رأيتُ غيرَ واحدٍ من هذا النّمَط الذين زال عقلُهم أو نقص يتقلّبُون في النّجاسات، ولا يُصلُّون ولا يصُومون، وبالفُحْشِ ينطقُون، وهم

---

(١) هو شيخُه أبو القاسم عبد الرّحمن بن عبد الحليم الدُّكالي المالكيّ المُقرىء يلقّب بسحنون.

(٢) معرفةُ القرّاء الكبار ٢/٦٩٧ - ٦٩٨ .

كشفٌ، كما وا لله للرُّهبان كشفٌ، وكما للسّاحر كشفٌ، وكما لمن يُصْرَعُ كشفٌ، وكما لمن يأكلُ الحيّةَ ويدخلُ النّارَ حالٌ، مع ارتكابه للفواحش »[1] .

[١٢٣] تاريخُ الإسلام كتابٌ جمعتُه وتعبتُ عليه

« هذا كتابٌ نافعٌ إن شاء ا للهُ، ونعوذُ با لله من علمٍ لا ينفَعُ، ومن دعاءٍ لا يُسمَعُ، جمعتُه وتعبتُ عليه، واستخرجتُه من عدّة تصانيف، يَعْرِفُ به الإنسانُ مهمَّ ما مضى من التّاريخ، من أوّل تاريخ الإسلام إلى عصرنا هذا، من وفيات الكبار من الخُلفاء والقُرّاء والزُّهّاد والفُقهاء والمحدِّثين والعلماء والسّلاطين والوزراء والنُّحاة والشُّعراء، ومعرفة طبقاتهم وأوقاتهم وشيوخهم وبعض أخبارهم، بأخصر عبارةٍ، وألخص لفظٍ، وما تمّ من الفُتوحات المشهُورَة، والملاحم المذكُورَة، والعجائب المسطُورَة، من غير تطويلٍ ولا استيعابٍ، ولكن أذكرُ المشهُورين ومَن يُشبههُم، وأتركُ المجهولين ومَن يُشبههُم، وأشيرُ إلى الوقائع الكبار، إذ لو استوعبتُ التّراجمَ والوقائعَ لبلغ الكتابُ مائةَ مجلّدةٍ بل أكثر، لأنّ فيه مائة نفسٍ يُمكنني أن أذكُرَ أحوالَهُم في خمسين مجلّداً ... »[2] .

---

(١) سير أعلام النّبلاء ٢٣/٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

(٢) تاريخ الإسلام ـ السّيرة النّبويّة ص ١١ ـ ١٢ .

[١٢٤] أشياءُ أكبرُ مِن عقُول البَشَر

« الأنبيـاءُ أحيـاءٌ عنـد ربِّهـم كحيـاة الشُّـهداء عنـد ربِّهـم، وليسـت حياتُهم كحياةِ أهل الدُّنيا، ولا حياةِ أهل الآخِرَة، بل لونٌ آخرُ، كمـا ورد أنّ حياةَ الشُّهداء بأن جعلَ ا للهُ أرواحَهُم في أجْواف طَيْرٍ خُضْـرٍ تَسْـرَحُ في الجنّة، وتَأْوي إلى قَناديلَ مُعَلَّقَةٍ تحت العَرْش، فهُـم أحيـاءٌ عنـد ربِّهـم بهـذا الاعتبار كما أخبر سبحانه وتعالى، وأجسادُهم في قبُورهم. وهــذه الأشـياءُ أكبرُ مـن عقُـول البشـر، والإيمـانُ بهـا واجـبٌ كمـا قـال تعـالى: ﴿الذِيـنَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ﴾[١] »[٢] .

[١٢٥] مَنْ لم يجعل له نُوراً فما له من نُورٍ

« الأحاديثُ الصّحيحةُ والضّعيفةُ في إخباره ﷺ بما يكُون بعدهُ كثـيرةٌ إلى الغاية، اقتصرنا على هذا القَدْرِ منها، ومَنْ لم يجعل له نُـوراً فمـا لـه مـن نُورٍ، نسألُ ا لله تعالى أن يكتُبَ الإيمانَ في قلُوبنا، وأن يُؤيِّدنا برُوحٍ منه »[٣] .

---

(١) البقرة : الآية ٣ .

(٢) تاريخ الإسلام ـ السِّيرة النّبويّة ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

[١٢٦] اعجبُوا ـ يا مسلمين ـ لهذا الجُنون

« هو[١] عند الخوارج من أفضل الأمّة ، وكذلك تُعظِّمُه النُّصيريّةُ .
قال الفقيهُ أبو محمّدٍ بن حَزْمٍ : يقولون : إنّ ابنُ مُلْجَمٍ أفضلُ أهل الأرض ، خَلَّصَ رُوحَ اللاّهُوت من ظُلمة الجسد وكَدَرِه » .
قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :
« فاعجبُوا ـ يا مسلمين ـ لهذا الجُنُون »[٢] .

[١٢٧] لم يكونُوا يَعُدُّون العالِمَ إلاّ مَنْ عمِل بعلمِه

قال هرمُ بن حيّان : « إيّاكُم والعالِمَ الفاسقَ ، فبلغَ عُمَرَ ، فكتبَ إليه وأشفقَ منها : ما العالِمُ الفاسِقُ ؟ فكتبَ : يا أميرَ المُؤمنين ، ما أردتُّ إلاّ الخير ، يكونُ إمامٌ يتكلّمُ بالعلم ، ويعملُ بالفِسْق ، ويُشَبِّهُ على النّاس فيَضِلُّوا » .
قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :
« إنّما أنكرَ عليه عُمَرُ لأنّهم لم يكُونوا يَعُدُّونَ العالِمَ إلاّ من عمِلَ بعلمِه »[٣] .

---

(١) أي عبد الرّحمن بن مُلْجَمٍ المُرادي قاتل عليٍّ رضي الله عنه .
(٢) تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الرّاشدين ص ٦٥٣ ـ ٦٥٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٦٥٣ ـ ٦٥٤ .

[١٢٨] شَرٌّ مِن إبليس وذو اتِّحادٍ وتَلْبيس

« إذا رأيتَ المتكلِّمَ يقول : دَعْنا من الكتاب والسُّنّة ، وهاتِ ما دلَّ عليه العقلُ ، فاعلم أنّه أبو جهلٍ ، وإذا رأيتَ العارِفَ يقول : دَعْنا من الكتاب والسُّنّة والعقل ، وهاتِ ما دلَّ عليه الذَّوْقُ والوَجْدُ ، فاعلم أنّه شَرٌّ من إبليس ، وأنّه ذو اتِّحادٍ وتَلْبيس »(١) .

[١٢٩] ما أحدٌ من العُلماء إلاّ وما جَهِلَ من العلم أكثرُ ممّا عَلِمَ

قال عبدُ الله بن حبيب بن أبي ثابتٍ : سمعتُ الشّعبيَّ وقيل له : إنّ إسماعيلَ السُّدِّي قد أُعطي حظّاً من علم القُرآن ، قال : إنّ إسماعيلَ قد أُعطي حظّاً من جهلٍ بالقرآن » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« ما أحدٌ من العُلماء إلاّ وما جهلَ من العلم أكثرُ ممّا علم »(٢) .

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ١٠١ هـ ـ ١٢٠ هـ ، ص ٢٩٨ . وانظر ما تقدّم ص ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨ .

[١٣٠] كان النّاسُ في عافيةٍ

« كان النّاسُ في عافيةٍ وسَلامةِ فِطْرَةٍ حتّى نبغَ جَهْمٌ فتكلّم في البـاري تعالى وفي صفاته بخلاف ما أتت به الرّسلُ ، وأُنزلت به الكتبُ ، نسألُ الله السَّلامةَ في الدِّين »[1] .

[١٣١] بدايةُ تناقُص الحفظِ

« وفي هذا العصر[2] شرعَ علماءُ الإسلام في تدويـن الحديـث والفقـه والتّفسير؛ فصنّق ابنُ جريجٍ التّصانيفَ بمكّة، وصنّف سعيدُ بن أبـي عَرُوبـة وحمّادُ بن سـلمة وغيرُهمـا بـالبصرة، وصنّـف الأوزاعـيُّ بالشّـام، وصنّـف مالكٌ الموطّأ بالمدينة، وصنّفَ ابنُ إسحاق المغازي، وصنّف معمـر بـاليمن، وصنّف أبو حنيفة وغيرُه الفقهَ والـرّأيَ بالكُوفـة، وصنّـف سـفيانُ الثّـوريُّ كتابَ الجامع، ثمّ بعد يسيرٍ صنّف هُشيم كتبَه، وصنّف اللّيثُ بمصـر وابـنُ لهيعة، ثـمّ ابنُ المبارك وأبو يوسف وابنُ وهبٍ، وكثر تدوينُ العلم وتبويبُـه، ودُوِّنت كتبُ العربيّة واللّغة والتّاريخ وأيّام النّاس، وقبل هـذا العصـر كـان سائرُ الأئمّة يتكلّمُون عن حفظِهم، أو يروون العلمَ مـن صحـفٍ صحيحـةٍ

---

(١) تاريخ الإسلام - وفيات ١٢١ هـ - ١٤٠ هـ ، ص ٦٨ .

(٢) أي في عصر مالك ومن ذُكر معه هنا .

غير مرتّبةٍ، فسهُل ـ و لله الحمدُ ـ تناولُ العلم، وأخذ الحفظُ يتناقصُ ، فللّه الأمرُ كلُّه »(١) .

[١٣٢] كلمةٌ مَقيتةٌ

قال حجّاجُ بن أرطاةٍ : « لا تتمُّ مروءةُ الرّجُل حتّى يدعَ الصّلاةَ في جماعةٍ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هذه كلمةٌ مقيتةٌ ، بل لا تتمُّ مروءةُ الرّجُل ودِينُه حتّى يلزمَ الصّلاةَ في جماعةٍ. وهذا كلُّه قاله حجّاج لِمَا في طِباعِه من البذخ والرّياسة فإنّه يَرى أنّ صلاته في جماعةٍ ومُزاحمتَه للسُّوقَة في الصّفُوف يُنافي ما فيه من التِّيه والتّرَف ، فا للهُ يُسامحُه. وهو من طبقة أبي حنيفة الإمام في العلم، لكن رفعَ ا للهُ أبا حنيفة بالورع والعبادة، و لم ينل حجّاج بن أرطاة تلك الرِّفْعةَ ، فرحمهما ا لله »(٢) .

[١٣٣] تلك هي علومُ الإسلام

روى سعيدُ بن أبي مريم ، عن خالِه قال : « كان عمرو بن الحارث يخرجُ من منزله فيجد النّاسَ صفوفاً يسألُونه عن القرآن والحديث والفقه والشِّعْر والعربيّة والحساب » .

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ١٤١ هـ ـ ١٦٠ هـ ، ص ١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢ ، وانظر ما سبق ص ٩٠ .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : علومُه المذكورةُ هي علومُ الإسلام ذلك الوقت ، ما كان القومُ يخوضُون في سوى ذلك ولا يهرفُونه ، فخلفَ من بعدهم خَلْفٌ عملُوا أصولَ الدِّين والكلام والمنطق، وخاضُوا كما خاضت الحكماءُ »(١).

[١٣٤] قراءةُ حمزة

« قد كره قراءةَ حمزة ابنُ إدريس الأوديُّ وأحمدُ بن حنبلٍ وجماعةٌ لفرط المدِّ والإمالة والسَّكْت على السّاكن قبل الهمز وغير ذَلك، حتّى أنّ بعضهُم رأى إعادةَ الصّلاة إذا كانت بقراءة حمزة، وهذا غلوٌّ.

والذي استقرّ عليه الاتِّفاقُ وانعقد الإجماعُ على ثبوت قراءته وصحّتها، وإن كان غيرُها أفصحَ منها، إذ القراءاتُ الثّابتةُ فيها الفصيحُ والأفصحُ.

وبالجملة إذا رأيتَ الإمامَ في المحراب لَهِجاً بالقراءات وتتبُّع غريبها، فاعلم أنّه فارِغٌ من الخشُوع، محبٌّ للشّهرة والظهُور، نسألُ اللهَ السّلامةَ في الدِّين »(٢).

---

(١) تاريخ الإسلام - وفيات ١٦١ هـ - ١٨٠ هـ ، ص ٢٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

[١٣٥] سبقَ - وا لله - السّابقُون الأوّلُون

قال وهيبُ بن الورْد : « إذا استطعتَ أن لا يسبقك إلى ا لله أحدٌ فافعل » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هذا على سبيل المبالغة في الاجتهاد ، و إلاّ فقد سبقَ - وا لله - السّابقُون الأوّلُون ، فضلاً عن الأنبياء المستحيل سَبْقُهم »(١).

[١٣٦] آهِ واحسرتاهُ على قلّة مَنْ يعرفُ دينَ الإسلام كما ينبغي

قال سفيان الثّوريُّ : « ليس طلبُ الحديث من عدّة الموتِ لكنّه علّةٌ يتشاغلُ بها » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : طلبُ الحديث قَدْرٌ زائدٌ على طلب العلم، وهو لقبٌ لأمورٍ عُرْفيّةٍ قليلةِ المَدْخَلِ في العلم، فإذا كان فنونٌ عديدةٌ من علم الآثار النّبويّة بهذه المثابة فما ظنُّك بطلب علم الجدل والعقليّات والمنطق اليُونانيّ؟ آهِ واحسرتاهُ على قلّة مَنْ يعرفُ دينَ الإسلام كما ينبغي، وما أقلّ(٢) في

(١) تاريخ الإسلام - وفيات ١٤١ هـ - ١٦٠ هـ ، ص ٦٦٣ .

(٢) في المطبوع : وما أحلّ ، ولعلّ المثبت أوضح .

القليل المتعيِّن إذا كان مثلُ سفيان يودُّ أن ينجُو من علمه كفافاً، فما نقول نحن ؟ واغَوْثاهُ با لله »(١).

[١٣٧] جلالةٌ ليستْ سُدىً

قال ابنُ المبارك : « ما نُعِتَ لي رجلٌ إلاّ وجدتُّه دون نَعْتِه إلاّ الثّوريّ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هذا الرّجلُ وأمثالُه ما جعلَ الله لهم هذه الجَلالةَ في القلُوب سُدىً ، فحبُّ سفيانَ من الإيمان »(٢) .

[١٣٨] خانَ الله ورسُولَه

قال حمّادُ بن زيدٍ : « المُدَلِّسُ متشبِّعٌ بما لم يُعْطَ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : المُدَلِّسُ داخِلٌ في عمُوم قوله تعالى : ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، وداخِلٌ في قوله عليه السّلام : مَنْ غَشَّنا فليس منّا ؛ لأنّه يُوهمُ السّامعين أنّ حديثَهُ متّصِلٌ وفيه انقطاعٌ ، هذا إذا دلّسَ عن ثقةٍ، أمّا إذا دلّسَ خبرَهُ عن ضعيفٍ يُوهِمُ أنّه صحيحٌ؛ فهذا قد خانَ الله ورسُولَه »(٣).

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ١٦١ هـ ـ ١٨٠ هـ ، ص ٢٣٣ . وانظر ما تقدّم ص ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ـ وفيات ١٨١ هـ ـ ١٩٠ هـ ، ص ٩٧ .

[١٣٩] عُلُوٌّ لا نظيرَ له أصلاً

« مناقبُ اللّيث - أي ابن سعدٍ - كثيرةٌ، وعلمُه واسِعٌ، وقد وقعَ لي مِنْ عَواليه، لكن اليوم ليس على وجه الأرض في عام ستّةٍ وعشرين وسبعمائة مَنْ بينهُ وبين اللّيث ستّةُ أنفُسٍ، وهذا علوٌّ لا نظيرَ له أصلاً. ولقد كتبتُ نسخةَ أبي الجهمِ مِنْ بِضْعٍ وثلاثين سنةً فَرَحاً بعُلُوِّها في ذلك الوقتِ، وسمعتُها مِنْ ستّين شَيْخاً وهي الآنَ مرويّةٌ بالسَّماع. ولو رحلَ اليومَ الطّالبُ من مسيرة ألف فَرْسَخٍ لإدراكها وغَرِمَ مائةَ دينارٍ لكان له الحَظُّ الأوفَرُ »(١) .

[١٤٠] ليس ذا مِنْ كرامات الأولياء

« مَيْسَرَةُ هذا كان يأكلُ بالحال، ألا تراهُ ذَكَرَ أنّ عادتَهُ أكلَ رغيفين كآحاد النّاس، وأنّه أكلَ ما يكفي سبعين رجُلاً ونحو ذلك عندما يَجْمَعُ همّتَهُ. وقد رأيتُ أنا مَنْ يأكلُ إذا أرادَ بالحال، وهذا الحال ليس من كرامات الأولياء، فإنّ الأولياءَ أكلهم قليلٌ، والمؤمنُ يأكلُ في معاءٍ واحدٍ، والكافرُ يأكلُ في سبعة أمعاءٍ. وأيضاً فالوليُّ يأكلُ قُوتَ يومٍ في أسبُوعٍ، يتقوّتُ به ويُبارك له في طعامِه وفي قِواهُ، لا أنّه يأكلُ نصفَ قنطارٍ من

---

(١) تاريخ الإسلام - وفيات ١٨١ هـ - ١٩٠ هـ ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

الطّعام في جملةٍ واحدةٍ، ولعلّ من يفعلُ هذا لا يُسمِّي الله. وقيل : بنفسِه مادّةٌ مُحْرِقَةٌ للأكل، وقد تُعينُه الشّياطينُ في أكل ذلك فيفرغ وتطير بركتُه، ويَظُنُّ هو ومَنْ حضرَهُ أنّ هذا الفعلَ من كرامات المُتّقين، وإنّما كراماتُ السّادة أن يُحْضِرَ أحدُهم ما يَكْفِي واحِداً، فيُقَوِّت به الجَمْعَ الكبيرَ، ويَشْبَعُون بِبَرَكَةِ دُعائه »[1] .

[١٤١] عَيْبُه علومُه

في ترجمة إسماعيل بن صالح بن عليٍّ الهاشميّ العبّاسيّ قال الذّهبيُّ :
« كان جامِعاً ، أهلَ سُؤْدَدٍ ، ويعرفُ الفلسفةَ والنّجومَ وضَرْبَ العُودِ.
قلتُ : عَيْبُه علومُه »[2] .

[١٤٢] الشِّرْكُ أعظمُ من كلِّ إفكٍ

« وبالجُملة فالشِّرْكُ أعظمُ من كلِّ إفْكٍ، وقد أسلمَ خَلْقٌ صارُوا أفضلَ هذه الأمّة، نسألُ الله أن يأخُذَ بنواصينا إلى طاعتِه، فإنّ قلوبَ العباد بيده يصرفها كيف يشاءُ »[3] .

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ١٦١ هـ ـ ١٨٠ هـ ، ص ٣٨٣ .
(٢) المصدر نفسه ـ وفيات ١٨١ هـ ـ ١٩٠ هـ ، ص ٦٨ .
(٣) المصدر نفسه ـ وفيات ١٨١ هـ ـ ١٩٠ هـ ، ص ٣٣٤ .

[١٤٣] كذا فليكُن زهدُ الأولياء

قال شقيقُ بن إبراهيم البلخي : ثلاثُ خصالٍ هي نتاجُ الزّهدِ :
الأولى : أن تميل عن الهَوى .
الثّانية : تنقطع إلى الزُّهد بقَلْبٍ .
الثّالثة : أن يذكُرَ إذا خَلا كيف مدخلُه ومخرجُه، كيف يدخل قبرَه ؟ ويذكر الجُوعَ والعطشَ والحسابَ والصّراطَ والعُرْيَ والفضيحةَ وطُولَ القيام.
قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :
« وقد ذُكر عن شَقيقٍ مع انقطاعه وزُهده أنّه من كبار المُجاهدين في سبيل الله. وكذلك فليكُن زهدُ الأولياء »(١) .

[١٤٤] سنّةُ الله فيمن ازدرى العلماءَ

في ترجمة أبي عبد الرّحمن عبد الله بن سلمة البصري الأفطس قال الحافظُ الذّهبيُّ رحمه الله تعالى :
« كان يستخفُّ بالأئمّة قال : يكذبُ سفيان ، وتكلّم في غُنْدَر ، وقال عن القطّان : ذاك الأحول .
وكذا سنّةُ الله في كلِّ من ازدرى العلماءَ بقي حقيراً »(٢) .

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ١٩١ هـ ـ ٢٠٠ هـ ، ص ٢٢٩ .
(٢) المصدر نفسه ـ وفيات ١٩١ هـ ـ ٢٠٠ هـ ، ص ٢٥٦ .

[١٤٥] أبعدهُم الله وأبعدَ شرّهُم

قال رجلٌ لهشامِ الفُوَطيّ(١) : كم تَعُدُّ ؟ قال: من واحدٍ إلى أكثر من ألفٍ. قال : لم أُرد هذا ، كم لك من السِّنِّ ؟ قال: اثنا وثلاثون سِنّاً . قال: لم أُرد هذا ، كم لك من السِّنين ؟ قال : ما لي منها شيءٌ ، كلُّها لله. قال : فما سِنُّك ؟ قال : عَظْمٌ . قال : فابْنُ كم أنتَ ؟ قال : ابنُ أمٍّ وأبٍ . قال : فكم أتى عليك ؟ قال : لو أتى عَلَيَّ شيءٌ لقتلني . قال : فكيف أقُول ؟ قال : قل: كم مضى من عُمُرِك » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هذا غايةُ ما عند هؤلاء المتقعِّرين، عباراتٌ وشقائقُ يتقعّرُون بها قديماً وحديثاً، ويُحرِّفُون بها الكَلامَ عن مواضعِه، والخطابَ العربيَّ عن موضُوعِه، والحديثَ العُرْفِيَّ عن مفهُومِه في القرآن والحديث وكلام النّاس، فأبعدهُم الله ، وأبعدَ شرَّهُم »(٢) .

[١٤٦] التّيُّوسُ الضُّلاّلُ

في ترجمة أبي إسحاق النَّظّام البصريّ المعتزليّ المُتكلِّم نقل الذّهبيُّ عن الحافظ ابن حزمٍ الأندلسيّ قولَه فيه :

---

(١) هشام بن عمرو الفُوَطي كوفي معتزليّ .

(٢) تاريخ الإسلام - وفيات ٢٢١ هـ - ٢٣٠ هـ، ص ٤٤١ - ٤٤٢، وانظر ما تقدّم ص ١١٥.

« اسمُه إبراهيمُ بن سَيّار مولى بني بجير بن الحارث بـن عَبّاد الضُّبَعي، هو أكبرُ شيوخ المعتزلة ومُقَدَّمُهُم، كان يقُول: إنّ ا الله لا يقدِرُ علـى الظُّلـم ولا الشّرّ، ولو كان قادراً لكُنّا لا نأمنُ من أن يفعلَـهُ أو أنّـه قـد فعلَـهُ. وإنّ النّاسَ يُعذرُون على الظُّلم. وصرّح بأنّ ا الله تعالى لا يقدرُ على إخراج أحدٍ من جهنّم. واتّفقَ هو والعَلاّفُ على أنّ ا الله ليس يقدرُ من الخير على أصلحَ ممّا عملَ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلـتُ : القـرآنُ والعقـلُ الصّحيـحُ يُكَـذِّبُ هـؤلاء التُّيُـوسَ الضُّـلاّلَ قبّحهُم ا الله تعالى »[(١)] .

[١٤٧] سرقةُ الأجزاء والكتب

« سرقةُ الحديثِ أهونُ مِنْ وَضْعِهِ واخْتلاقِهِ، وسرقةُ الحديثِ أن يكون محدِّثٌ ينفردُ بحديثٍ، فيجيءُ السّارقُ ويدّعي أنّه سمعهُ أيضاً مـن شيخ ذاك المحدِّث، وليس ذاك بسرقة الأجزاء والكتب فإنّها أنْحَسُ بكثـير مـن سـرقة الرّواية، وهي دون وضع الحديث في الإثم لقوله ﷺ : إنّ كَذِباً عَلَـيَّ ليـس ككذبٍ على غيري »[(٢)] .

---

(١) تاريخ الإسلام - وفيات ٢٢١ هـ - ٢٣٠ هـ، ص ٤٧٠ - ٤٧١ .

(٢) المصدر نفسه - وفيات ٢٣١ هـ - ٢٤٠ هـ ، ص ١٤٠ .

[١٤٨] ما يقعُ في هذا إلاّ ضالٌّ جاهلٌ

ذكرَ السُّلَمِيُّ أحمدَ بن أبـي الحَواري فقـال : « شـهِدَ عليه قـومٌ أنّـه يُفَضِّلُ الأولياءَ على الأنبياء، وبذلُوا الخطوطَ عليـه، فهـربَ مـن دمشـق إلى مكّة وجاورَ، حتّى كتبَ إليه السّلطانُ يسألُه الرّجوعَ فرجعَ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هذا من الكذبِ على أحمد رحمه الله فإنّه كـان أعلـمَ بـالله من أن يقعَ في ذلك، وما يقعُ في هذا إلاّ ضالٌّ جاهِلٌ »(١) .

[١٤٩] بالله اسكتُوا حتّى نسكُتَ

قال محمّدُ بن جريرٍ : سمعتُ عبّادَ بن يعقوب يقُول : « من لم يتبرّأ في صلاتِه كلَّ يومٍ من أعداء آل محمّدٍ ﷺ حشرهُ اللهُ معهم » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هذا الكلامُ أَبُو جَاد الرَّفْضِ ؛ فإنّ آلَ محمّدٍ عليه السّلام قـد عادَى بعضُهم بعضاً على المُلْكِ كآل العبّاس وآل عَليٍّ، وإن تبرّأتَ مـن آل العبّاس لأجل آل عليٍّ فقد تبرّأتَ من آل محمّـدٍ، وإن تـبرّأتَ مـن آل عَلِـيٍّ لأجل آل العبّاس فقد تبرّأتَ من آل محمّـدٍ، وإن تـبرّأتَ مـن الظّـالمِ منهمـا

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٢٤١ هـ ـ ٢٥٠ هـ ، ص ٥٤ .

للآخَر فقد يكونُ الظّالِمُ عَلَوِيّاً قاطِباً(١) فكيفَ أبرأُ منه ؟ وإن قلتَ : ليس في آل عَلِيٍّ ظالِمٌ فهو دعوى العصمة فيهم، وقد ظلَمَ بعضُهم بعضاً؛ فبالله اسكتُوا حتّى نسكُتَ ، وقُولُوا : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ »(٢) .

[١٥٠] جَهْلٌ ما عليه مَزيدٌ

« وفي الجملةِ جَهْلُ الرّافضة ما عليه مَزيدٌ، اللّهمّ أمتنا على حُبِّ محمّدٍ وآل محمّدٍ ﷺ . والذي يعتقدُه الرّافضةُ في هذا المنتظَر لو اعتقدَه المسلمُ في عَلِيٍّ بل في النّبيّ ﷺ لما جاز له ذلك ولا أُقِرَّ عليه. قال النّبيّ ﷺ : لا تُطْرُوني كما أطرت النّصارى عيسى فإنّما أنا عَبْدٌ فقولوا: عبدُ الله ورسولُه، صلواتُ الله عليه .

فإنّهُم يعتقدُون فيه وفي آبائه أنّ كلَّ واحدٍ منهم يعلمُ علمَ الأوّلين والآخِرين، وما كان وما يكونُ، ولا يقعُ منه خطأٌ قطٌّ، وأنّه معصومٌ من الخطأ والسّهو، نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ، ونعوذُ بالله من الاحتجاج بالكذب وردِّ الصّدق كما هو دَأْبُ الشّيعة »(٣) .

---

(١) كذا في المطبوع ، ولعلّها : باطنا ، بمعنى أنّه في حقيقة أمره علويٌّ .

(٢) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٢٤١ هـ ـ ٢٥٠ هـ ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ـ وفيات ٢٦١ هـ ـ ٢٧٠ هـ، ص ١٦١ ـ ١٦٢، وانظر ما تقدّم ص ١٢٨.

[١٥١] الحِرْصُ على الحديث والسُّنّة

قال سهلُ بن عبد الله التُّستري : « من أرادَ الدّنيا والآخرة فليكتب الحديثَ، فإنّ فيه منفعةَ الدُّنيا والآخرة » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هكذا كان مشايخُ الصُّوفيّة في حرصهم على الحديث والسُّنّة ، لا كمشايخ عصرنا الجَهَلَة البَطَلَة الأَكَلَة الكَسَلَة »(١) .

[١٥٢] أسألُ الله السَّلامةَ من شَطَحات الصُّوفيّة

« ما أدري ما أقول ، أسألُ الله السَّلامةَ من شَطَحات الصُّوفيّة، وأعوذُ بالله من كفريّات صُوفيّة الفلاسفة الذين تستّرُوا في الظّاهر بالإسلام، ويعملُوا هلى هَدْمِه في الباطن، ورَبَطُوا العالَمَ بِرُبَطِ ورموزِ الصُّوفيّة، وإشاراتِهم المتشابهة، وعباراتِهم العَذْبَة، وسَيْرهم الغريب، وأسلُوبهم العجيب، وأذواقهم الخَلْفَة التي تجرُّ إلى الانسلاخ والفَناء، والمَحْوِ والوَحْدَة، وغير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾(٢) يعني طريقَ الكتاب والسُّنّة المحمّديّة، ثمّ قال: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٢٨١ هـ ـ ٢٩٠ هـ ، ص ١٨٧ .

(٢) الأنعام : الآية ١٥٣ .

عَنْ سَبِيلِهِ﴾. والحكيمُ التّرمذيُّ[١] فحاشى الله ؛ ما هو من هذا النّمَط ، فإنّه إمامٌ في الحديث، صحيحُ المتابعة للإشارة، حلوُ العبارَة، عليه مؤاخذاتٌ قليلةٌ كغيره من الكبار، وكلُّ أحدٍ يُؤخَذُ من قوله ويُترك ، إلاّ ذاك الصّادقُ المعصومُ رسولُ الله ﷺ .

فيا مُسلمين ، بالله تعاولوا نبكي على الكتاب والسُّنّة وأهلها ، وقولوا : اللّهمّ أجرنا في مُصيبتنا فقد عادَ الإسلامُ والسُّنّةُ غريبين، فلا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم »[٢] .

[١٥٣] اللّهمّ توفّنا على السُّنّة

« مَنْ أراد أن يتبحّر في معرفة الأشعريّ[٣] فليطالع كتاب تبيين كذب المفتري تأليف أبي القاسم بن عساكر. اللّهمّ توفّنا على السّنّة، وأدخلنا الجنّة، واجعل أنفسَنا بك مُطمئنّة، نحبُّ فيك أولياءَك، ونبغض فيك أعداءَك، ونستغفرُ للعُصاة من عبادِك، ونعملُ بمحكم كتابِك، ونؤمنُ بمتشابهِه، ونصفُك بما وصفتَ به نفسَك، ونصدِّقُ بما جاء به رسولُك، إنّك سميعُ الدّعاء ، آمين »[٤] .

---

(١) أبو عبد الله محمّد بن عليّ الحكيم التّرمذي صاحب نوادر الأصول .

(٢) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٢٨١ هـ ـ ٢٩٠ هـ ، ص ٢٧٨ .

(٣) أبو الحسن عليّ بن إسماعيل البصري صاحب الإبانة وغيرها .

(٤) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٣٢١ هـ ـ ٣٣٠ هـ ، ص ١٥٧ .

[١٥٤] عذرٌ غيرُ مقبولٍ

قال الحاكمُ : سمعتُه غيرَ مرّةٍ يُعاتَبُ في ترك الجمعة فيقول : « إن كانت الفضيلةُ في الجماعة ، فإنّ السّلامةَ في العُزْلَة » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : ها عُذْرٌ غيرُ مقبولٍ منه ، ولا رُخْصَةَ في ترك الجمعة لأجل سلامة العُزْلة ، وهذا بالإجماع »[1] .

[١٥٥] هكذا كان ـ وا لله ـ شيخُنا ابنُ تيمية

قال أبو عثمان الصّابونيُّ : « يا أهلَ سَلَمَاس ، لي عندكم أعظُ وأنا في تفسير آيةٍ وما يتعلّقُ بها ، و لو بقيتُ تمامَ سَنَةٍ لما تعرّضتُ لغيرها والحمدُ لله » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلّقاً :

« قلتُ : هكذا كان ـ وا لله ـ شيخُنا ابنُ تيمية، بقي أزيدَ من سَنَةٍ يُفسِّرُ في سورة نُوحٍ، وكان بَحْراً لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ رحمه ا للهُ »[2] .

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٣٤١ هـ ـ ٣٥٠ هـ ، ص ٣٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ـ وفيات ٤٤١ هـ ـ ٤٥٠ هـ ، ص ٢٢٦ .

[١٥٦] لو أهدرنا كلّ عالِمٍ زَلَّ لم يسلم معنا إلاّ القليل

« وبكلِّ حالٍ هو[١] - مع بدعةٍ فيه - من كبار العُلماء ؛ فلو أنّنا أَهْدَرْنَا كلَّ عالِمٍ زَلَّ لما سَلِمَ معنا إلاّ القليل .

فلا تَحُطَّ - يا أخي - على العلماء مطلقاً ، ولا تُبالغ في تقريظهم مُطلقاً، واسأل الله أن يتوفّاك على التّوحيد »[٢] .

[١٥٧] هكذا كانت هِمَمُ العلماءِ

قال ابنُ الأكْفاني : « كان[٣] يذكرُ أنّه يحفظُ في علم تعبير الرُّؤيا عشرةَ آلاف ورقة وثلاثمائة ونيِّفاً وسبعين ، وكان يقول : زِدْتُّ على أستاذي عبد العزيز الشَّهْرَزُورِيِّ المالكيّ بحفظ ثلاثمائة وسبعين ورقة »[٤] .

---

(١) يعني عليّ بن محمّدٍ الماورديّ الفقيه المفسِّر .

(٢) تاريخ الإسلام - وفيات ٤٤١ هـ - ٤٥٠ هـ ، ص ٢٢٦ .

(٣) يعني أبا المُنَجّا حَيْدَر بن عليّ القحطاني الأنطاكي المالكي المُعَبِّر .

(٤) شكّك الذّهبيُّ في سير أعلام النّبلاء ١٨/٤٥٠ في صحّة ذلك فقال: « يكونُ هذا القَدْرُ نحواً من أربعين مجلّداً ، فا للهُ أعلمُ بصحّة ذلك » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : هكذا كانت ـ أيُّها اللّعّابُ ـ هممُ العلماء وأذهانُهم ، وأين هذا من محفوظات علمائنا اليوم »(١) .

[١٥٨] قد فتحَ الله بكتابنا هذا ـ يعني تاريخ الإسلام ـ

قال أبو بكر بن طرخان : سمعتُ أبا عبد الله الحُميديّ يقول :

« ثلاثةُ كتبٍ من علومِ الحديث يجبُ تقديمُ الهمم بها : كتابُ العِلَلِ، وأحسنُ كتابٍ وُضعَ فيه كتابُ الدّارقطنيّ، وكتابُ المؤتلف والمختلف، وأحسنُ كتابٍ وُضع فيه كتابُ الأمير ابن ماكُولا، وكتابُ وَفَياتِ الشُّيوخ، وليس فيه كتابٌ، وقد كنتُ أردتُّ أن أجمعَ في ذلك كتاباً فقال لي الأميرُ : رتِّبْهُ على حرُوف المعجم بعد أن تُرَتِّبَهُ على السِّنين .

قال ابنُ طرخان : فشغله عنه الصّحيحان إلى أن ماتَ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : قد فتحَ الله بكتابنا هذا ، يسّر الله إتمامَه ، ونفعَ به ، وجعله خالصاً من الرّياء والسُّمْعَة »(٢) .

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٤٦١ هـ ـ ٤٧٠ هـ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ـ وفيات ٤٨١ هـ ـ ٤٩٠ هـ ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

[١٥٩] بل الضّعيفُ مَنْ يَروي الموضُوعات ولا يتكلَّمُ عليها

« زعمَ الحافظُ ابنُ ناصرٍ[١] أنّه[٢] كان ضعيفاً، أَلْحَقَ سماعَهُ في جُزءٍ من تاريخ الخطيب، فقلتُ له: لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: لأنّي سمعتُ الكتابَ كلَّهُ ».

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : لا يُؤثِّرُ قَدْحُ ابن ناصرٍ فيه ؛ فإنّ الرّجُلَ كان فيه نباهةٌ ، وما يمنع أنّه كان له فَوْتٌ فأُعيدَ له بعد كتابة الطّبقة، ثمّ أَلْحَقَ اسمَهُ، بل الضّعيفُ مَن يروي الموضُوعات ولا يتكلّم عليها »[٣] .

[١٦٠] يا أبا الفَرَج لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثلَهُ

ذكرَ أبو سعدٍ ابنُ السّمعانيّ في كتابه « المُذَيَّل » الحافظَ أبا الفضل محمّدَ بن ناصرٍ السُّلامي فقال : « كان يحبُّ أن يقع في النّاس » .

---

(١) أبو الفضل محمّد بن ناصر السُّلامي .

(٢) أي أبو عبد الله محمّد بن يحيى بن عبد الله بن زكريّا بن الفرّاء الأندلسيّ .

(٣) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٥١١ هـ ـ ٥٢٠ هـ ، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

قال ابنُ الجوزي في « المنتظم » : « وهذا قبيحٌ من أبي سعدٍ، فإنّ صاحبَ الحديث ما يزالُ يُجرِّحُ ويُعَدِّلُ، فإذا قال قائلٌ: إنّ هذا وقوعٌ في النّاس، دلّ على أنّه ليس بمحدِّثٍ، ولا يعرفُ الجَرْحَ من الغِيبَة. ومُذَيَّلُ ابن السّمعانيّ ما سمّاهُ إلاّ ابنُ ناصرٍ، وقد احتجّ بكلامه في أكثر التّراجم، فكيف عوّل عليه في الجرح والتّعديل ثمّ طعن فيه ؟ ولكن هذا منسوبٌ إلى تعصّب ابن السّمعاني على أصحاب أحمد، ومن طالعَ كتابَهُ رأى تعصّبَهُ البارد وسُوءَ قصدِه، ولا جَرَمَ لم يُمَتَّع بما سمعَ، ولا بلغ رتبةَ الرّواية » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ معلِّقاً :

« قلتُ : يا أبا الفَرَج ، لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثلَهُ ؛ فإنّه عليك في هذا الفصل مُؤاخذاتٌ عديدةٌ :

منها : أنّ أبا سعدٍ لم يقُل شيئاً في تجريحه وتعديله، وإنّما قال: إنّه يتكلّمُ في أعراض النّاس، ومن جرّح وعدّل لم يُسَمَّ في عُرْفِ أهل الحديث أنّه يتكلّمُ في أعراض النّاس، بل قال ما يجبُ عليه، والرّجلُ فقد قال في ابن ناصرٍ عبارتَك بعينك التي سرقتها منه وصبغتَهُ بها. بل وعامّةُ ما في كتابك المنتظم من سنة نيّف وستّين وأربعمائة إلى وقتنا هذا من التّراجم إنّما أخذتَهُ من ذيل الرّجل، ثمّ أنتَ تَتَفَاجَمُ عليه وتَتَفَاجَحُ. ومن نظرَ في كلام ابن ناصرٍ في الجرح والتّعديل أيضاً عَرَفَ عَتْرَسَتَهُ وتعسُّفَهُ في بعض الأوقات.

ثمّ تقُول : فإذا قال قائلٌ : إنّ هذا وقوعٌ في النّاس دلّ على أنّه ليس بمحدِّثٍ، ولا يعرفُ الجرحَ من الغِيبَة ؛ فالرّجلُ قال قولَهُ وما تعرّض لا إلى جَرْحٍ ولا غِيبَةٍ حتّى تُلزمه شيئاً ما قاله. وقد علمَ الصّالحُون بالحديث أنّه أعلمُ منك بالحديث والطُّرق والرّجال والتّاريخ، وما أنتَ وهو بسواء، وأين مَنْ

أَضْنى عُمُرَهُ في الرّحلة والفنّ خاصّةً، وسمع من أربعة آلاف شيخٍ، ودخلَ الشّامَ والحجازَ والعراقَ والجبَالَ وخُراسان وما وراءَ النّهر، وسمع في أكثر من مائة مدينةٍ، وصنّف التّصانيف الكثيرة، إلى من لم يسمع إلاّ ببغداد، ولا روى إلاّ عن بضعةٍ وثمانين نفساً ؟! فأنتَ لا ينبغي أن يُطلق عليك اسمُ الحفظ باعتبار اصطلاحنا، بل باعتبار أنّك ذو قوّةٍ حافظةٍ، وعلمٍ واسعٍ، وفنونٍ كثيرةٍ، واطّلاعٍ عظيمٍ ، فغفر الله لنا ولك .

ثمّ تنسبُه إلى التّعصُّب على الحنابلة، وإلى سُوء القصد، وهذا ـ والله ـ ما ظهرَ لي من أبي سعدٍ، بل ـ والله ـ عقيدتُه في السُّنّةِ أحسنُ من عقيدتك، فإنّك يوماً أشعريٌّ، ويوماً حنبليٌّ، وتصانيفُك تُنبىءُ بذلك. فما رأينا الحنابلةَ راضين بعقيدتك ولا الشّافعيّة، وقد رأيناكَ أخرجتَ عدّةَ أحاديثَ في الموضُوعات، ثمّ في مواضع أُخَر تحتجُّ بها وتُحَسِّنُها ... »[1] .

[١٦١] أتى فيه بالبرّة وأُذُن الجَرَّة

« كان الشّيخُ[2] رضي الله عنه عَديمَ النّظير، بَعيد الصِّيت، رأساً في العلم والعمل، جمعَ الشّيخُ نُورُ الدِّين الشَّطَنُوفيّ المُقرىءُ كتاباً حافِلاً في سيرته وأخباره في ثلاث مجلّداتٍ، أتى فيه بالبَرّة وأُذُن الجَرَّة، وبالصّحيح والواهي والمكذُوب، فإنّه كتبَ فيه حكاياتٍ عن قومٍ لا صِدْقَ لهم ... »[3] .

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٥٤١ هـ ـ ٥٥٠ هـ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧ .

(٢) يعني أبا محمّدٍ عبد القادر بن عبد الله الجيليّ الحنبلي الزّاهد .

(٣) المصدر نفسه ـ وفيات ٥٦١ هـ ـ ٥٧٠ هـ ، ص ١٠٠ .

[١٦٢] كشفُ الحديثِ المكذُوبِ وهَتْكُهُ

« وهو[١] مع جلالتِه وحفظِه يَروي الأحاديثَ الواهيةَ والموضُوعةَ ولا يتبيّنها، وكذلك كان عامّةُ الحُفّاظ الذين بعد القُرون الأولى[٢]، إلاّ مَنْ شاء ربُّك، فليسألنّهُم الله تعالى عن ذلك. وأيُّ فائدةٍ بمعرفة الرّجال، ومصنّفات التّاريخ والجَرح والتّعديل إلاّ كشفُ الحديث المكذُوب وهَتْكه »[٣] .

[١٦٣] لا يزالُ الرّجلُ بعقلِه حتّى ينتصبَ لعداوة يزيد أو ينتصر له

« وصنّف[٤] كتاباً في فضائل يزيد أتى فيه بالعجائب، ولو لم يُصنِّفْهُ لكان خيراً له، وعمِلَهُ رَدّاً على ابن الجوزي، ووقع بينهما عداوةٌ لأجل يزيد، نسألُ الله أن يُثبِّتَ عقولَنا، فإنّ الرّجُلَ لا يزالُ بعقلِه حتّى ينتصبَ لعداوة يزيد أو ينتصر له ... »[٥] .

---

(١) يعني الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق .

(٢) يعني في القرون المتأخّرة ، مع ملاحظة أنّ هؤلاء الحُفّاظ يُسندون تلك الأحاديث الواهية، وقد يُعذرون على قاعدة : من أسند لك فقد أحالك، ومع ذا شدّد الحافظُ الذّهبي رحمه الله في الأمر، فكيف بمن يورد تلك الواهيات بلا إسنادٍ ولا خطامٍ .

(٣) تاريخ الإسلام - وفيات ٥٧١ هـ - ٥٨٠ هـ ، ص ٨٢ .

(٤) يعني الشّيخ المحدِّث عبد المُغيث بن زهيرٍ البغدادي الحربيّ .

(٥) تاريخ الإسلام - وفيات ٥٧١ هـ - ٥٨٠ هـ ، ص ٨٢ .

[١٦٤] شأنُ مَنْ فَرَّقَ نفسَهُ في بحُور العلم

« مع تبحُّر ابن الجوزي في العلُوم، وكثرة اطِّلاعِـه، وسَعَة دائرتِـه، لم يكُن مُبرِّزاً في علمٍ من العلُوم، وذلك شـأنُ كـلِّ مَـنْ فـرَّق نفسَهُ في بحُـور العلم، ومـع أنّـه كـان مُـبَرِّزاً في التّفسـير والوعـظ والتّـاريخ، ومتوسِّـطاً في المذهب، متوسِّطاً في الحديث، له اطِّلاعٌ تامٌّ على متُونه، وأمّا الكـلامُ علـى صحيحه وسقيمه فما له فيه ذَوْقُ المحدِّثين، ولا نَقْدُ الحُفّـاظ المُبَرِّزين، فإنّـه كثيرُ الاحتجـاج بالأحـاديث الضّعيفـة، مـع كونـه كثـير السِّـياق لتلـك الأحاديث في الموضُوعات. والتّحقيقُ أنّه لا ينبغي الاحتجاجُ بها ولا ذِكْرُها في الموضُوعات، وربَّما ذَكَرَ في الموضُوعات أحاديثَ حِساناً قويّةً ... »[١] .

[١٦٥] حَالٌ دَجَّالِيٌّ وحَالٌ رَحْمَانِيٌّ مَلَكِيٌّ

« لا يغترّ المسـلمُ بكشـفٍ ولا بحـالٍ، فقـد تواتـرَ الكشـفُ والبُرْهـانُ للكُهّان وللرُّهْبان، وذلك من إلهام الشّيطان، أمّا حالُ أولياءِ الله وكراماتُهم فحقٌّ. وإخبارُ ابن صائدٍ بالمُغَيَّبات حالٌ شيطانيٌّ، وقد سأله النّبيّ ﷺ فقال: مَنْ يأتيك ؟ يعني : من الجنّ ، فقال : صادِقٌ وكاذِبٌ ، قال : خُلِّطَ عليك الأمرُ. ولمّا أضمرَ له النّبيُّ ﷺ ، وخبَّأَ له في نفسِه ثـمّ قـال: مـا هـو ؟ قـال:

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٥٩١ هـ ـ ٦٠٠ هـ ، ص ٣٠٠ .

الدُّخُّ ، قال له النّبيُّ عليه السّلام : اخْسَأْ ، فلن تَعْدُوَ قَدْرَكَ. فهذا حالُه دَجَّالِيٌّ ، وعُمَرُ بن الخطّاب والعَلاءُ بن الحضرميّ وغيرُهما حالُهُم رَحْمَانيٌّ مَلَكِيٌّ. وكثيرٌ من المشايخ يُتوقَّفُ في أمرهم فلم يتبرهن لنا مِنْ أيِّ القسمين حالُهُم ؟ وا اللهُ أعلمُ ، ومنه الهُدى والتّوفيقُ »[1] .

[١٦٦] أما خافَ من ا لله إذ زعمَ أنّه صنّف كتاباً فيه سبعةُ آلاف روايةٍ !

في ترجمة أبي القاسم عيسى بن عبد العزيز بن عيسى الأندلسيّ الشَّريشيّ الإسكندراني المُقرىء نقل الذّهبيُّ عن ابن مَسْدي قولَه :

« وله كتابُ الجامع الأكبر والبحر الأزخر في اختلاف القُرّاء، يحتوي على سبعة آلاف روايةٍ وطريق ... » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ مُعَلِّقاً :

« قلتُ : ... قد طال الخِطابُ في كشف حال الرّجُل، وبدُون ما ذكرنا يُتْرَكُ الشّخصُ، أما خافَ من ا لله إذ زعمَ أنّه صنّف كتاباً فيه سبعةُ آلاف روايةٍ ! فوا لله إنّ القُرّاءَ كلّهُم من الصّحابة إلى زمانه ـ أعني الذين سُمُّوا من أهل الأداء في المشارق والمغارب ودُوِّنُوا في التّواريخ ـ لا يبلغُون سبعةَ آلافٍ بل ولا أربعةَ آلافٍ، وأنا مُتَرَدِّدٌ في الثّلاثة آلافٍ هل يصلُون إليها أم لا ؟ هذا أبو القاسم الهُذَليُّ الذي لم يرحَلْ أحدٌ في القراءات ولا في

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٦١١ هـ ـ ٦٢٠ هـ ، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ .

الحديث مثلُه، وله مائةُ شيخٍ قرأ عليهم القرآنَ، جمع في كتابه الغَثَّ والسَّمِينَ، والمشهورَ والشّاذَّ، والعالي والنّازل، وما تحلُّ القراءةُ به وما لاتحلُّ، وأَرْبَى على المتقدِّمين والمتأخِّرين، لم يُمكنهُ أن يأتي في كتابه بأكثر من خمسين روايةً من ألف طريقٍ، وقد يكونُ الطّريقُ مثلَ أن يروي مسلمٌ الحديثَ عن قُتيبة عن اللّيث، وعن عبد الملك بن شعيب بن اللّيث عن أبيه عن اللّيث، فيُسمِّي ذلك طريقين ... وما أنا ممّن يُتَّهَمُ بالحطِّ على ابن عيسى، فلو كنتُ مُداهِناً أحداً لداهنتُ في أمره، لأنّني قرأتُ التّيسيرَ في مجلسٍ على سِبْط زيادة بأصل سماعه منه قال: أخبرنا عبدُ الله بن محمّد بن خَلَف، أخبرنا ابنُ عبد القدّوس، عن مؤلِّفه؛ فوددتُّ لو ثبتَ لي هذا الإسناد العالي ولكنّه شيءٌ لا يصحُّ ... »[1] .

[١٦٧] مَنْ صدّق بهذه الأعجُوبة فما لنا فيه طَبٌّ

« مَنْ صدّق بهذه الأعجُوبة، وآمنَ ببقاء رَتَن[2]، فما لنا فيه طَبٌّ، فليُعلم أنّني أوّلُ مَنْ كذّب بذلك، وأنّني عاجزٌ منقطعٌ معه في المناظرة.

وما أُبْعِدُ أن يكون جنّياً تبدَّى بأرض الهند، وادّعى ما ادّعى، فصدّقُوه، لأنّ هذا شيخٌ مفترٍ كذّابٌ، كَذَبَ كَذْبَةً ضخمةً لكي تنصلح خابيةُ الضّياع، وأتى بفضيحةٍ كبيرةٍ، فوالذي يُحْلَفُ به إنّ رَتَن لكذّابٌ،

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٦٢١ هـ ـ ٦٣٠ هـ ، ص ٣٦٩ .

(٢) رَتَن الهنديُّ الذي زعمُوا أنّه صحابيٌّ، وأنّه بقي إلى سنة تسعٍ وسبعمائة !

قاتلَهُ اللهُ أنّى يُؤفَكُ، وقد أفردتُّ جزءاً فيه أخبارُ هذا الضّالّ، وسمّيتُه: كسر وثن رتن »[١] .

[١٦٨] كادتْ أصبهان أن تُضاهيَ بغداد في عُلُوِّ الإسنادِ

« لقد كانت أصبهانُ تَكادُ أن تُضاهي بغدادَ في عُلوِّ الإسناد في زمان أبي محمّد بن فارسٍ والطّبرانيّ وأبي الشّيخ، ثمّ كان بعدهُم طبقةٌ أخرى في العُلُوّ وهُم: أبو بكر بن المُقرىء وغيرُه، ثمّ طبقةُ أبي عبد الله بن منده العَبْدي وأبي إسحاق بن خُرَّشِيد قُولَهْ، وأبي جعفر بن المرزُبان الأبهريّ، ثمّ طبقةُ أبي بكر بن مَرْدويه وأبي نُعيمٍ، ثمّ طبقةُ ابن ريذَه وأبي طاهر بن عبد الرّحيم ورُواةِ أبي الشّيخ، ثمّ طبقةُ أصحاب ابن المُقرىء، ثمّ أصحاب ابن منده، ثمّ طبقةُ مَنْ بعدهُم .

هكذا إلى أن سلّطَ اللهُ عليهم بذنُوبهم العَدُوَّ الكافرَ ليُكفِّرَ عنهم ، ويُعَوِّضهُم بالآخرة الباقيَة، فنسألُ اللهَ العفوَ والعافيَة »[٢] .

---

(١) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٦٢١ هـ ـ ٦٣٠ هـ ، ص ٣٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٩ .

[١٦٩] هذا الفعلُ خلافُ السُّنّةِ

قال ابنُ خلّكان في ترجمة المقرىء علم الدِّين عليّ بن محمّدٍ السّخاويّ رحمه الله تعالى:

« رأيتُه مراراً راكباً بهيمةً إلى الجبل، وحولهُ اثنان أو ثلاثةٌ يقرؤُون عليه في أماكنَ مختلفةٍ دَفْعةً واحدةً، وهو يردُّ على الجميع ».

قال الحافظُ الذّهبيُّ مُعلِّقاً:

« قلتُ: وفي نفسي شيءٌ مِنْ صحّة الرّواية على هذا النَّعْتِ لأنّه لا يُتَصوَّرُ أن يسمعَ مجمُوعَ الكلمات، فما جعلَ الله لرجُلٍ من قلبين في جَوْفِه. وأيضاً فإنّ مثلَ هذا الفعلِ خلافُ السُّنّةِ، ولا أعلمُ أحداً من شيُوخ المُقرئين كان يترخّصُ في هذا إلاّ الشّيخ علم الدِّين »[(١)].

[١٧٠] دخلَ في شيءٍ من الهَذَيان والضّلال

« دخلَ[(٢)] في شيءٍ من الهَذَيان والضّلال، وعمِلَ دائرةً، وادّعى أنّه يستخرجُ منها علمَ الغيب وعلمَ السّاعة، نسألُ الله السّلامةَ في الدِّين، ولعلّه - إن شاء الله - رجعَ عن ذلك »[(٣)].

---

(١) تاريخ الإسلام - وفيات ٦٤١ هـ - ٦٥٠ هـ، ص ١٩٥ .

(٢) يعني أبا سالمٍ محمّد بن طلحة القرشيَّ الشّافعيَّ .

(٣) المصدر نفسه - وفيات ٦٥١ هـ - ٦٦٠ هـ، ١٣٥ .

[١٧١] الأوْباشُ المجانينُ ليسوا بأولياء لله عزّ وجلّ

في ترجمة يوسف القُمِّيني قال الحافظُ الذّهبيُّ:

« شيخٌ مشهورٌ بدمشق، للنّاس فيه حُسْنُ اعتقادٍ، وكان يأوي إلى القَمامين، والمزابل التي هي مأوى الشّياطين، ويلبسُ ثياباً تكنسُ الأرضَ، وتتنجّسُ ببوله، ويمشي حافياً، ويترنّحُ في مشيتِه، ذا مهابةٍ ووَلَهٍ ممّا ....

وقد بصَّرنا اللهُ ـ وله الحَمْدُ ـ وعرَّفَنا هذا النّمُوذَجَ، وأنّ لهم شياطينَ تطمعُ فيهم لنقص عقُولهم، وتجري منهم مجرى الدّم، وتتكلّمُ على ألسنتهم بالمُغيّبات، فيَضِلُّ النّاسُ، ويتألّهُونهم، ويعتقدُون أنّهم أولياءُ الله، فإنّا لله وإنّا إليه راجعُون، فقد عمّ البلاءُ في الخَلْقِ بهذا الضَّرْبِ ...

وهذا زماننا فيه واحدٌ اسمُه إبراهيم بظاهر باب شرقيّ، له كشوفاتٌ كالشّمس وما أكثرَها ... وهو زُطِّيٌّ سفيهٌ نَجسٌ قد أحرقتهُ السّوداءُ، وله شيطانٌ ينطقُ على لسانه، فما أجهلَ من يعتقدُ في هذا وشبهه أنّه وليُّ الله، والله يقولُ في أوليائه إنّهم ﴿الذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[1]. وقد كان في الجاهليّة خَلْقٌ من الكُهّان يُخبرُون بالمُغيَّبات، والرُّهبانُ لهم كَشْفٌ وإخبارٌ بالمُغَيَّبات، والسّاحرُ يخبرُ بالمُغيّبات، وفي زماننا نساءٌ ورجالٌ بهم مَسٌّ من الجنِّ يُخبرون بالمُغَيَّبات على عدد الأنْفاس. وقد صنّف شيخُنا ابنُ تيميّة غيرَ مسألةٍ في أنّ أحوالَ هؤلاء وأشباههم شيطانيّةٌ، ومن هذه الأحوال

(١) يونس: الآية ٦٣.

الشّيطانيّة التي تُضلُّ العامّةَ أكلُ الحيّات، ودخولُ النّـار، والمشـيُ في الهـواء، ممّن يَتعانى المعاصي، ويُخِلُّ بالواجبات.

فنسألُ اللهَ العَوْنَ على اتّباع الصّراط المستقيم، وأن يكتُبَ الإيمـانَ في قلُوبنا، وأن يُؤيِّدنا برُوحٍ منه، ولا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله.

وقد يجيءُ الجاهلُ فيقول: اسكُتْ، لا تتكلّم في أولياء الله، ولم يشعُر أنّه هو الذي تكلّم في أولياء الله وأهانَهُم، إذ أدخل فيهـم هـؤلاء الأوْبـاش المجانين، أولياء الشّياطين، قـال الله تعـالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾(١)، ثمّ قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

ومـا اتّبـعَ النّـاسُ الأسـودَ العَنْسِـيَّ ومُسيلمةَ الكـذّابَ إلاّ لإخبـارهم بالمُغَيَّبات، ولا عُبِـدتْ الأوثـانُ إلاّ لذلـك، ولا ارتبـطَ خَلْـقٌ بـالمنجّمين إلاّ لشيءٍ من ذلك، مع أنّ تسعةَ أعْشار ما يُحكى من كذب النّاقلين.

وبعضُ الفضلاء تراهُ يخضعُ للمُولَّهين، والفقـراء النّصّـابين، لمـا يَـرى منهم، وما يأتي به هؤلاء يأتي بمثله الرُّهبـانُ، فلهـم كشـوفاتٌ وعجـائبُ، ومع هذا فهُم ضُلاّلٌ من عَبَدَةِ الصُّلْبان.

فـأينَ يُذْهَـبُ بـكَ ؟! ثبّتنـا اللهُ بـالقول الثّـابت في الحيـاة الدُّنيـا وفي الآخرة وإيّاكَ »(٢).

---

(١) الأنعام: الآية ١٢١.

(٢) تاريخ الإسلام ـ وفيات ٦٥١ هـ ـ ٦٦٠ هـ، ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠. وانظر ما تقدّم برقم: ١١٨.

[١٧٢] أشرفُ طرق الأنبياء وأفضلُها طريقةُ نبيِّنا ﷺ

« الله لا يسأل العبدَ لِمَ لا أكلتَ كُلَّ مباحٍ، بل يسأله لِمَ أكلتَ الحرامَ، ويسأله لماذا حرّمتَ على نفسِك ما أبحتُ لك مع علمك بإباحتي له، لا مع جهلك بالإباحة، هذا مع التّسليم بأنّ الورعَ بالعلم أفضلُ وأرفعُ، وذلك حالُ الأنبياء صلواتُ الله عليهم، مع أنّ لهم فيه شرائعَ وطرائقَ كطريقة سليمان عليه السّلام في المُلْك والإكثار من مُباحات الدُّنيا، وكطريقة عيسى عليه السّلام في السِّياحة والإعراض عن الدُّنيا بكلِّ وجهٍ، وكطريقة داود في أمورٍ، وطريقة إبراهيم الخليل في قِرى الضّيف.

وأشرفُ طُرقهم وأفضلُها طريقةُ نبيِّنا ﷺ ، فإنّها حنيفيّةٌ إبراهيميّةٌ سَمْحَةٌ سَهْلَةٌ بريئةٌ من الغلوِّ والتّعمُّق والتّنطُّع، اللّهمّ استعملنا بها، وأمتنا على محبّتها، واكفِنا الوقيعةَ في عبادك الصّالحين »[1] .

[١٧٣] يا حَسْرَةً على العباد كيف لا يغضبُون لله تعالى

« كان[2] صوفيّاً على قاعدة زُهدِ الفلاسفة وتصوّفِهم. وله كلامٌ كثيرٌ في العِرْفان على طريق الاتِّحاد والزّندقة، نسألُ الله السّلامةَ في الدِّين. وقد

(١) تاريخ الإسلام - وفيات ٦٦١ هـ - ٦٧٠ هـ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) يعني ابن سبعين .

ذكرنا محطّ هؤلاء الجنس في ترجمة ابن الفارض وابن العربيّ[1] وغيرهما. فيا حَسْرَةً على العباد كيف لا يغضبُون لله تعالى، ولا يقومون في الذّبِّ عن معبُودهم، تبارك اسمُه، وتقدّست ذاته، عن أن يمتزج بخَلْقِه أو يَحلَّ فيهم، وتعالى الله عن أن يكون هو عَيْنُ السّموات والأرض وما بينهما، فإنّ هذا الكلامَ شرٌّ مِن مقالة مَن قال بِقِدَمِ العالَم. ومَنْ عرفَ هؤلاء الباطنيّة عذرني، أو هو زنديقٌ مُبْطِنٌ للاتّحاد ويذبٌّ عن الاتّحاديّة والحلوليّة، ومن لم يعرفهُم فالله يثيبُه على حُسن قصده .

وينبغي للمرء أن يكون غضبُه لربِّه إذا انتُهكتْ حرماتُه أكثرَ من غضبه لفقيرٍ غير معصومٍ من الزّلل، فكيف بفقيرٍ يحتملُ أن يكون في الباطن كافراً، مع أنّا لانشهدُ على أعيان هؤلاء بإيمانٍ ولا كُفرٍ؛ لجواز توبتهم قبل الموت، وأمرُهم مُشْكِلٌ، وحسابُهم على الله، وأمّا مقالاتُهم فلا رَيْبَ في أنّها شرٌّ من الشِّرْك .

فيا أخي ، ويا حبيبي ، إعْطِ القوسَ باريها، ودَعْني ومعرفتي بذلك، فإنّني أخافُ الله أن يُعَذّبني على سُكُوتي، كما أخافُ أن يُعَذّبني على الكلام في أوليائه، وأنا لو قلتُ لرجُلٍ مُسلمٍ: يا كافرُ، لقد بُؤْتُ بالكفر، فكيف لو قلتُه لرجلٍ صالحٍ أو وليٍّ لله تعالى ...

وإن فتحنا بابَ الاعتذار عن المقالات، وسلكنا طريقةَ التّأويلات المستحيلات، لم يبقَ في العالَم كفرٌ ولا ضلالٌ، وبطلتْ كتبُ الملل والنِّحَل

---

(١) يعني الحاتمي صاحب الفصوص لا أبا بكر بن العربي الأندلسي شارح التّرمذي وغيره.

واختلاف الفِرَق ... ومن طالعَ كتبَ هؤلاء علم علماً ضروريّاً بأنّهُم اتّحاديّةٌ ، مارِقَةٌ من الدِّين ... »[1] .

[١٧٤] ينبغي للعالم أن لا يستعجلَ على الجاهل بل يرفقُ به ويعلّمُه ممّا علّمه الله تعالى

« اعلم أنّ كثيراً من الكبائر بل عامّتُها إلاّ الأقلّ يجهلُ خَلْقٌ كثيرٌ من الأمّة تحريمَه، وما بلغهُ الزّجْرُ فيه ولا الوعيدُ، فهذا الضَّرْبُ فيهم تفصيلٌ :

فينبغي للعالِم أن لا يستعجلَ على الجاهل بل يرفقُ به، ويعلِّمُه ممّا علّمهُ الله، ولا سيما إذا كان قريبَ عهدٍ بجاهليّةٍ، قد نشأ في بلاد الكُفر البعيدة، وأُسر وجُلب إلى أرض الإسلام، وهو تُرْكِيٌّ أو كَرَجِيٌّ مشركٌ لا يعرف بالعربيّ، فاشتراهُ أميرٌ تركيٌّ لا علمَ عنده ولا فهم، فبالجهد إن تلفّظ بالشّهادتين، فإن فهم بالعربيّ حتّى يفقهَ معنى الشّهادتين بعد أيّام وليالٍ فبها ونِعْمَتْ، ثمّ قد يُصلّي وقد لا يصلّي، وقد يُلَقَّنُ الفاتحةَ مع الطُّول إنْ كان أستاذُه فيه دِينٌ ما، فإن كان أستاذُه نسخةً منه فمِنْ أين لهذا المسكين أن يعرف شرائعَ الإسلام والكبائرَ واجتنابَها، والواجباتِ وإتيانَها ؟ فإن عُرِّفَ هذا موبقاتِ الكبائر وحُذِّرَ منها، وأركانَ الفرائضِ واعتقدَها، فهو سعيدٌ، وذلك نادرٌ ، فينبغي للعبد أن يحمدَ الله تعالى على العافية .

(١) تاريخ الإسلام - وفيات ٦٦١ هـ - ٦٧٠ هـ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٧ .

فإن قيل : هو فرّطَ لكونه ما سألَ عمّا يجبُ عليه .

قيل : هذا ما دارَ في رأسه ، ولا استشعرَ أن سؤالَ مَنْ يُعَلِّمُه يجبُ عليه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَل اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾(١)، فلا يأثَمُ أحدٌ إلاّ بعد العلم، وبعد قيام الحجّة عليه، واللهُ لطيفٌ بعباده رؤوفٌ بهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(٢). وقد كان سادةُ الصّحابة بالحبشة وينزلُ الواجبُ والتّحريمُ على النّبيّ ﷺ فلا يبلُغهم تحريمُه إلاّ بعد أشهُر، فهم في تلك الأشهر معذورُون بالجهل حتّى يبلغَهم النصُّ، فكذا يُعْذَرُ بالجهل كلُّ مَنْ لم يعلم حتّى يسمع النصَّ ، والله تعالى أعلم »(٣) .

[١٧٥] أَشَرُّ الكِبْرِ مَن تكبّر على العباد بعلمِه

« أَشَرُّ الكِبْرِ مَن تكبّر على العباد بعلمِه، وتعاظمَ في نفسِه بفضيلتِه، فإنّ هذا لم ينفعهُ علمُه، فإنّ من طلبَ العلمَ للآخرة كَسَرَهُ علمُه، وخشعَ قلبُه، واستكانت نفسُه، وكان على نفسه بالمرصاد، فلم يفتر عنها، بل يحاسبها كلَّ وقتٍ ويثقفها؛ فإن غفلَ عنها جمحتْ عن الطّريق المستقيم وأهلكتهُ. ومن طلب العلمَ للفخر والرّياسة، ونظرَ إلى المسلمين شَزْراً، وتحامقَ عليهم، وازدرى بهم ، فهذا من أكبر الكِبْر، ولا يدخل الجنّةَ مَنْ في قلبه ذَرَّةٌ مِنْ كِبْرٍ ، فلا حَوْلَ ولا قُوّةَ إلاّ بالله »(٤) .

---

(١) النُّور : الآية ٤٠ .

(٢) الإسراء : الآية ١٥ .

(٣) كتاب الكبائر وتبيين المحارم ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٧٩ .

[١٧٦] قواعدُ هامّةٌ في التّعامل مع الجيران

« إذا كان الجارُ صاحبَ كبيرةٍ فلا يخلُو إمّا أن يكون مُتستِّراً بها، ويغلقُ بابَهُ عليه، فليُعرضْ عنه، ويتغافلْ عنه، وإن أمكنَ أن ينصحَهُ في السّرّ ويعظُه فحسنٌ، وإن كان مُتظاهراً بفسقه مثل مَكّاسٍ أو مُرابي فتهجره هجراً جميلاً، وكذا إن كان تاركاً للصّلاة في كثيرٍ من الأوقات، فمُرْهُ بالمعروف، وانهه عن المنكر مرّةً بعد أخرى، وإلاّ فاهجُره في ا لله لعلّه أن يَرْعَوِيَ، ويحصلَ له انتفاعٌ بالهِجْرَة من غير أن تقطع عنه كلامَك وسلامَك وهديّتَك، فإن رأيتَهُ مُتمرِّداً عاتياً بعيداً من الخير فأعرضْ عنه، واجهدْ أن تتحوّل مِن جِواره، فقد تقدّم أنّ النّبيّ ﷺ تعوّذ من جار السُّوء في دار الإقامة.

فإن كان الجارُ دَيُّوثاً أو قليلَ الغَيْرَة أو حَريمُه على غير الطّريق المستقيم فتحوّل عنه، أو فاجهد أن لا يُؤذُون زوجتَك فإنّ في ذلك فساداً كثيراً، وخفْ على نفسك المسكينة، ولا تدخُل منزلَه، واقطع الوُدَّ بكلِّ ممكنٍ، وإن لم تقبل منّي ربّما حصل لك هوى وطمعٌ، وغُلِبْتَ عن نفسك أو أمِّك(١) أو خادمتك أو أختك، وإن ألزمتَهُم بالتّحَوُّل عن جِوارك فافعل بلطفٍ وبرغبةٍ وبرهبةٍ .

---

(١) في المطبوع : أو أنبك ، ولعلّ المثبت أقرب .

فإن كان جارُك رافضيّاً أو صاحبَ بدعةٍ كبيرةٍ ؛ فإن قدرت على تعليمه وهدايته فاجهد، وإن عجزتَ فانجمع عنه ولا تُوادّه ولا تُصافّه، ولا تكون له مُصادِقاً ولا مُعاشِراً ، والتّحوّلُ أولى بك .

فإن كان جارُك يهوديّاً أو نصرانيّاً في الدّار أو في السُّوق أو في البستان فجاوره بالمعروف ولا تُؤذه ...

فأمّا مَنْ جعلَ إجابةَ دعوتهم دَيْدَنَهُ، وعاشرهُم وباسطهُم فإنّ إيمانَهُ يَرِقُّ وقد قال الله تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمِ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾(١) .

فإن انضافَ إلى جِواره كونُه [من] قرابتك أو ذوي رحمك فهذا حقُّه آكَدُ، وكذا إن كان أحدُ أبويك ذمّيّاً فإنّ للأبوين وللرَّحِم حقّاً فوق حقُوق الجوار؛ فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

وكذا ردُّ السّلام فلا تبدأ أحداً مِن هؤلاء بسلامٍ أصلاً، وإذا سلّمَ أحدٌ منهم عليك فقُلْ: وعليكُم، أمّا كيف أصبحتَ، كيف أمسيتَ، فهذا لا بأسَ به، وأن يقول منه بغير إسرافٍ ولا مُبالغةٍ في الردِّ قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾(٢) .

---

(١) المجادلة : الآية ٢٢ .

(٢) المائدة : الآية ٥٤ .

فالمؤمنُ يتواضعُ للمؤمنين، ويتذلّلُ لهم، ويتعزّزُ على الكافرين ولا يتضاءلُ لهم، تعظيماً لحرمة الإسلام، وإعزازاً للدِّين، من غير أن تُؤذيهُم، ولا تودّهم كما تودُّ المسلم »(١).

[١٧٧] كلامُ الأقْرانِ بعضهم في بعضٍ لا يُعْبَأُ به

« كلامُ الأَقْرانِ بعضِهم في بعضٍ لا يُعْبَأُ به، لاسيما إذا لاحَ لك أنّه لعداوةٍ أو لمذهبٍ أو لحسدٍ، ما ينجُو منه إلاّ مَنْ عصمَ الله، وما علمتُ أنّ عصراً من الأعصار سَلِمَ أهلُه من ذلك، سوى الأنبياء والصّدِّيقين، ولو شئتُ لسردتُّ من ذلك كراريسَ، اللهّمَ فَـ : ﴿**لاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾(٢) »(٣) .

[١٧٨] واضعُ القِصَصِ التي لم تكُنْ قَطُّ

« أحمدُ بن عبد الله بن محمّدٍ أبو الحسن البَكْري ذاك الكذّابُ الدّجّالُ، واضعُ القِصَصِ التي لم تكن قّطُّ؛ فما أجهلَه وأقلَّ حَياه ! وما روى حَرْفاً من العلم بسندٍ، ويُقرأُ له في سُوق الكتبيّين كتابُ ضياء

(١) حقُّ الجار ص ٤٦ ـ ٤٩ .

(٢) الحشر : الآية ١٠ .

(٣) ميزان الاعتدال ١/١١١ . وانظر ما تقدّم رقم : ٥٣ .

الأنوار، ورأسُ الغُول، وشَرُّ الدَّهْر[١]، وكتابُ كلندجة، وحصنُ الدُّولاب، وكتاب الحصون السّبعة وصاحبُها هضام بن الجحاف، وحروب الإمام عليٍّ معه، وغير ذلك »[٢] .

[١٧٩] كيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخّرين كالقُوت وبهجة الأسرار وغيرهما

« كيف لو رأى أبو زُرْعَة تصانيفَ المتأخّرين كالقُوت لأبـي طالبٍ، وأين مثلُ القُوت ! كيف لو رأى بَهْجَـةَ الأسرار لابن جَهْضَمٍ، وحقائقَ التّفسير للسُّلَمي، لطارَ لُبُّه، كيف لو رأى تصانيفَ أبي حامدٍ الطُّوسيّ في ذلك على كثرة ما في الإحياء من الموضُوعات، كيف لو رأى الغُنْيَةَ للشّيخ عبد القادر ! كيف لو رأى فُصوصَ الحِكَمِ والفتوحات المكيّة ! بلى لمّا كان الحارثُ ـ يعني المُحاسبي ـ لسانَ القومِ في ذلك العصر، كان معاصرُه ألفَ إمامٍ في الحديث فيهم مثلُ أحمد بن حنبلٍ وابن راهويه، ولمّا صار أئمّةُ الحديث مثلُ ابن الدّخميسي وابن شحانة كان قطبُ العارفين كصاحب الفصوص وابن سفيان، نسألُ الله العوفَ والمُسامحةَ آمين »[٣] .

---

(١) في هذه التّسمية نوعُ سبٍّ للدَّهْر وقد ورد في الحديث النّهيُ عن سبِّه .

(٢) ميزان الاعتدال ١/١١٢ .

(٣) المصدر نفسه ١/٤٣١ .

[١٨٠] رَتَن وما أدراك ما رَتَن !

« رَتَن الهنديُّ ، وما أدراكَ ما رَتَن ! شيخٌ دجّالٌ بلا رَيْبٍ، ظهرَ بعد السّتّمائة فادَّعى الصُّحْبَةَ، والصّحابةُ لا يكذبُون، وهذا جرىءٌ على الله ورسُوله، وقد أَلّفتُ في أمره جزءاً. وقد قيل: إنّه مات سنة اثنتين وثلاثين وستّمائة، ومع كونه كذّاباً فقد كَذَبُوا عليه جملةً كبيرةً من أَسْمَجِ الباطل والمُحال »(١) .

[١٨١] بل شِبْرٌ من جَهْلٍ خيرٌ من باعٍ من حَظْوَةٍ

قال اللّيثُ بن سعدٍ : « رأيتُ أبا الزّناد وخَلْفَهُ ثلاثمائة تابعٍ، من طالب علمٍ وفقهٍ وشِعْرٍ وصنوفٍ، ثمّ لم يلبث أن بقي وحدهُ، وأقبلُوا على ربيعة، وكان ربيعةُ يقول : شِبْرٌ من حَظْوَةٍ خيرٌ منْ باعٍ مِنْ علمٍ » .

قال الحافظُ الذّهبيُّ مُعَلّقاً :

« اللّهمّ اغفِرْ لربيعة ، بل شِبْرٌ من جَهْلٍ خيرٌ من باعٍ من حَظْوَةٍ ؛ فإنّ الحَظْوَةَ وَبالٌ على العالِم، والسّلامةُ في الخُمول، فنسأل الله المُسامحةَ »(٢) .

---

(١) ميزان الاعتدال ٢/٤٤ ، وانظر ما تقدّم تحت رقم : ١٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢/٤١٩ .

[١٨٢] مَنْ أنعمَ النّظَر في فصوص الحِكَم أو أنعمَ التّأمُّلَ لاحَ له العجبُ

« مَنْ أنعمَ النّظَر في فصُوص الحِكَم أو أنعمَ التّأمُّلَ لاحَ له العجبُ؛ فإنّ الذّكِيَّ إذا تأمّل من ذلك الأقوالَ والنّظائرَ والأشباهَ فهو أحدُ رجُلين: إمّا مِن الاتّحاديّة في الباطن، وإمّا من المؤمنين بالله الذين يعدُّون أنّ هذه النِّحْلَة من أكفر الكُفر، نسألُ الله العفوَ، وأن يكتُبَ الإيمانَ في قلوبنا، وأن يُثبِّتنا بالقول الثّابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة. فوالله لأن يعيشَ المسلمُ جاهلاً خَلْفَ البَقَرِ لا يعرفُ من العلم شيئاً سوى سُوَرٍ من القرآن يُصلِّي بها الصّلوات، ويُؤمنُ بالله وباليوم الآخِر، خيرٌ له بكثيرٍ من هذا العِرْفان وهذه الحقائق، ولو قرأ مائةَ كتابٍ أو عمل مائةَ خَلْوَةٍ »(١) .

[١٨٣] ذَوْقُ النُّقّاد

« إن لم يكُن للإنسان ذَوْقُ النُّقّادِ ، وبَصَرُ الحُفّاظِ ، فإنّه يُضَعِّفُ الحديثَ القويَّ ، ويصحِّحُ الحديثَ الواهي ، مع أنّ أئمّةَ هذا الشّأن تختلفُ اجتهاداتُهم ، وتتقاربُ معارفُهم وأذواقُهم ، لكن يقلُّ ذلك وفيهم ينـدُر ، والله الهادي »(٢) .

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/٦٦٠ .

(٢) ذيل ديوان الضّعفاء والمتروكين ص ١٥ ـ تحقيق شيخنا حمّاد بن محمّدٍ الأنصاري رحمه الله.

[١٨٤] إن أحببتَ ـ يا عبدَ الله ـ الإنصاف

« إن أحببتَ ـ يا عبدَ الله ـ الإنصافَ فقِفْ مع نصُوص القرآن والسُّنن، ثمّ انظُر ما قاله الصّحابةُ والتّابعُون وأئمّةُ التّفسير في هذه الآيات، وما حكوهُ من مذاهب السّلف؛ فإمّا أن تنطقَ بعِلْمٍ، وإمّا أن تسكُت بحِلْمٍ. ودَعِ المراءَ والجدالَ فإنّ المِراءَ في القرآن كفرٌ، كما نطق بذلك الحديثُ الصّحيحُ. وسترى أقوالَ الأئمّة في ذلك على طبقاتهم بعد سَرْدِ الأحاديث النّبويّة، جمعَ الله قلوبَنا على التّقوى، ورزقنا الاجتنابَ عن الهوى. فإنّنا على أصلٍ صحيحٍ، وعِقْدٍ متينٍ، من أنّ الله تقدّس اسمُه لا مثلَ له، وأنّ إيمانَنا بما ثبتَ من نُعوته كإيماننا بذاته المقدّسة، إذ الصّفاتُ تابعةٌ للموصُوف، فنعقل وجودَ الباري، ونُميّز ذاتَه المقدّسةَ عن الأشباه من غير أن نتعقّل الماهيّة، فكذلك القولُ في صفاته نُؤمنُ بها، ونعقلُ وجودَها، ونعلمها في الجُملة من غير أن نتعقّلها أو نُشبّهها أو نكيّفها أو نمثّلها بصفات خَلْقِه ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً »[١] .

[١٨٥] آمنّا بالغيب ـ والله ـ

« آمنّا بالغيب ـ والله ـ ، وجزمنا بخبر الصّادق، ففي الجنّة ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلب بشرٍ، فما الظنُّ بالعرش العظيم

---

(١) العلوّ للعيّ الغفّار ص ١٣ .

الذي اتّخذه العليُّ العظيمُ لنفسه في ارتفاعه وسعتِه، وقوائمه وماهيتِه وحملتِه، والكروبيّين الحافّين من حولِه، وحُسنِه ورَوْنَقِه وقيمتِه ... سبحانَ الله وبحمدِه عددَ خَلْقِه، وزِنَةَ عرشِه، ورضا نفسِه، ومدادَ كلماتِه، ضاعت الأفكارُ وطاشت العقول، وكلّت الألسنةُ عن العبارة عن بعض المخلوقات، فالله أعلى وأعظم ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1] . تبّاً لذوي العقول الخائضة، والقلوب المعطّلة، والنّفوس الجاحدة، فـ: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]. اللّهمّ بحقّك عليك، وباسمك الأعظم، وكلماتك التّامّة، ثبِّت الإيمانَ في قلوبنا، واجعلنا هداةً مُهتدين.

نَعَمْ ما السّماواتُ والأرضُ في الكرسيّ إلاّ كحلقةٍ في فَلاةٍ، وما الكرسيُّ في العرش العظيم إلاّ كحلقةٍ في فَلاةٍ، اسمع وتعقّل ما يُقال لك، وتدبّر ما يُلقى إليك، والجأ إلى الإيمان بالغيب، فليس الخَبَرُ كالمُعاينةِ، قال الله تعالى: ﴿الذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى المَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[4]، وقال تعالى:

---

(١) آل عمران : الآية ٥٢ .

(٢) الزّمر : الآية ٦٧ .

(٣) غافر : الآية ٧ .

(٤) الزّمر : الآية ٧٥ .

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ﴾(٢) .

فالقرآنُ مشحونٌ بذِكْرِ العَرشِ، وكذلك الآثارُ بما يمتنعُ أن يكون المرادُ به الملكُ؛ فدَع المكابرةَ والمراءَ فإنّ المراءَ في القرآن كفرٌ، وما أنا قلتُه بل المصطفى ﷺ قالهُ »(٣) .

[١٨٦] لكلِّ مقامٍ مقَال ولكلّ نِزالٍ رجَال

« ولي المأمونُ وكان متكلّماً عُرِّبَتْ له كتبُ الأوائل، فدعا النّاسَ إلى القول بخَلْقِ القرآن، وتهدّدهُم وخوّفهُم، فأجابهُ خَلْقٌ كثيرٌ رغبةً ورهبةً، وامتنعَ من إجابته مثلُ أبي مُسْهرٍ عالم دمشق، ونُعيم بن حمّادٍ عالم مصر، والبُويطي فقيه مصر، وعَفّان محدِّث العراق، وأحمد بن حنبل الإمام، وطائفةٍ سواهُم فسجنهُم. ثمّ لم ينشب أن مات بطَرسُوس ودُفن بها، ونهض بأعباء المحنة قاضيه أحمدُ بن أبي دؤادٍ، وضربُوا الإمامَ أحمد ضرباً مُبَرِّحاً فلم يُجبهُم وناظرُوه، وجرتْ أمورٌ صعبةٌ من أرادَ أن يتأمّلها ويدري ما ثَمَّ كما ينبغي فليُطالع الكتبَ والتّواريخَ، وإلاّ فليجلس في بيته، ويدع النّاسَ من شرِّه، وليسكُتْ بحلمٍ، أو لينطقْ بعلمٍ، فلكلِّ مقامٍ مقَال، ولكلّ نِزالٍ رجَال ... »(٤) .

---

(١) الحاقّة : الآية ١٧ - ١٨ .

(٢) غافر : الآية ١٥ .

(٣) العلوّ للعليّ الغفّار ص ٦٨ - ٧٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٦١ - ١٦٢ .

[١٨٧] نادى على نفسه أنا أبو اعْرِفُوني

« القُرّاءُ المجوِّدَةُ فيهم تنطّعٌ وتحريرٌ زائدٌ يُؤدِّي إلى أنّ المُجَوِّدَ القارىءَ يبقى مصروفَ الهِمَّة إلى مُراعاة الحروف والتّنطّعِ في تجويدها، بحيث يشغلُه ذلك عن تدبُّر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفُه عن الخشوع في التِّلاوة، ويخليه قويَّ النّفس، مُزْدَرياً بحُفّاظ كتاب الله تعالى، فينظرُ إليهم بعين المَقْتِ، وبأنّ المسلمين يَلْحَنُون، وبأنّ القُرّاء لا يحفظُون إلاّ شواذّ القراءة، فليت شِعْرِي أنتَ ماذا عَرَفْتَ وماذا علمتَ ؟ فأمّا علمُك فغيرُ صالحٍ، وأمّا تلاوتُك فثقيلةٌ عَرِيَّةٌ عن الخشعة والحُزن والخوف، فالله تعالى يُوفِّقُك، ويُبَصِّرُك رُشْدَك، ويُوقظك من مَرْقَدَة الجهل والرّياء. وضدُّهم قُرّاءُ النّغَم والتّمطيط، وهؤلاء مَنْ قرأ منهم بقَلْبٍ وخوفٍ قد يُنْتَفَعُ به في الجُملة، فقد رأيتُ منهم مَنْ يقرأُ صحيحاً ويُطْرِبُ ويُبْكي، ورأيتُ منهم مَنْ إذا قرأ قَسَّى القلوبَ، وأبرمَ النّفوسَ، وبدّلَ الكلامَ، وأسوأُهم حالاً الجنائزيّةُ. وأمّا القراءةُ بالرّوايات وبالجَمْعِ فأبعدُ شيءٍ عن الخشُوع، وأَقْدَمُ شيءٍ على التّلاوة بما يُخْرِجُ من القصد، وشِعارُهم في تكثير وجوه حمزة، وتغليظِ تلك اللاّمات، وترقيقِ الرّاءات، اقرأْ يا رجُل، واعْفِنا من التّغليظ والتّرقيق، وفرط الإمالة والمدود، ووقوف حمزة، فإلى كم هذا ! وآخَرُ منهم إن حضرَ في خَتْمٍ أو تلا في محرابٍ جعل دَيْدَنَهُ إحضارَ غرائبِ الوجُوه، والسَّكْت والتّهَوُّع بالتّسهيل، وأتى بكلِّ خلافٍ، ونادى على نفسِه: أنا أبو

اعرفُوني، فإنّي عارفٌ بالسَّبْعِ، أَيْشٍ نَعْمَلُ بك ؟ لا وصبّحك الله بخيرٍ، إنّك حجرُ منجنيقٍ، ورصاصٌ على الأفئدة »[١] .

[١٨٨] أيُّ خيرٍ في حديثٍ مخلُوطٍ صحيحُه بواهيه وأنتَ لا تفلّيه ولا تبحث عن ناقليه

« أما المحدِّثُون[٢] فغالبُهم لا يفهمُون، ولا هِمَّةَ لهم في معرفة الحديث ولا في التَّدَيُّن به، بل الصّحيحُ والموضوعُ عندهم بنسبةٍ، وإنّما همّتهُم في السّماع على جهلة الشّيُوخ، وتكثير العَدَدِ من الأجزاء والرّواية، لا يتأدّبُون بآداب الحديث، ولا يستفيقُون من سَكْرَة السَّماع، الآنَ يسمع الجُزْءَ ونفسُه تحدِّثُه متى يرويه أَبَعْدَ خمسين سنةً ! ويحكَ ما أَطْوَلَ أملك، وما أَسْوَأَ عملك، معذورٌ سفيان الثّوريُّ يقول فيما رواهُ أحمدُ بن يوسف التّغلبيّ، حدّثنا خالدُ بن خداشٍ، حدّثنا حمّادُ بن زيدٍ قال سفيانُ الثّوريُّ: لو كان الحديثُ خيْراً لذهبَ كما ذهبَ الخَيْرُ. صدقَ والله، وأيُّ خَيْرٍ في حديثٍ مخلوطٍ صحيحُه بواهيه، وأنتَ لا تَفْليه، ولا تبحث عن ناقليه، ولا تَدينُ الله تعالى به. أمّا اليوم في زماننا فما يُفيدُ المحدِّثَ الطّلبُ والسّماعُ مقصودَ الحديثِ من التّدَيُّن به، بل فائدةُ السّماع لِيَرْوِيَ، فهذا والله لغير الله تعالى. خطابي معك يا محدِّث لا مع من يسمع ولا يعقل ولا يُحافظ

(١) بيان زغل العلم والطّلب ص ٤ ـ ٥ .

(٢) يعني في زمانه .

على الصّلوات، ولا يجتنب الفواحِش، ولا قِرْشَ الحشائِش، ولا يُحسن أن يتصدّق؛ فيا هذا لا تَكُن مُجْرِماً فاتِناً أنْحَسَ المَناحيس؛ فطالبُ الحديث اليومَ ينبغي له أن ينسخَ أوّلاً الجمعَ بين الصّحيحين، وأحكامَ عبد الحقّ، والضّياء، ويُدْمِنَ النّظرَ فيهم، ويُكثرَ من تحصيل تآليف البيهقيّ فإنّها نافعةٌ، ولا أقلَّ من مختصرٍ كالإلمام ودَرْسِه، فأيُّ شيءٍ ينفع السّماعُ على جَهَلَةِ المشيخة الذين ينامُون، والصّبيانُ يلعبُون، والشّبيبةُ يتحدّثُون ويمزحُون، وكثيرٌ منهم ينعسُون ويُكابرُون، والقارئُ يُصَحِّفُ، وإتقانُه في تكثير : أو كما قال، والرُّضَّعُ يتصاعقُون. با لله خَلُّونا فقد بقينا ضُحْكَةً لأولي العقُول، ينظرون إلينا ويقولون: هؤلاء هُم أهلُ الحديث. نعم ماذا يَضُرُّ، ولو لم يبقَ إلاّ تَكْرارُ الصّلاة على النّبيّ ﷺ لكان خيراً من تلك الأقاويل التي تُضادُّ الدِّين، وتطردُ الإيمان واليقِين، وتُرْدي في أسفل السّافلِين، لكنّك معذورٌ فما شممتَ للإسلام رائحةً، ولا رأيتَ أهلَ الحديثِ، فأوائلُهم كان لهم شيخٌ عالي الإسناد بينه وبين ا لله تعالى واحدٌ معصومٌ، عن معصومٍ سيّد البشر، عن جبريل، عن ا لله عزّ وجلّ؛ فَطَلَبَةُ مثلُ أبي بكرٍ وعمر وابنِ مسعودٍ وأبي هريرة الحافظ وابنِ عبّاسٍ وسادةِ النّاس الذين طالتْ أعمارُهم، وعَلا سندُهم، وانتصبُوا للرّواية الرّفيعَة، فحملَ عنهم مثلُ مَسْروقٍ وابن المسيِّب والحسن البصري والشّعبي وعُروة، وأشباههم من أصحاب الحديث وأرباب الرّواية والدّراية، والصّدق والعبادة والإتقان والزّهادة، الذين مِنْ طلبتهم مثلُ الزّهري وقتادة والأعمش ... وأيّوب وابن عَوْنٍ وأولئك السّادة، الذين أخذَ عنهم الأوزاعيُّ والثّوريُّ ومعمرٌ والحمّادان وزيادة ومالكٌ واللّيثُ، وخَلْقٌ سواهُم من أشياخ ابن المبارك

ويحيى القطّان وابن مهدي ويحيى بن آدم والشّافعي والقعنبي، وعدّة من أعلام الحديث الذين خَلَفَهُمْ مثلُ أحمد بن حنبلٍ وإسحاق وابنُ المديني ويحيى بن معينٍ وأبي خيثمة وابن نُمَيْرٍ وأبي كُرَيْبٍ وبُنْدار، ومَنْ يليهم من مشيخة البخاري ومسلم وأبي داود والنّسائي وأبي زرعة وأبي حاتمٍ ومحمّد ابن نصرٍ وصالح جزرة وابن خزيمة وخلائق في الزّمن الواحد، منهم الألوفُ من الحُفّاظ ونقلة العلم الشّريف.

ثمّ تناقص هذا الشّأنُ في المائة الرّابعة بالنّسبة إلى المائة الثّالثة، ولم يزل ينقصُ إلى اليوم. فأفضلُ مَنْ في وقتنا اليومَ من المحدّثين ـ على قلّتهم ـ نظيرُ صغار مَنْ كان في ذلك الزّمان على كثرتهم، وكم مِنْ رجلٍ مشهورٍ بالفقه وبالرّأي في الزّمن القديم أفضلُ في الحديث مِنْ المتأخّرين، وكم مِنْ رجلٍ مِنْ مُتكلّمي القُدماء أعرفُ بالأثر مِنْ مشيخة زماننا، فما أدْرَكْنا مِنْ أصحاب الحديث إلاّ طائفةً كقاضي ديار مصر وعالمها تقي الدّين بن دقيق العيد، والحافظ الحجّة شرف الدّين الدّمياطي، والحافظ جمال الدّين بن الظّاهري، والشّيخ شهاب الدّين أحمد ابن فرح الإشبيلي ونحوهم، وأدركنا من عكر الطّلبة شهابَ الدّين بن الدّقُوقي، ونجمَ الدّين بن الخبّاز، والشّيخَ عبد الحافظ. ونحمدُ الله تعالى في الوقت أناسٌ يفهمُون هذا الشّأنَ ويعتنُون بالأثر كالمزّي وابن تيمية والبرزالي وابن سيّد النّاس وقطب الدّين الحلبي وتقيّ الدّين السُّبكي والقاضي شمس الدّين الحنبلي وابن قاضي القضاة بدر الدّين بن جماعة وصلاح الدّين بن العلائي وفخر الدّين بن الفخر وأمين الدّين بن الواني وابن إمام أمّ الملك الصّالح ومحبّ الدّين المقدسي وسيّدي عبد الله بن خليلٍ وجماعة سواهُم فيهم العَكَرُ والغُثاءُ، [و] الله يسترُ،

والمرءُ مع مَنْ أحَبّ ، والسّعيدُ من نهـض وهَـبّ ، وعلـى الطّاعـة أكَـبّ ، وا للهُ الموفِّقُ الهادي »[١] .

[١٨٩] ما ذا فقهاً أُخْرَوِيّاً بل ذا فقهٌ دنيويٌّ

« يا رَجُل، دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك، واحتط لدِينك، ولا يكُـن همُّك الحكمَ بمذهبِك، فمن اتّقى الشُّبهات فقد استبرأ لدِينه وعِرْضِه، فـإذا عملتَ بمذهبك[٢] في الطّهارة والميـاه والوتـر والأضحيـة فـأنتَ أنـتَ، وإن كانت همّتُك في طلب الفقه والجدال والمِراء والانتصار لمذهبـك علـى كـلِّ حالٍ، وتحصيل المدارس والعُلُوّ فما ذا فقهاً أُخْرَوِيّاً بل ذا فقـهٌ دنيـويٌّ، فمـا أظنُّك تقول غداً بين يدي ا للهِ: تعلّمتُ العلمَ لوجهك وعلّمتُه فيك، فاحذَرْ أن تغلطَ وتقُولها فيُقال لك: كذَبْتَ إنّما تعلّمتَ ليُقـال: عـالِمٌ، وقـد قيـل، ثـمّ يُؤمـرُ بـك مسـحوباً إلى النّـار كمـا رواهُ مسـلمٌ في الصّحيـح، فـلا تعتقــد أنّ مذهبَك أفضلُ المذاهب وأحبُّها إلى ا للهِ تعالى، فإنّك لا دليـلَ لـك علـى ذلـك، ولا لمخالفك أيضاً، بل الأئمّةُ رضي ا للهُ عنهم كلُّهُم على خيرٍ كثـيرٍ، ولهـم في صوابهم أجران على كلّ مسألةٍ، وفي خطئهم أجرٌ على كلّ مسألةٍ »[٣].

---

(١) بيان زغل العلم والطّلب ص ٦ ـ ١٢ .

(٢) يخاطب الحافظُ الذّهبيُّ في هذا الفصل الفقيهَ الحنفيَّ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥ ـ ١٦ .

[١٩٠] يا سعادتَك إن نجوتَ من العلم كفافاً لا عليك ولا لك

« إن كانت همّتُك(١) كهمّة إخوانك من الفقهاء البطّالين الذين قصدُهم المناصبُ والمدارسُ والدّنيا والرّفاهيةُ والثّيابُ الفاخرةُ فما ذا بَرَكَةُ العلمِ، ولا هذه نيّةٌ خالصةٌ، بل ذا بيعٌ للعلم بحُسْنِ عبارةٍ، وتعجّلٌ للأَجْر، وتحمُّلٌ للوِزْر، وغفلةٌ عن الله تعالى .

فلو كُنْتَ ذا صَنْعَةٍ لكنتَ بخيرٍ، تأكل من كسب يمينك، وعرق جبينك، وتَزْدَري نفسَك، ولا تتكبّر بالعلم، أو كنتَ ذا تجارةٍ لكنتَ تُشْبهُ علماءَ السّلف الذين ما أبصرُوا المدارس، ولا سمعُوا بالجهات، وهربُوا لمّا للقضاء طُلِبُوا، وتعبّدُوا بعلمهم، وبذلُوه للنّاس، ورَضُوا بثَوْبٍ خَامٍ وكِسْرَةٍ كما كان من قريبٍ الإمامُ أبو إسحاق صاحبُ التّنبيه، وكما كان بالأمس الشّيخُ محيي الدّين صاحبُ كتاب المنهاج ، وكما تَرى اليومَ سيّدي عبد الله بن خليلٍ .

وعلى كلِّ حالٍ احْذَر المراءَ في البحث وإن كنتَ مُحِقّاً، ولا تُنازع في مسألةٍ لا تعتقدها، واحْذَر الكِبْرَ والعُجْبَ بعلمك ، فيا سعادتَك إن نجوتَ منه كَفَافاً لا عليك ولا لك ... »(٢).

---

(١) يخاطب الحافظُ الذّهبيُّ في هذا الفصل المشتغلَ بالفقه على مذهب الشّافعيّ .

(٢) بيان زغل العلم والطّلب ص ١٦ - ١٨ .

[١٩١] لا حاجةَ لك بأصُول الفقه يا مقلّد

« أصولُ الفقهِ لا حاجةَ لك به يا مُقَلِّد، ويا مَنْ يزعمُ أنّ الاجتهادَ قد انقطعَ وما بقي مجتهدٌ، ولا فائدةَ في أصُول الفقه إلاّ أن يصيرَ مُحَصِّلُه مُجتهداً، فإذا عرفهُ و لم يَفُكَّ تقليدَ إمامِه لم يصنعْ شيئاً بلْ أتعبَ نفسَهُ وركب على نفسه الحجّةَ في مسائل، وإن كان يقرأه لتحصيل الوظائف وليُقال، فهذا من الوَبال، وهو ضَرْبٌ من الخَبَال »[١].

[١٩٢] علمُ المنطق نفعُه قليلٌ وضررُه وَبيلٌ

« المنطقُ نفعُه قليلٌ، وضررُه وَبيلٌ، وما هو مِنْ علوم الإسلام، أمّا الحقُّ منه فكامِنٌ في النّفوس الزكيّة بعباراتٍ غريبةٍ، والباطلُ فاهرب منه فإنّك تنقطعُ مع خَصْمِكَ وأنتَ تعرفُ أنّك المُحِقُّ، وتقطعُ خَصْمَكَ وأنتَ تعرفُ أنّك على الخطإ، فهي عباراتٌ واهيةٌ، ومقدّماتٌ دَكّاكَةٌ، نسألُ الله تعالى السّلامةَ، وإن قرأتَهُ للفُرْجَةِ لا للحُجّة وللدُّنيا لا للآخرة فقد عذّبتَ الحيوان، وضيّعتَ الزّمان، وأمّا الثّوابُ فايْأَسْ منه، ولا تأمنْ من العقاب إلاّ بمَتَاب »[٢].

---

(١) بيان زغل العلم والطّلب ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ ـ ٢٥ .

[١٩٣] علمٌ في شِقٍّ وما جاءت به الرّسلُ في شِقٍّ

« الفلسفةُ الإلهيةُ ما يَنْظُرُ فيها مَنْ يُرْجى فلاحُه، ولا يَرْكَنُ إلى اعتقادِها مَنْ يَلُوحُ نجاحُه، فإنّ هذا العلمَ في شِقٍّ وما جاءت به الرّسلُ في شِقٍّ، ولكن ضلالُ مَنْ لم يَدْرِ ما جاءت به الرّسلُ ـ كما ينبغي ـ بالحِكْمَةِ أَشَرُّ ممّن يدري، واغَوْثاهُ با لله، إذا كان الذين قد انتدبُوا للرَّدِّ على الفلاسفة قد حارُوا ولحقتهُم كَسَفَةٌ فما الظَّنُّ بالمَرْدُودِ عليهم ؟ ... »[1].

[١٩٤] فَنُّ أبناء الدُّنيا

« الإنْشاءُ فَنُّ أبناء الدُّنيا ليس مِنْ علم الآخرة في شيء، والكامِلُ فيه يحتاجُ إلى مُشاركةٍ قويّةٍ في العلُوم الإسلاميّة، ويُريدُ عقلاً تامّاً ورزَانَةً، وسُرعةَ فَهْمٍ، وقوّةَ تخيُّلٍ، وتَبصُّرٍ باللّغة والنّحو، وخبرةٍ بالمعاني والبيان، والسِّير وأيّام النّاس، وفنون الأدب وحُسْنِ كتابةٍ، ولكن ليَكُن رأسُ مال المُنْشِيء تقوى ا لله ومُراقبتُه، فربّما وضعَ لفظةً تُعجبُه يهوي بها إلى النّار وهو لا يَدْرِي، وربّما أبدعَ في سَطْرٍ ترتّب عليه خَرابُ مصر، وربّما أعانَ بقلمِه على سَفْكِ دَمٍ بتلك البلاغة، فانظُر أين أنتَ يا بَليغ ... فكَمِّل بَراعة بلاغتِك بإرضاء ربِّك الأعلى، وبنُصْحِ ربِّ الأمر، فهنا كمالُ البَلاغة إن

---

(١) بيان زغل العلم والطّلب ص ٢٥ ـ ٢٦ .

كنتَ من المتّقين، وإن تعذّرَ ذلك فَدِينُكَ ما به عوضٌ، فمن اتّقى الله تعالى كفاهُ النّاسَ، ومن أرضى النّاسَ بسخط الله تعالى سلّط الله عليه مَنْ أرضاهُ، وإنّها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين »(١).

[١٩٥] اخْتَرْ لنفسِك أيَّ وادٍ تسلك

« الشِّعْرُ هو مِنْ فنُون المُنْشِيء، وهو كلامٌ فَحَسَنُهُ حَسَنٌ وهو قليلٌ، وقبيحُه قبيحٌ وهو الأَغْلَبُ، وبيتُ مالِه الكَذِبُ والإسْرافُ في المدح والهجو والتّشبيه والنُّعُوت والحماسة، وأملحُه أكذبُه .

فإن كان الشّاعرُ بليغاً مُفَوَّهاً مِقْدَاماً على الكذب في لهجتِه، مُصراًّ على الاكتساب بالشِّعْرِ، رقيقَ الدِّين، فقد قرأ مَقْتَ الشِّعْرِ في سُورة الشُّعراء، ويندرُ على الشُّعراء المجوِّدين أن يتصوّنُوا من الهجاء، وربّما أدّى الأمرُ بالشّاعر للتّجَاوُز إلى الكُفر نسأل الله العفوَ .

فالشّاعرُ المحسنُ كحسّان، والمقتصدُ كابن المبارك، والظّالمُ كالمتنبّي، والسَّفيهُ الفاجرُ كابن الحجّاج، والكافرُ كذوي الاتّحاد، فاخْتَرْ لنفسك أيَّ وادٍ تسلك »(٢) .

---

(١) بيان زغل العلم والطّلب ص ٢٧ ـ ٢٨ .

[١٩٦] علمُ الوَعْظِ

« الوَعْظُ : فنٌّ يحتاجُ إلى مُشاركةٍ جيّدةٍ في العلـم، ويَسـتدعي معرفـةً حسنةً بالتّفسير، والإكثارَ من حكايات الصّالحين الفقهاء والفقراء والزّهّاد، وعدّتُه التّقوى والزّهادةُ .

فإذا رأيتَ الواعظَ راغبـاً في الدُّنيـا قليـلَ الدِّيـن، فـاعلم أنّ وعظَـهُ لا يتجاوز الأسماع .

وكم من واعظٍ مُفَوَّهٍ قد أبكى وأثّر في الحاضرين في تلك السّاعة، ثمّ قامُوا كما قعدُوا، ومتى كان الواعظُ مثلَ الحسن والشّيخ عبد القادر انتفـعَ به النّاسُ »(١) .



(١) بيان زغل العلم والطّلب ص ٢٩ ـ ٣٠ .

فهرس الموضوعات

وصيّة الذّهبيّ لمحمّد بن رافع السّلاميّ ـ مقدّمة التّحقيق .... ٥ ـ ٦
وصف النّسخة الخطيّة ٧
توثيق نسبة الوصيّة للحافظ الذّهبي .... ٧ ـ ٨
نماذج من المخطوطة .... ٩ ـ ١٠
نصُّ وصيّة الذّهبيّ .... ١٣ ـ ١٩
جزءٌ في التّمسُّك بالسُّنن للحافظ الذّهبيّ ـ مقدّمة التّحقيق .... ٢٣ ـ ٢٤
اسمُ الجزء وتوثيقُ نسبته للحافظ الذّهبيّ .... ٢٤ ـ ٢٥
وصف النّسخة الخطيّة للجزء ٢٥
نماذج من المخطوطة .... ٢٦ ـ ٢٧
نصّ الجزء .... ٣١ ـ ٥٣
نصيحة العلاّمة ابن دقيق العيد لأحد نوّابه في القضاء ـ مقدّمة التّحقيق .... ٥٧ ـ ٥٨
نصّ النّصيحة .... ٥٩ ـ ٦٢
كلمات في العلم وأدب الطلب والاتّباع وذمّ الابتداع وغير ذلك مستخرجة
من كلام الحافظ الذّهبيّ ـ مقدّمة .... ٦٥ ـ ٦٦
[١] خطرُ الكذب على النّبيّ ﷺ .... ٦٩ ـ ٧٠
[٢] وأين مثلُ أبي حفصٍ عُمَر ؟.. ٧١ ـ ٧٢
[٣] أصلٌ كبيرٌ في الكَفِّ عن بثِّ الواهيات ٧٢

[٤] كلُّ إمامٍ يُؤخَذُ من قوله ويترَكُ إلاّ إمامُ المتّقين .... ٧٢ - ٧٣
[٥] متى الخَلاصُ إلى الإخلاص ؟ ٧٣
[٦] عِزٌّ تامٌّ وعلمٌ غزيرٌ ٧٤
[٧] وا لله إنّي لأحبُّه في ا لله - يعني ابنَ المبارك - ٧٥
[٨] علمٌ لا يُلائمُ علمَ النّبوّة ولا يُوافِقُ توحيدَ المؤمنين........................ ٧٥ - ٧٦
[٩] رحمَ ا للهُ امرءاً أقبلَ على شأنِه ٧٦
[١٠] اسكُتْ بحلمٍ أو انطق بعلمٍ.. ٧٧ - ٧٨
[١١] ما زال العلماءُ يختلفُون.. ٧٨
[١٢] وللحروب رجالٌ يُعرفُون بها .... ٧٨ - ٧٩
[١٣] مَحْضُ السُّنّةِ ٧٩
[١٤] لا حيلةَ في بُرْءِ الرَّفْضِ فإنّه داءٌ مُزْمِنٌ ٨٠
[١٥] خطرُ الشُّهرة ٨١
[١٦] كفى بالمرء إثماً أن يُحدِّث بكلِّ ما سمع .... ٨١ - ٨٢
[١٧] الحَنيفيّةُ السَّمْحَةُ .... ٨٢ - ٨٣
[١٨] نحمدُ ا للهَ على العافيةِ ٨٤
[١٩] العلمُ حجّةٌ على العالِم ٨٥
[٢٠] مشهورُ الدّوابّ والثّياب بين التّيه والتّواضُع ٨٥
[٢١] أبو جهلٍ وإبليس ! ٨٦
[٢٢] العالِمُ بين الصَّمت والنُّطق ٨٦
[٢٣] فتنةٌ اتَّقُوها بالتّقوى ٨٧
[٢٤] زُهّادُ السّلف وعُبّادُهم ٨٧

[٢٥] ما أحسنَ الصّدق ! ٨٨
[٢٦] ذِكْرُ النّاس داءٌ ، وذِكْرُ الله دواءٌ .... ٨٨ - ٨٩
[٢٧] وهل نَشْرٌ لعلمٍ يُقارِبُ تعليمَ القرآن ؟... ٨٩
[٢٨] أبى العلمُ أن يكون لغير الله ٩٠
[٢٩] لعنَ الله هذه المروءة ٩٠
[٣٠] بل السُّنّةُ ما سَنّهُ النّبيُّ ﷺ والخلفاءُ الرّاشدُون من بعده ٩١
[٣١] خَلَلُ الأخذ من الصُّحُفِ ٩٢
[٣٢] إنّما العالِمُ مَن يخشى الله عزّ وجلّ .... ٩٢ - ٩٤
[٣٣] أيُّهما أفضلُ طلبُ العلم أو صلاةُ النّافلة والتّلاوة والذّكْر .... ٩٤ - ٩٥
[٣٤] واغُربتاه ، ويا قلّةَ ناصراه ! .... ٩٥ - ٩٦
[٣٥] حُبُّ الحديثِ والعملُ به ٩٦
[٣٦] داءٌ مُزْمِنٌ ٩٧
[٣٧] صار الأمرُ بالعكس ٩٧
[٣٨] لا بل عليه اتّباعُ الدّليل فيما تبرهن له .... ٩٨ - ٩٩
[٣٩] حاجةُ العلماء إلى مجادلة أهل البدع بالكتاب والسُّنّة ٩٩
[٤٠] هو الحقُّ الذي لا حَيْدَةَ عنه ١٠٠
[٤١] علمٌ الجَهْلُ خيرٌ منه ١٠٠
[٤٢] أشدُّ الورعِ في اللّسان ١٠١
[٤٣] الحسدُ بغيٌ وخُبْثٌ .... ١٠١ - ١٠٢
[٤٤] إي والله صدقَ ١٠٢
[٤٥] الكلامُ في العلماء مُفتقِرٌ إلى وزنٍ بالعدل والورع ١٠٣

[٤٦] أمّا الخِيامُ فإنّها كخيامهم .... ١٠٣ - ١٠٤
[٤٧] جنايةٌ على السُّنّة وخيانةٌ لله ورسوله .... ١٠٤ - ١٠٥
[٤٨] العِلْمُ بالخصُومة والكلام جَهْلٌ والجَهْلُ بالخصُومة والكلام عِلْمٌ ١٠٥
[٤٩] لا قُدْوَةَ في خطإِ العالِم ولا يُوَبَّخُ بما فعله باجتهادٍ .... ١٠٥ - ١٠٦
[٥٠] وقليلٌ ما هُمْ ١٠٦
[٥١] هكذا - وا لله - كان العلماءُ ١٠٧
[٥٢] لا خيرَ إلاّ في الاتّباع .... ١٠٧ - ١٠٨
[٥٣] كان مُعافىً من معرفة حكمة الأوائل ١٠٨
[٥٤] كلامُ الأقران يُطْوَى ولا يُرْوَى .... ١٠٨ - ١١٠
[٥٥] مِنْ دَسائس دُعاة العُبيديّة ١١٠
[٥٦] العلمُ والعبادةُ ١١١
[٥٧] سَلْ أهلَ العلمِ إن كنتَ لا تعلَمُ .... ١١١ - ١١٢
[٥٨] لا يستويان مثلاً الكافرُ الأصليّ ومن كُفِّرَ ببدعةٍ لكن نبرأُ إلى الله من البدع وأهلها ١١٢
[٥٩] معتزليٌّ لم نَرَ كتبَهُ و لله الحمدُ ١١٣
[٦٠] انظر يا مسكينُ كيف أنتَ عنهم بمعزلٍ ١١٣
[٦١] الشّجاعةُ والسّخاءُ أخوان ١١٤
[٦٢] للكُلِّ موقِفٌ بين يدي الله تعالى .... ١١٤ - ١١٥
[٦٣] عباراتٌ وشقائقُ لا يعبأُ الله بها ١١٥
[٦٤] ذكاءٌ وبالٌ على صاحبه ١١٦
[٦٥] لا يُبْذَلُ العلمُ للجهلة الذين يفهمُون منه ما يضرُّهم ١١٦

[٦٦] العلومُ الباطلةُ كثيرةٌ جداً فلتُحذَرْ ١١٧
[٦٧] مقامان مذمُومان ١١٨
[٦٨] أعْطِ القَوْسَ باريها .... ١١٨ - ١١٩
[٦٩] كيف بالماضين لو رأونا اليومَ نسمعُ من أيِّ صحيفةٍ مصحّفةٍ! ..... ١١٩ - ١٢٠
[٧٠] الصَّدْعُ بالحقِّ عظيمٌ يحتاجُ إلى قوّةٍ وإخلاصٍ ١٢٠
[٧١] قُفْلُ باب الفتنة : عُمَرُ بن الخطّاب رضي الله عنه .... ١٢٠ - ١٢١
[٧٢] يظنُّونه مُحدِّثاً و بَسْ .... ١٢١ - ١٢٢
[٧٣] قلّ تحصيلُ العلم من أفواه الرّجال ١٢٢
[٧٤] ما الظنُّ إذا كان واعِظُ النّاس عبدَ بطنِه وشهوتِه ١٢٣
[٧٥] كلامُك يُعرَضُ على الله فلا تحترز ! ١٢٣
[٧٦] متى يُفْلِحُ مَنْ كان يسرُّه ما يَضُرُّه ؟ ١٢٤
[٧٧] الطّريقةُ المثلى هي المحمّديّةُ .... ١٢٤ - ١٢٦
[٧٨] هكذا كان السّلفُ يتّبعُون ولا يتنطّعُون ١٢٦
[٧٩] التّحديثُ من كتابٍ أبعدُ عن العُجب ١٢٧
[٨٠] ما زال العلماءُ يردُّ بعضُهم على بعضٍ ١٢٧
[٨١] ما أحسنَ حديثه ! ١٢٨
[٨٢] الاحتجاجُ بالمُحال والكذب دَيْدَنُ الإماميّة ١٢٨
[٨٣] على علمِ الحديث وعُلمائه ليبْكِ مَنْ كان باكياً ١٢٩
[٨٤] الذي يحتاجُ إليه الحافظُ ١٣٠
[٨٥] واحُزْنَاه على غُرْبَة الإسلام والسُّنّة ١٣٠
[٨٦] مُعَثَّرٌ مخذُولٌ ١٣١

[٨٧] تفسيرُ الإمام أحمد لا وجودَ له .... ١٣١ - ١٣٢
[٨٨] مسندُ الإمام أحمد وأمنيّةٌ للحافظ الذّهبيّ ١٣٣
[٨٩] نعوذُ با لله من الهَوى والفَظاظة .... ١٣٣ - ١٣٤
[٩٠] قد جعلَ ا للهُ لكلِّ شيءٍ قَدْراً ١٣٤
[٩١] قَلّ القَوّالُ بالحقِّ ١٣٥
[٩٢] المحدِّثون والفقهاءُ ١٣٥
[٩٣] ما أحسنَ التّقيُّد بمُتابعة السُّنن والعلم ١٣٦
[٩٤] هذا عَيْنُ الزّندقة .... ١٣٦ - ١٣٨
[٩٥] المقلِّدُ قاصِرٌ في التّمكُّن من العلم ١٣٩
[٩٦] لو عملُوا بيسير ما عرفُوا لأفلحُوا .... ١٣٩ - ١٤٠
[٩٧] مِن صفات العبد الصّادق ١٤٠
[٩٨] هكذا فلتكُن الهِمَمُ ١٤٠
[٩٩] هذه مُكابرةٌ ١٤١
[١٠٠] الكمالُ عزيزٌ .... ١٤١ - ١٤٢
[١٠١] بُعْدُ المغاربة عن علم الكلام ١٤٢
[١٠٢] خَلَواتٌ مبتدَعةٌ .... ١٤٢ - ١٤٣
[١٠٣] كيف يطيرُ ولمّا يُرَيِّشْ ؟ ! .... ١٤٣ - ١٤٤
[١٠٤] أنّى يُنْصَرُون وكيف لا يُخْذَلُون ؟ ١٤٤
[١٠٥] طلبُ العلمِ للعمل ١٤٥
[١٠٦] رسائلُ إخوان الصّفا داءٌ عضالٌ .... ١٤٥ - ١٤٦
[١٠٧] إحياء علوم الدِّين للغزالي في نظر الذّهبيّ ١٤٦

[١٠٨] العلمُ النّافع .... ١٤٦ ـ ١٤٧
[١٠٩] ما أشكلَ عليك فرُدَّه إلى الله ورسُوله ١٤٧
[١١٠] كتاب الشِّفا في رأي الحافظ الذّهبي .... ١٤٧ ـ ١٤٨
[١١١] دِماغٌ طاشَ وفاشَ وبقيَ قَرْعةً ! ١٤٨
[١١٢] صريحُ الاتِّحاد في تائيّة ابن الفارض ١٤٨
[١١٣] لن يُفلح مَن تعانى سرقةَ السّماع ١٤٩
[١١٤] مِنْ آداب المحدِّث .... ١٥٠ ـ ١٥٢
[١١٥] شكوكٌ ووساوسُ لا تَزُول إلاّ بسُؤال أهل العِلْم ...... ١٥٢ ـ ١٥٣
[١١٦] على الوالدين تعليمُ الأولاد ١٥٣
[١١٧] أقسامُ العلوم .... ١٥٣ ـ ١٥٦
[١١٨] لا تَنْسَ خبرَ النُّعمان بن بَشيرٍ في المُشتبهات ١٥٦
[١١٩] طلبُ العلمِ لمجاراة العلماء ومماراة السُّفهاء خطرٌ عظيمٌ...... ١٥٦ ـ ١٥٩
[١٢٠] ما جعلَ الله لرجُلٍ من قلبين في جوفِه .... ١٥٩ ـ ١٦٠
[١٢١] خِفْتُ أن أَعُقَّ والدي .... ١٦٠ ـ ١٦١
[١٢٢] صار باطنُه مأوى لقَرينِه .... ١٦١ ـ ١٦٢
[١٢٣] تاريخُ الإسلام كتابٌ جمعتُه وتعبتُ عليه ١٦٢
[١٢٤] أشياءُ أكبرُ مِن عقُول البَشَر ١٦٣
[١٢٥] مَنْ لم يجعل له نُوراً فما له من نُورٍ.................... ١٦٣
[١٢٦] اعجبُوا ـ يا مسلمين ـ لهذا الجُنون ١٦٤
[١٢٧] لم يكونُوا يَعُدُّون العالِمَ إلاّ مَنْ عمِل بعلمِه ١٦٤
[١٢٨] شرٌّ مِن إبليس وذو اتِّحادٍ وتَلْبيس ١٦٥

[١٢٩] ما أحدٌ من العُلماء إلاّ وما جَهِلَ من العلم أكثرُ ممّا عَلِمَ.......... ١٦٥
[١٣٠] كان النّاسُ في عافيةٍ ١٦٦
[١٣١] بدايةُ تناقُص الحفظِ .... ١٦٦ - ١٦٧
[١٣٢] كلمةٌ مَقيتةٌ ١٦٧
[١٣٣] تلك هي علومُ الإسلام .... ١٦٧ - ١٦٨
[١٣٤] قراءةُ حمزة ١٦٨
[١٣٥] سبقَ - وا لله - السّابقُون الأوّلُون ١٦٩
[١٣٦] آهٍ واحسرتاهُ على قلّة مَنْ يعرفُ دينَ الإسلام كما ينبغي ...... ١٦٩ - ١٧٠
[١٣٧] حلالةٌ ليستْ سُدىً ١٧٠
[١٣٨] خانَ ا لله ورسُولَه ١٧٠
[١٣٩] غُلُوٌّ لا نظيرَ له أصلاً ١٧١
[١٤٠] ليس ذا مِنْ كرامات الأولياء .... ١٧١ - ١٧٢
[١٤١] عَيْبُه علومُه ١٧٢
[١٤٢] الشِّرْكُ أعظمُ من كلِّ إفكٍ ١٧٢
[١٤٣] كذا فليكُن زهدُ الأولياء ١٧٣
[١٤٤] سنّةُ ا لله فيمن ازدرى العلماءَ ١٧٣
[١٤٥] أبعدهُم ا لله وأبعدَ شرّهُم ١٧٤
[١٤٦] التُّيوسُ الضُّلاّلُ .... ١٧٤ - ١٧٥
[١٤٧] سرقةُ الأجزاء والكتب ١٧٥
[١٤٨] ما يقعُ في هذا إلاّ ضالٌّ جاهلٌ ١٧٦
[١٤٩] با لله اسكتُوا حتّى نسكُتَ .... ١٧٦ - ١٧٧

[١٥٠] جَهْلٌ ما عليه مَزيدٌ ١٧٧
[١٥١] الحِرْصُ على الحديث والسُّنّة ١٧٨
[١٥٢] أسألُ الله السَّلامةَ من شَطَحات الصُّوفيّة .... ١٧٨ - ١٧٩
[١٥٣] اللّهمّ توفّنا على السُّنّة ١٧٩
[١٥٤] عذرٌ غيرُ مقبولٍ ١٨٠
[١٥٥] هكذا كان - والله - شيخُنا ابنُ تيمية ١٨٠
[١٥٦] لو أهدرنا كلَّ عالِمٍ زَلَّ لم يسلم معنا إلاّ القليل ١٨١
[١٥٧] هكذا كانت هِمَمُ العلماءِ .... ١٨١ - ١٨٢
[١٥٨] قد فتحَ الله بكتابنا هذا - يعني تاريخ الإسلام - ١٨٢
[١٥٩] بل الضّعيفُ مَنْ يَروي الموضُوعات ولا يتكلَّمُ عليها ١٨٣
[١٦٠] يا أبا الفَرَج لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثلَهُ .... ١٨٣ - ١٨٥
[١٦١] أتى فيه بالبَرَّة وأُذُن الجَرَّة ١٨٥
[١٦٢] كشفُ الحديثِ المكذُوبِ وهَتْكُهُ ١٨٦
[١٦٣] لا يزالُ الرّجلُ بعقلِه حتّى ينتصبَ لعداوة يزيد أو ينتصر له ١٨٦
[١٦٤] شأنُ مَنْ فَرَّقَ نفسَهُ في بحُور العلم ١٨٧
[١٦٥] حَالٌ دَجَّالِيٌّ وحَالٌ رَحْمَانِيٌّ مَلَكِيٌّ .... ١٨٧ - ١٨٨
[١٦٦] أما خافَ من الله إذ زعمَ أنّه صنّف كتاباً فيه سبعةُ آلاف روايةٍ ! ١٨٨
[١٦٧] مَنْ صدّق بهذه الأعجُوبة فما لنا فيه طَبٌّ .... ١٨٩ - ١٩٠
[١٦٨] كادتْ أصبهان أن تُضاهيَ بغداد في عُلُوِّ الإسنادِ ١٩٠
[١٦٩] هذا الفعلُ خلافُ السُّنّةِ ١٩١
[١٧٠] دخلَ في شيءٍ من الهَذَيان والضّلال ١٩١

[١٧١] الأوْباشُ المجانينُ ليسوا بأولياء لله عزّ وجلّ .... ١٩٢ - ١٩٣
[١٧٢] أشرفُ طرق الأنبياء وأفضلُها طريقةُ نبيِّنا ﷺ ١٩٤
[١٧٣] يا حَسْرَةً على العباد كيف لا يغضبُون لله تعالى ...... ١٩٤ - ١٩٦
[١٧٤] ينبغي للعالم أن لا يستعجلَ على الجاهل بل يرفقُ به ويعلِّمُه ممّا علّمه الله تعالى .... ١٩٦ - ١٩٧
[١٧٥] أَشَرُّ الكِبْرِ مَن تكبّر على العباد بعلمِه ١٩٧
[١٧٦] قواعدُ هامّةٌ في التّعامل مع الجيران .... ١٩٨ - ٢٠٠
[١٧٧] كلامُ الأقْرانِ بعضهم في بعضٍ لا يُعْبأُ به ٢٠٠
[١٧٨] واضعُ القِصَصِ التي لم تَكُنْ قَطُّ .... ٢٠٠ - ٢٠١
[١٧٩] كيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخِّرين كالقُوت وبهجة الأسرار وغيرهما ٢٠١
[١٨٠] رَتَن وما أدراك ما رَتَن ! ٢٠٢
[١٨١] بل شِبْرٌ من جَهْلٍ خيرٌ من باعٍ من حَظْوَةٍ ٢٠٢
[١٨٢] مَنْ أنعمَ النّظَر في فصوص الحِكَم أو أنعمَ التّأمُّلَ لاحَ له العجبُ ٢٠٣
[١٨٣] ذَوْقُ النُّقّاد .... ٢٠٣ - ٢٠٤
[١٨٤] إن أحببتَ - يا عبدَ الله - الإنصاف ٢٠٤
[١٨٥] آمنّا بالغيب - والله - .... ٢٠٤ - ٢٠٦
[١٨٦] لكلٍّ مقامٍ مقَال ولكلّ نِزالٍ رحَال ٢٠٦
[١٨٧] نادى على نفسه أنا أبو اعْرِفُوني .... ٢٠٧ - ٢٠٨
[١٨٨] أيُّ خيرٍ في حديثٍ مخلُوطٍ صحيحُه بواهيه وأنتَ لا تفليه ولا تبحث عن ناقليه .... ٢٠٨ - ٢١١

[١٨٩] ما ذا فقهاً أُخْرَوِيّاً بل ذا فقهٌ دنيويٌّ ٢١١
[١٩٠] يا سعادتَك إن نجوتَ من العلم كفافاً لا عليك ولا لك.......... ٢١٢
[١٩١] لا حاجةَ لك بأصُول الفقه يا مقلّد ٢١٣
[١٩٢] علمُ المنطق نفعُه قليلٌ وضررُه وَبيلٌ ٢١٣
[١٩٣] علمٌ في شِقٍّ وما جاءت به الرّسلُ في شِقٍّ ٢١٤
[١٩٤] فَنُّ أبناء الدُّنيا .... ٢١٤ - ٢١٥
[١٩٥] اخْتَرْ لنفسِك أيَّ وادٍ تسلك ٢١٥
[١٩٦] علمُ الوَعْظِ ٢١٦
فهرس الموضوعات .... ٢١٧ - ٢٢٧
فهرس المصادر والمراجع .... ٢٢٨ - ٢٣٦



فهرس المصادر والمراجع

● ابن الأثير : مجد الدّين أبو السّعادات المبارك بن محمّد ت ٦٠٦هـ
١ ـ النّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: محمود محمّد الطّناحي، المكتبة الإسلاميّة.
● أحمد بن حنبل الشّيباني ت ٢٤١ هـ
٢ ـ الزّهد ، تحقيق: د. محمّد جلال شرف، دار النّهضة ، بيروت .
٣ ـ المسند ، أعاد نشره المكتب الإسلامي، ودار صادر، ط الأولى، ١٣٨٩هـ.
● الألباني : محمّد ناصر الدّين
٤ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل، المكتب الإسلامي، ط الأولى، ١٣٩٩هـ.
٥ ـ سلسلة الأحاديث الصّحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م ، الرّياض .
٦ ـ صحيح سنن ابن ماجه، المكتب الإسلامي، ط الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، بيروت .
٧ ـ غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام ، المكتب الإسلامي، ط الثّالثة، ١٤٠٥هـ.
● البخاري : أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ
٨ ـ صحيح البخاري = انظر : ابن حجر : فتح الباري .

● ابن بطّة : أبو عبد الله عبيد الله بن محمّد بن بطّة العكبري الحنبلي ت ٣٨٧هـ
٩ ـ الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية ومجانبة الفرق المذمومة، تحقيق: رضا بن نعسان معطي، دار الرّاية للنّشر والتّوزيع، ط الأولى، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨ م .
● البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين ت ٤٥٨ هـ
١٠ ـ الأسماء والصّفات، حقّقه عبدُ الله بن محمّد الحاشدي، مكتبة السّوادي للتّوزيع، ط الأولى، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م .
١١ ـ بيان خطأ من أخطأ على الشّافعي، تحقيق: د. نايف الدّعيس، مؤسّسة الرّسالة، ط الأولى، ١٤٠٣ هـ .
١٢ ـ السّنن الكبرى ، دار المعرفة ، بيروت، عن الطّبعة الأولى بحيدر آباد.
١٣ ـ المدخل إلى السّنن الكبرى، حقّقه: د. محمّد ضياء الرّحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، ١٤٠٥ هـ .
● التّرمذي : أبو عيسى محمّد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩ هـ
١٤ ـ الجامع، تحقيق أحمد شاكر وغيره، طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط الأولى، ١٣٥٦هـ .
● ابن تيمية : أبو العبّاس أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨ هـ
١٥ ـ اقتضاء الصّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: محمّد فقي، مكتبة السّنّة المحمّديّة، ط الثّانية .
١٦ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرّحمن بن محمّد ابن قاسم العاصمي النّجدي الحنبلي، دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١ م.

● ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرّحمن بن عليّ ت ٥٩٧ هـ

١٧ ـ تلبيس إبليس ، إدارة الطّباعة المنيرية .

● الجيزاني : محمّد بن حسين

١٨ ـ قواعد معرفة البدع، دار ابن الجوزي، ط الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨ م.

● الحاكم : أبو عبد الله محمّد بن عبد الله النّيسابوري ت ٤٠٥ هـ

١٩ ـ المستدرك على الصّحيحين ، طبع دار المعرفة ، بيروت .

● ابن حجر العسقلاني : أبو الفضل أحمد بن عليّ ت ٨٥٢ هـ

٢٠ ـ تغليق التّعليق على صحيح البخاري، دراسة وتحقيق: سعيد عبد الرّحمن القزقي، المكتب الإسلامي، ودار عمّار، ط الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٢١ ـ فتح الباري، دار الريّان للتراث، والمكتبة السلفية، حققه محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي.

● الحلبي : علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

٢٢ ـ علم أصول البدع، دار الرّاية، ط الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

● الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي ت ٤٦٣هـ

٢٣ ـ شرف أصحاب الحديث، تحقيق: د. محمّد سعيد خطيب أوغلي، دار إحياء السّنّة النّبويّة، أنقرة ـ تركيا .

٢٤ ـ الفقيه والمتفقّه، تعليق الشّيخ إسماعيل الأنصاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٠ هـ .

● ابن خلّكان : شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١ هـ

٢٥ ـ وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط الأولى، ١٣٦٧هـ.

● الدّارقطني : أبو الحسن علي بن عمر ت ٣٠٦ هـ
٢٦ ـ سنن الدارقطني، عني بتصحيحه وتنسيقه وترقيمه وتحقيقه عبد الله هاشم يماني المدني، دار المحاسن للطباعة، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، القاهرة .
● الدّارمي : أبو محمّد عبد الله بن عبد الرّحمن ت ٢٥٥ هـ
٢٧ ـ مسند الدّارمي، تحقيق: عبد الله هاشم اليماني، طبع شركة الطّباعة الفنيّة بمصر، ١٣٨٦ هـ .
● أبو داود : سليمان بن الأشعث السّجستاني ت ٢٧٥ هـ
٢٨ ـ سنن أبي داود، تحقيق عزت عبيد الدعاس، دار الحديث، حمص .
● الدّينوري : أبو بكر أحمد بن مروان ت ٣٣٣ هـ
٢٩ ـ المجالسة وجواهر العلم، حقّقه مشهور حسن، دار ابن حزم، ط الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
● الذّهبيّ : أبو عبد الله محمّد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ
٣٠ ـ بيان زغل العلم والطّلب، عني بنشره القدسي، مطبعة التّوفيق، دمشق، ١٣٤٧هـ.
٣١ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط : الأولى، ١٤٠٧هـ .
٣٢ ـ تذكرة الحفاظ، صححه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ .
٣٣ ـ حقّ الجار ، تحقيق : أبي إسماعيل هشام بن إسماعيل السّقا، دار عالم الكتب ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ، الرّياض .

٣٤ ـ ذيل ديوان الضّعفاء والمتروكين، تحقيق: الشّيخ حمّاد بن محمّد الأنصاري رحمه الله، مكتبة النّهضة الحديثة، مكّة المكرّمة، ط الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
٣٥ ـ سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، ١٤٠١ هـ .
٣٦ ـ العلوّ للعليّ الغفّار ، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السّلف، ط الأولى، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .
٣٧ ـ الكبائر وتبيين المحارم، تحقيق: محيي الدّين مستو، مؤسّسة علوم القرآن ومكتبة دار التّراث، ط الأولى، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .
٣٨ ـ مسائل في طلب العلم وأقسامه، ضمن ستّ رسائل للحافظ الذّهبيّ، تقديم وتحقيق: جاسم سليمان الدّوسري، الدّار السّلفيّة للنّشر والتّوزيع، الكويت، ١٤٨٨هـ ـ ١٩٨٨م.
٣٩ ـ المعجم المختصّ، تحقيق: د. محمّد الحبيب الهيلة، مكتبة الصّدّيق بالطّائف، السّعوديّة، ط الأولى، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .
٤٠ ـ معرفة القرّاء الكبار على الطّبقات والأعصار، حقّقه بشّار عوّاد معروف وزميليه، مؤسّسة الرّسالة، ط الثّانية، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .
٤١ ـ الموقظة في علم مصطلح الحديث، اعتنى به: عبد الفتّاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، سوريا، ط الأولى، ١٤٠٥ هـ .
٤٢ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، تحقيق: عليّ محمّد البجاوي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.
● السّبكي : أبو نصر عبد الوهّاب بن عليّ ت ٧٧١ هـ
٤٣ ـ طبقات الشّافعيّة الكبرى، تحقيق: محمود محمّد الطّناحي وعبد الفتّاح محمّد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط الأولى، مصر، ١٣٨٣ هـ .

٤٤ ـ معيد النّعم ومبيد النّقم، دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط الثّانية، ١٩٨٤ م.

● ابن سعد : أبو عبد الله محمّد بن سعد البصري ت ٢٣٠هـ

٤٥ ـ الطبقات الكبرى، دار صادر، ودار بيروت، بيروت، ١٣٨٠هـ .

● السّعدي : أبو الحسن عليّ بن حُجْر ت ٢٤٤ هـ

٤٦ ـ حديث عليّ بن حجر السّعدي عن إسماعيل بن جعفر المدني، دراسة وتحقيق: عمر بن رفود بن رفيد السّفياني، مكتبة الرّشد، الرّياض، ط الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

● السّكّري : أبو سعيد الحسن بن الحسين ت ٢٧٥ هـ

٤٧ ـ ديوان الهذليّين ، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر، ١٣٨٥ هـ .

● السّيوطي : جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكرٍ ت ٩١١ هـ

٤٨ ـ الأمر بالاتّباع والنّهي عن الابتداع، تحقيق: مشهور حسن سلمان، دار ابن القيّم، ط الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠ م .

● الشّاطبي : أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي ت ٧٩٠ هـ

٤٩ ـ الاعتصام، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت ـ لبنان، وطبعة دار ابن عفان بتحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ط الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

● الشّافعي : أبو عبد الله محمّد بن إدريس المطّلبي ت ٢٠٤ هـ

٥٠ ـ الرّسالة ، تحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر، ط الأولى، ١٣٥٨هـ .

٥١ ـ المسند ـ مع بدائع المنن ، لعبد الرّحمن البنّا حمد الشّهير بالسّاعاتي، مكتبة الفرقان، ط الثّانية، ١٤٠٣ هـ .

● الطّبراني : أبو القاسم سليمان بن أحمد ت ٣٦٠ هـ

٥٢ ـ المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر: وزارة الأوقاف، العراق، ط الأولى ، ١٣٩٨هـ .

● ابن عبد البرّ : أبو عمر يوسف بن عبد البرّ النّمري ت ٤٦٣ هـ

٥٣ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي روايته وحمله، المطبعة المنيرية، ١٣٩٨هـ.

● الفسوي : أبو يوسف يعقوب بن سفيان ت ٢٧٧ هـ

٥٥ ـ المعرفة والتّاريخ ، حقّقه وعلّق عليه د. أكرم ضياء العمري، مكتبة الدّار بالمدينة المنوّرة، ط الأولى، ١٤١٠ هـ .

● الفيروزابادي : مجد الدّين محمّد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ

٥٤ ـ القاموس المحيط ، مؤسّسة الرّسالة ، ودار الرّيّان للتّراث .

● الفيُّومي : أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن عليّ ت ٧٧٠ هـ

٥٦ ـ المصباح المنير ، دار الفكر ، بدون تاريخ .

● القلقشندي : أبو العبّاس أحمد بن عليّ ت ٨٢١ هـ

٥٧ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٤٠٥هـ.

● اللاّلكائي : أبو القاسم هبة الله بن الحسن ت ٤١٨ هـ

٥٨ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، ط الثّانية، ١٤١١ هـ .

● ابن ماجه : أبو عبد الله محمّد بن يزيد القزويني ت ٢٧٥ هـ

٥٩ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

● مالك بن أنس الأصبحي الإمام ت ١٧٩ هـ

٦٠ ـ الموطأ، مالك بن أنس، رواية يحيى بن يحيى الليثي، صححه ورقمه وخرّج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

● المروزي : أبو عبد الله محمّد بن نصرٍ ت ٢٩٤ هـ
٦١ ـ السّنّة، خرّج أحاديثه وعلّق عليه: أبو محمّد سالم بن أحمد السّلفي، مؤسّسة الكتب الثّقافية، ط الأولى، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .
● مسلم بن الحجّاج : أبو الحسين القشيري ت ٢٦١ هـ
٦٢ ـ الجامع الصّحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، ط الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .
● مشهور بن حسن بن سلمان :
٦٣ ـ معجم المصنّفات الواردة في فتح الباري، دار الهجرة للنّشر والتّوزيع، ط الأولى، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .
● ابن منظور : أبو الفضل محمد بن مكرم ٧١١ هـ
٦٤ ـ لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .
● النّسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ت ٣٠٣ هـ
٦٥ ـ السُّنن المسمّى بالمجتبى ، اعتنى به عبد الفتّاح أبو غدّة، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، ط الثّانية، ١٤٠٦ هـ .
● أبو نعيم : أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت ٤٣٠هـ
٦٦ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط الثانية ، ١٣٨٧ هـ .
● الهرويّ : أبو إسماعيل عبد الله بن محمّد الأنصاري ت ٤٨١ هـ
٦٧ ـ ذمّ الكلام وأهله، تحقيق: أبي جابر الأنصاري، مكتبة الغرباء الأثريّة، المدينة النّبويّة ، ١٤٢٠ هـ .
● الهيثمي : أبو الحسن عليّ بن أبي بكر ت ٨٠٧ هـ
٦٨ ـ كشف الأستار عن زوائد البزّار على الكتب السّتّة، تحقيق: حبيب الرّحمن الأعظمي، مؤسّسة الرّسالة، ط الثّانية، ١٤٠٤ هـ .

٦٩ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ.

● ابن وضّاح : أبو عبد الله محمّد بن وضّاح القرطبي ت ٢٨٦ هـ

٧٠ ـ البدع والنّهي عنها، حقّقه بدر بن عبد الله البدر، دار الصّميعي، ط الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

● وكيع بن الجرّاح الرُّؤاسي ت ١٩٧ هـ

٧١ ـ الزّهد ، تحقيق: الفريوائي، مكتبة الدّار، المدينة المنوّرة، ط الأولى، ١٤٠٤هـ.

● ياقوت الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هـ

٧٢ ـ معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت .

